خطوات الكنغر

سعدي يوسف

خطوات الكنغر

سعدي يوسف

خطوات الكنغر

آراء ومذكرات

سعدي يوسف

خطوات الكنغر

آراء ومذكرات

المدى

منشورات

١	المدى	السيرة

Author : Saadi Yousif
Title : The Kangaroo Steps
Thoughts and Memories
Al Mada : Publishing Company
First Published, 1997

اسم المؤلف : سعدي يوسف
عنوان الكتاب : خطوات الكنغر
آراء ومذكرت
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
الطبعة الأولى : ١٩٩٧
Copyright © Al-Mada

الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means , electronic, mechanical, photocopying, recording or other wise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

مدخل

حين رأيت الكنغر ، للمرة الأولى ، في حديقة يابانية ، بإحدى ضواحي « سيدني » البعيدة ، استهوتني خطواته الواثبة ، وهو يتلفّت في غير ذعر ، لايبالي بالمتفرجين ، صغاراً أو كباراً . الكنغر لايستقر طويلاً في مستقَرّ ، حتى لكأنه يستمتع بانتقالاته الرشيقة ، معتبراً الفضاء الوسيع بيته بلا منازع .

هذه النصوص التي يضمُّها الكتاب ، أخذت من الكنغر خطوته ، فهي تتنقل ، مسرعةً الى حدّ التعجُّل أحياناً ، في الأماكن والكتب والإهتمامات ، محاولة اللحاق ، ولو لاهثةً ، بزخمٍ أو مايبدو زخماً .

غير أن في هذا التواثب ، نوعاً ولو هيِّناً من نظام ، فالكتاب يدور حول ثلاثة محاور هي الأماكن والشعر والرواية ، كما أن الآراء المبثوثة تحمل مسؤولية النظر الجادّ في ما أرود وأتابع ، وأرى .

النصوص ، في غالبها ، كتبتْ في أواسط التسعينات من قرننا هذا الذي يكاد يغيب .

وبهذا المعنى ، لايمكن اعتبارها اصداء بعيدة .

إن فيها شيئاً من رنين لو كان بالإمكان تعليق جرس في رقبة الكنغر!

سعدي يوسف

دمشق ١٩٩٦/٩/٢٦

أماكن

الطريق إلى كردستان

هذا الوشل ، الذي يتعيّن عليّ أن أقطعه ، هو دجلة ، كما يقولون . هكذا تفاجئنا الأشياء ، في بداياتها ، أو في نهاياتها . تفاجئ مسلّماتٍ وأوهاماً ، ربما كانت صورة دجلة واحدةً منها ، هذه الصورة الغائرة في الزمن منذ الطوفان ، والحاضرة في الذاكرة الشفاهية منذ أبي العلاء المعري ، حتى الجواهري الذي ظل يتقرى النهر العظيم ، لمسةً لمسةً ، إلى أن بلغ ضفادعه ، ليلعن صِبْيةً لا تشيخ ، وشِيخَةً دهرَها تُصطبى .

وشلٌ هو دجلة ، في هذا الآن من السنة ، متطامنٌ حدّ أنك لا تتكلف في عبوره غير وضع قدمك في قارب صغير ينقلك ، هُوناً ، إلى الضفة (الأخرى ؟) . لكنك تعرف دجلة جيداً ، تعرفه ذئباً ينام باحدى مقلتيه ، ويكفيك أن ترى مافعله بالطريق المعبَّدة ، من نهش وخمش ، حتى كاد يهدّها ، فيجعل سبيل الماشين والراكبين مستحيلاً .

ألم تحمل في أواسط الخمسينات اكياس الرمل ، لتُعلي سدوداً كانت امواجه تُلاطمها ، متهددةً بغداد بالطوفان ؟

ألم تره ، هادراً ، مزبداً ، كالذئب الأغبر ، يجرف في انحداره اشجاراً وأنعاماً وقناطر وجسوراً وبشراً ؟

ألم تحاول مفاضلةً بينه ، وبين الفرات الهادئ ، لتفضل دجلةَ ،تيّاهاً بتيهه ؟

أنت في هذا العبور العجيب ، تملأ عينيك أيضاً ، لكن ، لا من وشله .

أنت في هذا العبور العجيب ، تتملّى تاريخاً ومساراً ، تهاويلَ غُزاةٍ ، وبحّارةَ نهرٍ ينحدر بهم ، وبألواح الغابات المقتطعة ، هادراً إلى الموصل ، ليبلغ بغداد بعد حين ، متلفعاً بالليالي ، وحكايات السعالي ، والأغاني وهي تَصَّاعَدُ في لغاتٍ شتّى .

●

حصا الضفة الناعم ، لايزال تحت قدميك ، والقاربُ الذي قطع بك الوشلَ ، لمّا يستدر بعدُ ، لكنّ ابتسامةً واضحةً من شابٍّ قرب سيارة تويوتا ـ لاند ـ تقول لك إن الأصدقاء قد جاؤوا . تستقل السيارة مع متاعك الخفيف . من حافة الماء ، حيث الحصا الناعم ، تأخذك التويوتا ، صاعدةً ، في طريق ضيّق غير ممهد تقريباً . إنها مُصعدةٌ ، وسط حقل ألغام ، ملغومٍ بكثافة ، كما تقول الإشارة ، وأنت تضع يدك على قلبك ، مخافة انحراف يسير ، قد يرفع السيارة ، ومن فيها ، أشلاء متناثرةً في الهواء . إلا أن ابتسامة الشابّ الذي يقود السيارة تُطَمئنك... وها نحن اولاء ، نجتاز بحقل الألغام ، قاصدين زاخو... زاخو ، ضحية الأغاني المفْرطة في وطنيتها ، ضحية الحدود القصوى ، حيث اللغاتُ والجبال والأمواه في مشتبَكِ الأصول . يقول المحامي جمال بابان في الجزء الأول من كتابه «اصول اسماء المدن والمواقع العراقية» :

(تقع مدينة زاخو على نهر خابور على الحدود التركية العراقية ، وقبيل الوصول الى زاخو بعشرة كيلومترات يعبر الطريق جبل بي خير ، في ممر ضيق يعرف بممر زاخو ، ثم ينحدر بعد ذلك الى سهل يعرف بسهل السندي . وورد في المرشد ان مدينة زاخو لايعرف تاريخها بالضبط ، إلا أن المرجح أنها نشأت في الموضع الذي كانت فيه مدينة الحسينية التي ذكرها غير واحدٍ من

البلدانيين العرب . فقد ذكر المقدسي (القرن العاشر للميلاد) ان الحسينية تبعد مسيرة يوم واحد ، واقعة في الجانب المقابل من وادي الخابور ، والمحتمل ان زينوفون ، القائد اليوناني ، عند تراجعه مع الجنود الاغريق من العراق ، قد مرّ بهذا الموضع ، وذكَرَ قوم الكردوشي ـ الكردوخي ، أي الكرد ، في الجبال الكثيرة القريبة من منطقة زاخو) .

أما اصل الاسم فمختلفٌ عليه ، بين قائل بالأصل الآرامي (زاخوتا) اي الغلبة والظفر ، وقائل بالأصل الإغريقي نسبة إلى زاخاريوس احد قادة حملة زينوفون ، الذي وضع نواة المدينة فسميت باسمه ، أما السيد خضر العباسي فيروي على لسان الأب انستاس ماري الكرملي أن معنى زاخو في العبرية ، الغلبة .

التويوتا ، تنطلق نحو الممر الضيق : تلك جبال تركيا ، وهذا «بي خير» أحد جبال الأكراد ، بينما تكمن في حَنِيّةٍ ما ، ربيئةٌ من ربايا جيش بغداد .

●

لم نتلبث طويلاً في زاخو ، التي بدت فردوساً للسجائر والأدوات الكهربائية والخمور . إنها مدينة تضجّ بمآلها . مركز تموين وتهريب في زمن مضطرب . ابراهيم الخليل نقطة الجمارك الكبرى ، لكن كيف امتلكت نقطة الجمارك هذا الإسم الآتي من الكتاب المقدس ؟ لكل ارضٍ مقدَّسُها ، أو طوطمُها ، كما يقول اندريه مالرو وهو يتحدث عن علاقة باريس ببرج ايفل ، اما زاخو ، فقد يكون طوطمها ، الأكثر سخريةً ومرارةً...

●

في الطريق من زاخو الى دهوك ، نقابل الشاحنات التركية القادمة من الموصل . انها شاحنات غريبة حقاً ، تشبه ابقاراً اسطوريةً ، لكن لهذه الأبقار ، بدلاً من الضروع المترعة ، خزّاني مازوت هائلين ، يكادان ، لفرط مَسَفّتهما ، يمسّان الأرض . هذه الأبقار ـ الشاحنات ، تدبّ دبيباً ، مثقلةً

بالحليب الأسود ، الذي سوف تتلقفه ، في تركيا ، أفواه خزّانات صغيرة . وطوال الطريق ، أكواخٌ لباعة المازوت ، وأكواخٌ مقاهٍ وأكواخٌ مقاصفُ... عالمُ هجرانٍ وخطر ، والليلُ ارضٌ لماكس المجنون ، قرىً للمخافة .

●

نبلغ دهوك مساءً .

كنت زرت المدينة من قبل . اعني قبل عشرين عاماً . الآن ، أرى المدينة أجمل : شوارع متدفعة بالحيوية . ثمت حريّة وخفّة في حركات الناس ، وهم يسيرون ، أو يَطعمون ، أو يتحدثون . المرور منظّم جيداً ، والمكتبات عديدة . على الأرصفة صحف مختلف الأحزاب والتنظيمات المعارضة ، وكذلك صحف نظام بغداد . يقف المرء يشتري كوردستان نوي ، خه بات ، ريگاي كوردستان ، طريق الشعب ، أو صحيفة الجمهورية البغدادية...

لا احد يقول لك : اشتر ، أو لا تشترِ .

لا عين تحصي عليك خطواتك او سطور صحيفتك .

تحررت المدينة من قصور الطاغية وصوره .

تحررت من رجال أمنه .

تحررت من سجونه ومعسكراته .

وهي الآن تعيش في زمن الطيران...

●

هذا الصباح ، علينا ان نقطع مقامنا هنا ، قاصدين شقلاوة ، أو شقلا باز كما سمّاها ياقوت الحموي في (معجم البلدان) قائلاً عنها : «قرية كبيرة مليحة في لحف الجبل المطل على اربيل . ذات كروم كثيرة وبساتين وافرة ، ينقل عنها الى اربيل ، العام بطوله فيكفيهم ، بينها وبين اربيل ثمانية فراسخ » .

من مشاهير هذه القرية شمعون الشقلبازي ، وله تاريخٌ بالآرامية ، ألّفه في اواخر القرن الثاني عشر للميلاد .

لكن لشقلاوتنا ، شهراتها ، ومشاهيرها ، في أعوامنا هذه . لقد كانت لها انتفاضتها قبل الانتفاضة . الملازم سعدون حرّرها ، واستولى على مبنى الأمن العام ، باثني عشر رفيقاً فقط . وفي قرية كوري بينها وبين صلاح الدين اوقفت مفارز من الأنصار الشيوعيين والاتحاد الوطني الكردستاني دروع جيش بغداد ، حيث الدبابات المحترقة وناقلات الجنود المحطمة لا تزال في مكانها .

شقلاوة ، هي أيضاً ، ملْتقى الأحزاب .

فاكهاني ، لكن كبيرة .

في ذاكرتي ، أماكن وفنادق ، ودروب...

كنت أزور شقلاوة ـ قبل عشرات السنين اكيداً ـ وآنسُ الى مواضع فيها : شرفة فندق ، جلسة على مجرى نبعٍ دافق . مرتقى من سفح سفين .

غير أن الأمور تتبدل . سنّة حياة . ثمت فنادق أمست مقرات أحزاب ، ودروبٌ غلّقتْها حواجز ، ومرتقيات غدت موحشةً . ترى ، اهكذا تفعل الأحزاب حين تتخذ قريةً جميلةً مستقراً ، ومقرّاتٍ ؟

أليس على الأحزاب الكردستانية ، وهي ليست في ضائقة ، ان تُعنى بطرقات المدينة ، وفنادقها ، ومقاهيها ؟

أليس عليها ، أن تردّ الى شقلاوة ، الدَّين ؟

أليس مفروضاً ان تكون شقلاوة اجمل الآن ؟

ام ان علينا ، ان نرجع بها ، الى زمن ياقوت الحموي ، حين كانت تدعى شقلاباز ؟

●

نمرّ بـ« صلاح الدين » ، متجهين الى اربيل ، عاصمة جمهورية كردستان الفيدرالية (بعد الرابع من تشرين اول ١٩٩٢) . ومن حديقة فندق الخضراء ،

حيث يقيم معارضون حفلة عشاء ، تبدّت لي عمائم ولحى وعُقُلٌ ، بينما الشمسُ الغاربة تضيء جبال كردستان . توقفت السيارة خارج صلاح الدين لشراء البنزين من باعةٍ صفّوا غالوناتهم على الرصيف . محطات البنزين الواسعة ، معطلة ، بسبب حصار بغداد . ليتر البنزين يباع في كردستان بسبعة دنانير ، بينما سعره في الموصل القريبة ، أو كركوك المركز سبعون فلساً . لقد صار الوقود ، للنقل ، والطبخ ، والتدفئة ، كابوساً ثقيلاً . الغاباتُ تُقطَع ، والحمل الواحد من خشب الوقود بلغ سعره ثلثمائة وخمسين ديناراً (مرتب الطبيب المقيم مائتان وخمسون ديناراً في الشهر)اشجار الكالبتوس التي هي على امتداد الطريق بين صلاح الدين واربيل صارت جُذاذاتٍ لصيقة بالأرض . ويقول صاحبي : وداعاً للغابة!

مدخل اربيل ، للقادم من صلاح الدين ، مدخلٌ جميل . انه ليس فضاء اكواخ وبيوت قصدير ، كما في العديد من حواضر العالم الثالث . ثمت نقطة سيطرة ، ومدفعٌ مضاد للطائرات . الوقت مساء . وفي مقهى رصيف عند فندق هيرش ، كان عروسان يجتازان بباب الفندق ، وحولهما ، وإثرهما ، جمعٌ راقص من فتيات وفتيان بملابس كردية مفوّفة الألوان ، ذات بهاء يخطف الأبصار .

ألتقي في المقهى صديقاً عربياً . صديقاً قديماً . العالم مليء بالمفاجآت . الليلة ابيت هنا ، وغداً ، في الصباح الباكر ، سأنطلق الى السليمانية ، حيث سنضع اللمسات الأخيرة على ترتيبات معرض الكتاب .

كانت السهرة في نادي الموظفين بـ « عينكاوة » ، البلدة التي لي فيها معارف كُثر .

●

بين أربيل والسليمانية ، وعلى امتداد الطريق ، ليس بمقدور المرء ، إلا ان يتفكر بما فعلته السنوات العشرون الشريرة .

القرى المنسوفة . مجمّعات السكن القسرية . الإبادة المنظمة لشعب توّاقٍ الى الحرية والكرامة...

قرية خلكان ، التي ألّفَ ابنُها «ابن خلكانٍ» ، كتابه الشهير «وفيات الأعيان» ، لم تنجُ ، هي ، أيضاً ، من تسويتها بالأرض ، نسفاً وتهجيراً . بدأ اهلها ، أو بقيَّتُهم ، يعودون إليها ، يجمعون الحجر الذي نفّره الديناميت ، ليقيموا منازلهم . ومثل خلكان ، أربعة آلاف وخمسمائة قرية ، سوِّيت بالأرض...

أي مخطط شيطاني!

احياناً افكر كالآتي : امةٌ غزت امةً اخرى ، ثم انسحبت الأمة الغازية . هذه الأمة الغازية سوف تترك آثاراً ، وبصماتٍ ، وشواهد . الإغريق مثلاً ، تركوا تماثيلهم ومعابدهم الجميلة على أطراف اليونان الكبرى (الماجنا غريكا) ، وفي قبرص وكريت والاسكندرية والساحل السوري ، لاتزال آثارهم قائمة . الرومان ، وهم الأشد عسكريةً في تلك الأيام ، تركوا آثارهم ايضاً ، حتى على شواطئ البرابرة ، كما كانوا يعبِّرون . لقد تركوا مدناً ، وملاعب ، ومسارح ، ومعابد ، وحمّامات ، ومنظومات طرقٍ ومجارٍ وريّ ، تركوا التماثيل والصناعة...

لكنني ، وأنا اسرِّحُ الطّرْفَ في ارجاء كردستان ، لا اجد ممّا خلّف نظام الطغيان غير الروايا ، والمعسكرات الموحشة ، والقرى المنسوفة ، ومئات الآلاف من القتلى ، بقبور ، أو بلا قبور ، في «الأنفال» ، ومديريات الأمن ، ومقرات الفرق العسكرية...

ترى ، من أي كهفٍ سحيقٍ ، خرجت هذه الرسالة ؟ الليلة ، سأتحدث طويلاً مع د . عز الدين مصطفى رسول ، زميلي ايام الطلب ، وصديقي ، ورفيقي في المظاهرات... رئيس اتحاد الأدباء الأكراد .

١٩٩٢/١١/١٠

●

السليمانية ، هذه المدينة التي بناها ابراهيم پاشا بابان ، ونقل إليها مركز الإمارة البابانية من قلعة چوالان القريبة من الحدود الإيرانية ، لايزيد عمرها على مائتي عام إلا قليلاً ، لكني اراها تكاد تكون المدينة الوحيدة في كردستان ، بسبب تطورها الحضريّ البيِّن ، وهواء الحياة المفتوح الذي تتميز به الحواضر . وإن كانت اربيل عاصمةً إدارية ، فإن من حق السليمانية ان تغدو العاصمة الثقافية .

وفي تسميتها آراء ثلاثة ، أولها ان ابراهيم پاشا بابان سمّاها تيمناً بجدٍّ له يدعى سليمان وحفيدٍ يحمل الاسم ذاته ، وثانيها كما يقول العلامة محمد أمين زكي ان هذا الاسم مشتقٌ من اسم « سيلونا » وهي المدينة التاريخية القديمة التي شيّدت السليمانية على انقاضها ، أما الرأي الثالث الطريف فيقول إن العمال عندما كانوا يحفرون اسس المدينة عثروا على خاتم نُقش عليه اسم سليمان ، فسمّاها ابراهيم پاشا بابان السليمانية ، تيمناً باسم سليمان النبي الذي امتلك الخاتم السحريّ!

●

ما أن انعطفت السيارة ، من الشارع الرئيس ، حتى وجدت اننا وسط ساحة واسعة ، يرتفع عليها العلم الأحمر ذو المنجل والمطرقة . قال لي صاحبي : لدينا مقرّان هنا . دخلنا احد المقرَّين ، وشاهدت ببابه شاحنة « ايفا » عسكرية اظنها من غنائم الانتفاضة . كان شباب البيشمرگه يحرسون المقر ، في جو رائق... الابتسامة في كردستان هي الإيماءة السائدة ، وشبابُ البيشمرگه ليسوا استثناءً .

تذكرت عبد اللطيف اللعبي ، وأنا افكر بالراية الحمراء الخافقة في هذه الساحة من ساحات السليمانية ، لقد قال لي يوماً ونحن نقلّب شؤوننا ، في باريس ، إن الرايات التي نُكستْ في اوروبا سوف ترتفع في بلداننا . تمنيت لو كان عبد اللطيف معي ليرى ، عياناً ، كم كان محقّاً ، وكم هي عميقةٌ هذه

البلاد التي اريدَ لها ان تتهدم على رؤوس اهلها ، حجراً حجراً...
ادخل المقر ، كأني ادخل بيتي .

●

أول ما فكرتُ به ، بعد تناول الشاي (وهو شبه إجباري) ، الاتصال بصديقي د . عز الدين مصطفى رسول ، الذي يتحمل الى جانب مسؤولياته في الجامعة واتحاد الأدباء الأكراد ، المسؤولية متعددة الجوانب لنائبٍ في برلمان كردستان ، متنقلاً بين اربيل حيث البرلمان والجامعة والاتحاد ، والسليمانية حيث المنزل العائلي والناخبون ذوو المطالب اليومية الملحّة ، وما اكثرها هذه الأيام...

اكثر من عشرين عاماً مرّ على آخر لقاءٍ لنا . تنقّلَ هو أيضاً في الأرض ، وتشرّد ، وعرف الخطر ، لكن السليمانية ظلت ، لديه ، مركز العالم .

اتذكّره ، اوائل الخمسينيات ، حين جاء من قلعة دزه الى بغداد ، ليدرس في الكلية ، اللغة العربية وآدابها . كان مفاجأة بحقٍّ . كرديٌّ يفقه العربية خيراً منّا ، نحن ، زملائه العرب . لكنه ابن شيخ ، ترعرع في اسرة علمٍ ودينٍ ، وجاء بغداد يحمل علمه ودينه ورايته الحمراء . كان يقود الإضراب ، ويتقدم التظاهرة ، ويلقي قصائد حماسة .

كيف سأراه الآن ؟

بعد ساعة جاء . دخل مكتب الحزب ، عاصفاً ، شأنه قبل أربعين عاماً ، يبدأ حديثاً كي لا يكمله ، منتقلاً الى حديث آخر . كان غنياً بالذكرى ، في ادقّ تفاصيلها وأغربها ، وأبعدها عن التذكُّر ، وهذا كله ، في مرحٍ لايعرف حدوداً .

قال لي : ماذا تفعل هنا ؟ هيا ، نمش في الشارع الرئيس قليلاً ، ونمضي الى البيت .

هكذا ، مضينا إلى بيته ذي الطابقين ، والشرفة المنفتحة على جبل پيرة مگرون السامق ، حيث دُفن عند قمته (حسب الوصية) العلاّمة توفيق وهبي .

يقول د . عز الدين مصطفى رسول إن على الجبل ضريحاً يقدّسه العامّة هنا ، وأعتقد ، بموجب التحليل اللغوي ، ان هذا الضريح ليس لشيخٍ مسلمٍ ، وإنما هو لمتديّنٍ زرادشتي .

المكتبة الشخصية الغنية تضم مخطوطات نفيسة ، بعضها لوالده . قال إن رجال الأمن اقتحموا بيته ، في الانتفاضة . تركوا الكتب ، وشربوا الخمور ، ثم رحلوا ، بينما كان هو في الجبال البعيدة ، حيث الثلج الكثيف .

●

قال كاكه عزي ، والليل يكاد ينتصف ، وجبل پيره مگرون ماثلٌ برغم الظلام العميم :

● الآن ، نقول لكم وداعاً...

- لمن ، يا عزّي ؟

● للعرب... ألم تشاهد ما فعلتم بنا ؟ الم تشاهد القرى المنسوفة ، والمنازل المحروقة ، والمقابر الجماعية ، و... و... ؟

- لكني ، لم أفعل هذا . لقد سُجنتُ ، وفُصلتُ ، وشُرّدت اكثر منك . بل لا ازال مشرداً ، منفياً ، حتى اليوم...

● أمثالك قليلٌ يا سعدي .

- لكنك تعرف جيداً ان ثمت كثيرين عانوا ماعانيت ، وأكثر... وتعرف جيداً ان مقاتلين عرباً حاربوا مع الشعب الكردي في فصائل الأنصار...

● تظل الأمور خاضعة للمقايسة .

- مثلا ؟

● ما نسبة الذين عارضوا هتلر من الألمان ؟ ماذا كان الروس يقولون عن الألمان ، في الحرب ؟ اكانوا يفرّقون بين جنديّ الماني وآخر ، باعتبار احدهما هتلرياً ، والآخر معارضاً ؟

- وحين سقط هتلر ؟ الم يتوصل الروس والالمان الى أكثر من صيغة لعلاقة

تعاون ؟

● أفضل أن نقول لكم وداعاً...

- ليس بمقدورك الا القول حسب . الفعل سيكون مختلفاً .

● كيف ؟

- إنك عاجزٌ عن إلغاء الجغرافيا . نحن شعبان جاران ، لانستطيع إلغاء جدل الجوار . ثم ماذا انت قائلٌ عن ثقافة مشتركة حقاً ؟

● علينا ، أولاً ، ان نفكر وحدنا .

- في رأيي ، يا كاكه عزي ، ان العراق السياسي ، مصطلحاً وواقعاً ، لم يعد قائماً كما كان .

لكن العراق التاريخي يظل قائماً ، بجدل تاريخه ، وحضاراته ، ولغاته... إننا محكومون ، يا عزي ، بالتاريخ والجغرافيا . ولسنا ـ بأي حال ـ أسوأ من الأتراك والايرانيين .

●

حلبچة ، أوسع قضاء في كردستان ، تقع في سهل شهرزور الخصيب ، حيث يجري نهر تانجرو ، ليسقي السهل .

سُميت ، كما يقال ، تيمناً بمدينة حلب . إن حلبچة ، باللغة الكردية ، صيغة تصغير لحلب ، كأنك تقول حلب الصغيرة .

تنطلق من السليمانية لتقطع ثمانية وسبعين كيلومتراً ، كي تبلغ القضاء ، لكن عليك ، وانت في سهل شهرزور ، ان تمر بـ «سيد صادق» التي تبعد عن السليمانية حوالي خمسين كيلومتراً . «أما سيد صادق الذي سميت القصبة باسمه ، فهو احد ابناء الشيخ عيسى البرزنجي الذي توفي في هذه الانحاء ، ودفن في قمة تل يشرف على القرية ، فاشتهرت بسيد صادق» .

إن سيد صادق مركز ناحية شهرزور في قضاء حلبچة .

اقتربنا من تجمّع خيام نُصبت على عجل ، خيام قماش ، خيام صوف ،

خيام عسكرية ، أكواخ من الأغصان...

● ماهذا ؟

- سيد صادق!

لقد نُسفت البلدة ، بيتاً بيتاً ، سُوّيت بالأرض ، ونُقلت حتى الحجارة . لم يبق حجرٌ على حجر . السكّان هربوا ، أو قُتلوا ، أو رُحّلوا الى المجمّعات القسرية ، حيث الرعبُ سيّدٌ .

رأيت مجموعة خيام انيقة . قالوا لي انها مدرسةٌ أقامتها إحدى وكالات الغوث الدولية . المعلمون متطوعون ، والتلاميذ يقتعدون الأرض .

ونمضي في طريقنا الى حلبچة .

ثمت لافتة : مفوضية الأمم المتحدة لإعادة توطين اللاجئين .

وندخل حلبچة .

كنت في صبرا وشاتيلا بعد الغارات الإسرائيلية على المخيم ، في فترة وقف إطلاق النار . وأُقسم لك ان الدمار الذي لحق بحلبچة كان أبشع وافظع . لقد نُسف مستشفيا البلدة ، والمدارس ، والأقسام الداخلية ، ودوائر الحكومة . كنت ترى السقوف الاسمنتية وقد هبطت لتكون ارضاً ، اما الشوارع فيكاد يغلقها الركام . هاهي ذي انقاض النادي ، والكازينو ، والمحكمة... المبنى الوحيد الباقي كان مبنى الاستخبارات . على المبنى تخفق الراية الحمراء ، اذ اتخذه الحزب الشيوعي مقراً .

في ١٦/٣/١٩٨٨ ، وقبل اعياد النوروز بأيام ، بدأ القصف المدفعيّ كثيفاً ، اختبأ الناس اتّقاء القصف ، لكنّ القذائف والصواريخ كانت تنهال بلا هوادة... بدأ الناس يهربون من البلدة ، متخذين الدروب المؤدية خارج البلدة مهرباً ، صفوف طويلة من البشر المذعورين تتجه الى الجبال البعيدة ، في ذلك الوقت ، بالضبط ، بدأ القصف الكيمياوي . أحد الذين نجوا من الغاز السام قال لي ان للغاز روائح مختلفة ، بعضها شذيّ ، والناس يموتون مختنقين ، محتقنين ، نازفين ، الأطفال والنساء والشيوخ . دروب النجاة أغلقتها جثث

القتلى . عوائل كاملةٌ اختنقت في بيوتها ، بينما كان القصف المدفعي يلاحق الذين قُدِّر لهم ان ينجوا من الاختناق بالغاز . شاهدنا مقبرة جماعية لثلثمائة شخص تضم أُسراً كاملة . وقبل اسبوع من مجيئنا إلى حلبجة عُثر على مقبرة جماعية جديدة في ضواحيها القريبة . المفقودون ليس لهم عَدٌّ . وأمس ، بعد اربع سنين ، عُثر على طفل فُقد ذلك اليوم الشنيع .

بعد هذا كله ، اطبقت الوحشية على البلدة ، ونسفت البيوت بمن فيها ، بيتاً بيتاً . كانت كميات الـ T.N.T غير كافية كما ظهر من برقية ارسلها رجال الأمن الى مركزهم في السليمانية يطلبون خمسمائة كيلوغرام إضافية من المتفجرات .

● انظرْ! هنا كانت غابة...

وانظرْ ، لأرى نبتات ضئيلة تُتلع اعناقها...

الغازات السامة قضت على الشجر والبشر ، والمدافع نقضت الحجر على الحجر .

من أين جاءت هذه الكفاءة الخاصة ؟ كفاءة الوحش ؟

●

حلبجة ، الآن ، لاتزال في طريق الآلام . لاتزال ركاماً . الماء شحيح ونور الكهرباء غائب . دورٌ قليلة فقط اعاد اهلها بناءها بأظافرهم . يقول مسؤول الحزب هناك : نحن نموت ، لنظل واجهة تُستدرُّ بها المساعدات . لكن المساعدات لاتصل الينا .

●

غريبٌ ماحلَّ بهذه البلاد .

أيُّ ولعٍ بالصحراء .

ولماذا تسوَّى القرى ، والبلداتُ ، بالأرض ؟

لماذا هذا الإصرار على إشاعة الجدب والقحط...

اسرِّحُ البصر في سهل شهرزور الفسيح... لا احد ، على مدى البصر .
لا قرية تغيّر رتابة المشهد .
لكن السهل كان غنيّاً بقراه ، ومزارعيه ، واغانيه...
كم سنة نحتاجها كي يعود الناس الى السهل ، يزرعون ويغنّون ، ويهبون الطبيعة حبَّهم الذي لا ينفد ؟
كم سنة نحتاجها كي يمّحي من ذاكرة الأطفال رعب الدبابات والمدافع والطائرات القاصفة ؟
وعلى أي جوهر سوف يقف الإنسان وقفته الجليلة في الكون ؟

●

المشهد المكفهر :
سهل مترامي الأطراف ، سهلٌ للثمر والقمح المتماوج في الريح . لكنه سهلٌ للقرى المنسوفة ، للحجر النثير...
وهناك بيوت الرقيق ، متلاصقة ، ضيقة... وحداتُ سكنٍ قسريّ ، ذات مدخلٍ واحد ، مدخل عسكريّ .
وليس بعيداً عن بيوت الرقيق التي تضم الآلاف ، ليس بعيداً عنها ، وعلى نشزٍ من الأرض ، المعسكر ، بأبراجه التركية ، وأسواره الألمانية ، ومزاغله...
المعسكر يتحكم ليس فقط ببيوت الرقيق ، وإنما بعقدة المواصلات الى مسافةٍ جدّ بعيدة .
اترى الرقيق كانوا يسيرون طوابير الى الحقول ؟
ام تراهم كانوا يُنقلون إليها في ارتال من الشاحنات العسكرية ؟
أيُّ لعنةٍ حلّت بهذه الأرض يوماً ما ؟
أيُّ لعنة!

١٩٩٢/١١/١١

●

قلعة دزه ، مركز قضاء بشدر في محافظة السليمانية ، تقع بين دوكان وجبل قنديل الوعر ، وهي ليست بعيدة عن الزاب الصغير ، وكانت في القرون الغابرة إحدى محطات الطريق الملكي الآشوري ، بعدها يمتد سهل بيتوين الخصيب الذي يلفّ ببساطه الأخضر ، بلدة رانية ، قبل ان تستلمها الجبال .

لماذا دُمِّرت هذه البلدة تدميراً كاملاً بالديناميت ؟

ظلت قلعة دزه ، منذ الحكم الملكي ، مركزاً للمعارضة ، والانتفاض ، وملتجأً للمطاردين .

وكان البيشمرگه الشيوعيون بخاصة ، يتخذون في جبل قنديل الوعر ، مقرّات لهم وقواعد ، يتعذّر على جيش النظام بلوغها . وقد ألِفَ هؤلاء البيشمرگه ، النزول من قواعدهم العصيّة ، الى قلعة دزه للتموين والاتصال . كانت قلعة دزه ، شأنها شأن حلبجة ، بلدةً يسارية .

فاذا واصلت الطريق الملكي الآشوري ، بلغتَ رانية ، وهي ، مثل شقيقتيها بلدةٌ يسارية .

ماذا فعل نظام الطغيان ؟

ارسل جيشه ، سالكاً الطريق الآشوري ، يبني في مسيرته القلاع ، والربايا ، والمعسكرات ، ويمحق القرى ، ويحاصر البلدات .

لكن غطرسته مضت به أبعد حتى مما فعل . هكذا قرّر محقَ المدن ومحوَها . حلبچة . قلعة دزه . وكان مخططاً لرانية وراوندوز المصير ذاته ، لولا انتفاضة البشر ، ووقفتهم الأخيرة الظافرة .

زرت قلعة دزه . كان دمارها شاملاً . اكثر من حلبچة . ربما لأن المنفذين لم يكونوا في عجلة من أمرهم ، فتوافر لديهم من الديناميت اكثر مما توافر لأولئك الذين كانوا في حلبچة .

●

في قاعة فندق «شيرين بالاس» بمدينة اربيل ، التقيت بالقاص الكردي الصديق حسين عارف . انه الآن نائب في برلمان كردستان . في بغداد كان يعمل في مديرية الثقافة الكردية . ترك العمل . اشتغل محامياً في السليمانية ، وهو الآن في اللجنة الحقوقية بالبرلمان . قال لي إن شيركو بي كه س يبلغني التحية . شيركو ، علامة التحديث في الشعر الكردي المعاصر . والده فائق بي كه س (أي لا أحد) قال الجواهري في رثائه :

بلا احدٍ ايها العبقريّ وانت الجميع ، وانت الأحد

كنا نلتقي ، انا وشيركو ، في مقر اتحاد الأدباء ببغداد ، حين نُفي الشاعر من بلدته السليمانية الى قرية بالرمادي تدعى بغدادي . وكنت امازحه قائلاً له : إن بينك وبين مایاكوفسكي قرية اسمها بغدادي ، هو ولد فيها ، وانت تسكنها...

وقبل عامين التقينا في برلين ، في اسبوع للثقافة العراقية نظّمته «دار ثقافات العالم» . كان شيركو ، ضجراً ، ضاق بحياة المنفى ذرعاً . اتفقنا على العودة ، سوياً ، الى البلد ، لكنه سبقني . هو الآن وزير الثقافة في حكومة الإقليم .

زرته ، مهنئاً ، في مكتبه بالوزارة . وقد كان عاد من زيارة عمل للسويد ، حيث كان منفياً . قال : قلت للسويديين إني وزير ثقافة ، بلا قلم وورقة! اردت ان ابيّن لهم اننا محاصرون ، وبلا وسائل .

ويضيف شيركو الشاعر : لكنني كنت أعرف هذا ، حين جئت ، وتحملت المسؤولية . إنه لخيارٌ ، ولسوف امضي معه ، وبه ، حتى النهاية...

- والبداية ، ياشيركو ؟

ـ نحن بحاجة الى مساعدتكم ، الى اصواتكم ، الى تفهمكم قضيتنا ، انتم المثقفين العرب .

- والمشاريع الآنية ؟

- إصدار صحيفة يومية عن وزارة الثقافة ، اسمها : هه ريم (الإقليم) ، وإعادة إصدار مجلة « كاروان » ، اي القافلة ، بطبعتين ، كردية وعربية .

●

الليل الكردستاني يهبط فجأةً ، وبلا مقدمات .

الجبال ـ ثمت جبال على الدوام ـ تتلقف شمس الأصيل ، دفعةً واحدةً ، وترمي بها ، في لحظة ، خلفها ، لتخلّفَ المكان ، هامداً هكذا ، تحت ظلام دامس . إنني اتحدث عن القرى ، عن بلدات مثل رانية ، تنقطع فيها الكهرباء لساعات...

بتّ ليلةً ، مع شباب البيشمركة ، في مقر الحزب بـ « رانية » . في الصباح ، كان المنظر بهيجاً . حديقة . عشبٌ نضرٌ . دبّابةٌ صالحة للاستعمال من غنائم الانتفاضة ، وراية حمراء ترفرف فوق الرأس ، بينما التلاميذ يتجهون الى مدارسهم مرحين .

لكن ، حين هبط الليل الكردستاني ، احسست بالحصار . الى اين اذهب ؟ قلت : اريد ان اتمشّى . اجابوني : حسناً ، لكن داخل المقر ، إذ ليس من المستحسن ان تتمشى هذه الساعة في البلدة . اي ساعة ؟ إنها لم تبلغ السابعة بعد . نعم ، ايها الرفيق ، لكن الأفضل ان تتمشى داخل المقر . صحيح ان المقر ذو ساحة واسعة ، وطرق معبّدة (كان مستشفى عسكرياً) ، إلا ان التمشي داخل السور ، مختلف طبعاً ، عن التمشي خارجه .

●

لم تعجبني المقرات الشيوعية ، وكذلك مقرات احزاب اخرى زرتها . العنوان العريض الذي يشمل المقرات جميعاً هو : المكتب المسلّح . المباني التي احتلتها الأحزاب ، كانت تعود إمّا الى النظام ، او إلى انصاره المتحمسين ، وهي ، لهذا السبب ، واسعة ، متعددة الحجرات والمرافق ، ذات حدائق وشرفات .

لكنّ هذه المباني ، الآن ، تكاد تتحول الى ثكنات صغيرة . مهجع مشجب سلاح . نقطة حراسة . مطبخ . مكتب .

حسناً . والقاعات الأخرى ؟ ببساطة تامّةتؤول القاعات الاخرى الى مستودعات ، ومزابل .

المكتبة ؟ لا مكتبة . قاعة عرض فيديو ؟ ماذا ؟

النادي الثقافي ؟

والنظافة ؟

●

الأكراد ، في صبوةٍ من صبوات التاريخ النادرة .

لهم الآن ، جمهورية ، وبرلمان ، ومجلس وزراء .

جهاز الأمن «الأساييش» شرع يعمل . والفندق لا يستقبلك بدون إذن من الجهاز . عُطِّل مفعول قنابل ، وسيارات مفخخة ، وأُلقي القبض على متسللين...الخ .

وثمت حرس حدود ، وجيشٌ يتكوّن من استيعاب فصائل البيشمركة . المدارس مفتوحة ، وكذلك الإدارات الأساسية . لكنّ المشكلات ، بل الإشكالات ، الجوهرية ، لاتزال ماثلةً ، كالثوابت .

مثلاً : هل ستكون العلاقة بالعراق ، أم بالعراق العربي ؟

استغلال النفط... هل سيتمّ ؟

وإلى أي مدى ستظل العلائق الكردية ـ التركية ـ الإيرانية في مستوى المراقبة ، والجدل الخفيّ ؟

أتُرى مايجري امامنا ، تحررٌ قومي ، أم تحررٌ وطني ؟

وهل الصبوة ، وحدها ، قادرة على إطعام شعب وتشغيله ؟ والاخلاق ؟ ما مدى المسافة بينها وبين السياسة ؟

●

أسئلة ، كالتي سلفت ، ليست قائمة فقط أمام احزاب مثل الحزب الديمقراطي الكردستاني ، والاتحاد الوطني الكردستاني ، ويكگرتن ، وزحمه تكيشان ، وهي احزاب كردية قومية ، لكنها مطروحة ايضاً أمام الحزب الشيوعي العراقي المنشغل ، أساساً ، هذه الأيام ، بجدل المتاعب ، متاعبه...

●

إن كان لدى الحركة الكردية قصورٌ ما ، فهو ، بالتأكيد ، ليس في المناورة .

لكن السؤال هو : هل الساحة واسعةٌ إلى هذا الحدّ ؟

●

بعد ثلاثة عشر عاماً من مغادرتي العراق ، ومقاربتي مايجري في بلدانٍ تتقدم ، أشعر بفداحة الخراب الذي ألحقه بالبلد والناس ، حكمٌ سَنَدُه الإرهابُ مطلقاً ، والنفطُ متدفقاً ، حُكمٌ لم يكن الناس في تصوّره ، سوى ادوات لتحقيق اهدافٍ هي في جوهرها اوهامٌ . وإلاّ ، أيكون معقولاً ان يسخّر حكمٌ جيشه لإبادة شعبٍ شريكٍ ، إبادةً ماديةً ، وثقافيةً ؟

وهل بالإمكان إبادةُ الشعوب ؟

قد تتعرض الشعوب الى محنٍ واستباحات ، قد يُحَرَّم عليها التحدثُ بلغتها ، وارتداء ملبسها ، وترديد اغانيها ، وأداء رقصاتها ، قد تُقتطَعُ اراضيها ، وتُقطَعُ لآخرين ، وقد يُحَكَّمُ في رقابها السيفُ ، فلا تنجو إلا بقيّةٌ...

لكنّ هذا كله ، يظل عبثاً .

إن لغةً ميّتة ـ هكذا يتراءى لنا ـ تغدو ، في فُجاءةٍ مدهشةٍ ، راية الثورة .

إذن ، لم كان ذلك العبثُ كلُه ، بالبلاد ، والناس ، والمصائر ؟ لماذا حُوِّل العراقُ الى صحراء تتار ، ليس فيها من شواخص غير المعسكرات ؟

لمَ جرى ماجرى ؟

لمَ هبط ليلُ البلاد المفتوحة على ارض الرافدين ؟

لا أريد أن يكون للأسئلة جوابٌ وحيدٌ ، جوابٌ مشخَّصٌ . فالمحنة أقسى من أن تُرَدَّ إلى شخصٍ تافهٍ ، أُلقيَ منذ زمنٍ في مَطْهَر النسيان والاختلال .

المحنة أقسى...

ونحن ، لم نتعلم بعدُ .

●

عليَّ الإسراع بقطع دجلةَ ـ الوشلِ ، مخلِّفاً ورائي غاشيةً ليس مثلها من غاشية .

أتراكُ على الجسر ، كما يقول مجنون إيفو اندريتش .

وعليَ أن اغادر .

هل ستراني عائداً ، يوما ؟

أتراكُ على الجسر...

١٩٩٢/١١/١٢

أيّامٌ أستراليّة

جاء اللبنانيون أولاً

أمضيت في استراليا (مدينة سيدني بالتحديد) حوالي ثلاثة أسابيع. ذهبت الى هناك بدعوة من «رابطة الخريجين الاستراليين العرب»، وهي تجمُّعٌ فضفاض، منشغلٌ بنفسه اكثر مما هو منشغل بالشؤون الهامّة والعامّة، لكنه ـ على اي حال ـ يحاول ان يفعل شيئاً في جالية عربية اكثر فضفضةً.

جاء العرب الأوائل الى استراليا، وكانوا لبنانيين، منذ مائة وثلاثين عاماً (عمر استراليا البيضاء في حدود مائتي عام). ومن اساطير الهجرة أن المهاجر اللبناني الأول كان يقصد اميركا، وحين رست به السفينة على الشاطئ، كان فرحاً لأنه بلغ تلك القارة، وظل يبعث الى أهله برسائل يصف فيها اميركا، وحياته في اميركا... حتى عرف الحقيقة بعد حين!

إذاً، جاء اللبنانيون اولاً.

وبعدهم الآثوريون.

فالفلسطينيون والأردنيون.

وأخيراً العراقيون.

هذه الجالية، لايكاد يجمعها سوى أنها على هذه الأرض المسوّرة بالمحيط الهادي، حيث يتهادى سمك القرش، وحيث تُبلغك طائرةٌ سماءَ القطب الجنوبي في جولة مستطلعة، بأربعمائة دولار فقط.

شؤون الأعمال والمال هي التي تحرّك الناس. هم، فيها، ومن أجلها، يتحركون، ويظلون يتحركون، حتى إذا بلغ احدهم الكهولة، او اشرف على الشيخوخة، تذكّرَ منبتاً له، وثقافةً، وأرضاً، وحاول ان يمدَّ يداً، هنا، وهناك، فنجد القطار قد مضى بعيداً، به، وبأبنائه.

فليحتفظ بالذاكرة ، في الأقل . ليكنْ له النادي حيث يجتمع ابناء المنطقة والضيعة ، ولتكن قاعة الأفراح حيث تصدح أغاني البيت القديم على شفاه مغنيات ومغنين جاؤوا من هناك ، ولتتأسس الجمعية او الجماعة كي تحفظ مالم يتبدد بعدُ ، من ذكرى ارضٍ وجيرةٍ ومعتقد وعوائد موروثة .

هكذا سوف تحُفظ الأنساب والعصبيات وأسماء القرى ، وسوف يتنافس المتنافسون على رئاسة الجمعية ، كما كانوا يتنافسون ، ايام زمانٍ ، على المختارية...

●

تقاليد السادة

في العام ١٧٨٨ (قبل الثورة الفرنسية بعام واحد) ، وفي خليج بوتاني هبط البحارة الانجليز على الشاطئ .

كانت ارضاً عجيبة ، يسكنها شعبٌ بسيط ، رحَّب بالقادمين ، معتقداً أن ارواح أسلافه الآلهة هي التي عادت في صورة هؤلاء البيض .

السادة الذين جاؤوا من وراء المحيط والبحار ، حملوا معهم تقاليدهم البشعة التي سأذكر منها اثنين ، حسب .

كان يؤتى بالسجناء من انجلترا ، ليشْقَوا حتى الموت في بناء المستوطنات ، يقطعون الأحجار ، ويمهدون الطرق ، ويبنون الجسور ، والاستحكامات العسكرية . ولايزال عدد من هذه الجسور والاستحكامات ماثلاً ، بحجارته الضخمة التي لايقدر على قطعها ونقلها إلا العبيد ، وهم في الحالة الاسترالية ، العبيدُ البيض ، سجناء القارة القديمة ، بُناة المسالك المبكرة في القارة الجديدة .

لابد أن عدد السجناء كان كبيراً كي يغدو بالإمكان تشييد الشواخص الضخمة ، مثل الاستحكامات المطلة على منطقة المرفأ...

ولابد أن السجناء أنفسهم ، بنوا سجنهم بأيديهم ، هذا السجن الماثل

الآن ، موحشاً رهيباً ، قلعة حجر وسط الماء ، في جزيرة وسط المحيط... إنه قريب جداً من دار الأوبرا الجديدة ، التي ترتفع على الخَبَج ، مثل أشرعة زوارق ، أو أفواه كواسج .

التقليد الثاني الذي جاء به السادة ، هو القتل أيضاً ، قتل سكان البلاد الأصليين الذين رحّبوا بهم عند خليج بوتاني . لقد طورد هؤلاء الناس ، وطُردوا الى اكثر جهات استراليا قسوةً وجفافاً ، ودُمِّرت طريقة عيشهم الطبيعية... لقد اعتبروا وحوشاً يحقّ للسادة قتلهم ، أو إبادتهم ، بالرصاص والأوبئة ، وتنظيم رحلات للتسلي بصيدهم . وحتى الستينات كان قتل السكان الأصليين مباحاً . نسبة السكان الاصليين تبلغ الآن ، واحداً بالمائة ، من سكان استراليا . هذا ماتبقى . لكن الروح لا تموت . إن لهم رايتهم الآن ، الراية التي تحمل ألوان اربعين الف سنة من إقامتهم في ارضٍ لم يعرفها الرجل الأبيض إلا قبل قرنين . وحين رفعت عدّاءةٌ استرالية من السكان الأصليين ، راية قومها ، في مراسيم فوزها بجائزة سباقٍ عالمي ، كانت تعرف ماتفعل!

●

جمهورية ٢٠٠١

إن كانت التقاليد الأساسية للسادة ، مستوطني أستراليا ، تعتمد كما أسلفتُ ، مبدأ القتل : قتل السجين الأبيض ، وقتل ابن البلد الأسمر ، وهي تقاليد جاؤوا بها من الوطن الأم ، فإن ما شهده العالم من حروب وغليانات ، وماشهدته أستراليا في هذه الحروب والغليانات ، جعل هذه التقاليد موضع مُساءلة . خذ ، مثلاً ، اشتراك الجنود الاستراليين في معركة غاليبولي (الدردنيل) في الحرب الأولى ١٩١٤-١٩١٨ ، إذ اعتبرتهم القيادة البريطانية وقود مدافع ، فقُتلوا بعشرات الآلاف بينما لم يكن عدد سكان استراليا آنذاك يتعدى اربعة ملايين ، ثم الحرب الثانية ، فالكوريّة ، فحرب الخليج الثانية...

كان الاستراليون ، في هذه الحروب كلها باستثناء الحرب الثانية يذهبون الى مناطق جد بعيدة ، يخوضون حروباً بالنيابة ، ويتكبدون ضحايا وخسائر ماكانوا ليتكبدوها لو أن وطأة التقاليد الأولى والتزاماتها كانت أخفَّ .

وثمت ، أمر آخر : لو أراد الأستراليون تعميراً أسرع لقارتهم ، فإن عليهم فتح باب الهجرة لشعوب وأقوام شتى . هؤلاء لن يأتوا إلى بلدٍ كان القتل عنوان تقاليده . المهاجر ، أي مهاجر ، يرحل طلباً للكسب والحرية . على الاستراليين ، إذاً ، ان يُغيِّروا ويتغيروا . عليهم أن يوهنوا تلك السلاسل التي تشدُّهم الى ماضي البلد العتيق شداً . وقد حاول رئيس وزراء سابق ، مايحاوله بول كيتنغ الآن ، فاستعملت الملكة مطلق صلاحياتها ، وأمرت الحاكم العام ضمناً بإقالة رئيس الوزراء ذاك .

بول كيتنغ رئيس الوزراء العمّالي ، يضع هذه الأيام ، الجدول الزمني لمغادرة استراليا كومونويلث التاج ، وإعلان البلد جمهورية في العام ٢٠٠١ ، مع كل مايعنيه هذا الإعلان من تحرير لإرادة ، وتقرير لمصير ، وتحديد لأولويات في السياسة الخارجية بخاصة ، اولويات تعنى باستراتيجيا المنطقة (جنوبي شرق آسيا) ، اكثر من عنايتها باللعبة الكبرى على مستوى العالم ، كما تريد لها بريطانيا المحافظين ، والولايات المتحدة الاميركية .

●

ثورٌ مجنّح ومندائيّون

منذ تولّى حزب العمال ، الحكم ، قبل أعوام قليلة ، إثر فوزه على حزب الأحرار المحافظ ، انتهج سياسة مرنة في الهجرة ، فازداد عدد المهاجرين الى استراليا من الشعوب غير البيضاء ، ذات الأديان المختلفة ، وبرزت اكثر فأكثر تطبيقات التعددية الإثنية ، وشُجِّع الاندماج في العملية الاجتماعية مع الحفاظ على الهوية .

زرت مدينة فيرفيلد Fairfield City ، التابعة لولاية نيو ساوث ويلز ،

وهي مدينة غير بعيدة عن سيدني عاصمة الولاية . يمكن القول إن اكثر من تسعين بالمائة من سكان فيرفيلد هم من الآثوريين العراقيين الذين هاجروا الى استراليا في موجات متعاقبة تتلو فترات الاضطراب المتعاقبة في تاريخ العراق الحديث . ثمت نادٍ هو «نادي نينوى» ، في مدخله ثورٌ مجنّحٌ ضخم ، والنادي مشيَّد على الطراز الآشوري المفترض . التقيت بأنور خوشابا ، نائب محافظ المدينة ، وهو آثوريّ من العراق ، كان لاعباً معروفاً في فريق الشرطة ببغداد . أهداني قلماً وربطة عنق عليهما شعار المدينة . شكرته على القلم بخاصة . قلت له إنني لا ارتدي ربطات العنق . كان شخصاً دمثاً ، دقيقاً .

وهو من حزب العمال .

منطقة لاكيمبا (في سيدني) تقطنها أغلبية لبنانية ، وبمقدورك ان ترى الواجهات واللافتات تزدهي بالحروف العربية ، وأن تأكل الحمص والفول والفلافل والكباب كأنك في الطريق الجديدة ، مثلاً . التقيت بنائب لاكيمبا ، توني ستيوارت ، وهو من حزب العمال . كان فخوراً بمنطقته ، وبأبنائها العرب الذين أيدوه في حملته الانتخابية مقابل مرشحَ عربي من حزب الأحرار المحافظ .

في لاكيمبا ، زرت المكتبة العربية ، وهي مشروع شخصيَ اظنه ناجحاً . وقد حدّثني صاحب المكتبة (وهو ينشط ايضاً في الشحن والسفر) انه يعتزم إقامة معرض للكتاب العربي ، قريباً .

زرت أيضاً معرضاً اقامه «مركز البحوث المندائية» في قاعة ممتازة تقدمها الإدارة المدنية ، مجاناً ، تشجيعاً للأنشطة الثقافية الإثنية .

وللجالية العربية في سيدني ثلاث صحف ، وعدة محطات للإذاعة والتلفزيون . كما تخصص الإذاعة الرسمية ساعاتٍ للبث باللغة العربية الى جانب خمسين لغة أخرى .

●

ثقافة في البرلمان

في برلمان ولاية نيو ساوث ويلز ، التقيت في جلسة مشتركة داخل مبنى البرلمان بخمسة من نوّاب حزب العمال . كان الحديث متشعباً ، يأخذ طرفاً من هنا ، وآخر من هناك . حدثتُهم عن الحصار الذي يتفكك تحت وطأته ، النسيجُ الاجتماعي في العراق . قالوا إنهم يتفهمون الأمر ، لكن بلادهم ملتزمة بقرارات الأمم المتحدة . قلت إن بمقدور المنظمات غير الحكومية ان تفعل الكثير ، وبخاصة في مجال الغذاء والدواء .

لكن حديث الثقافة كان له النصيب الأوفى . سألوني عن لقاءاتي الثقافية بالجالية العربية والعراقية ، وإن كنت لمستُ اهتماماً واضحاً بالثقافة والفنون . وحين اجبتهم بالإيجاب استغربوا ، وقال أحد النواب : أمرٌ حسنٌ ان يبرز الجانب الثقافي في حياة الجالية . كان العمل والعيش عنوانَي الحياة . الآن تولد ظاهرة جديدة .

والحقُّ ان انصراف المهاجرين انصرافاً شبه كامل الى شؤون العيش والكسب ، جعلهم ، الى حدٍ ما ، خارج اسئلة المجتمع الأسترالي . وقالت لي سيدة هي عضو في اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الاسترالي إن من أسباب ضعف الحركة النقابية ، وجود الجسم الكبير للعمال المهاجرين خارج معارك الحركة النقابية الاسترالية .

كان اليساريون والشيوعيون العرب يناضلون في صفوف الحزب الاشتراكي الأسترالي ، إلا ان التمايز بينهم وبين هذا الحزب في ما يتصل بقضايا عربية معينة ، جعلهم يشكلون منظماتهم الخاصة ، التي هي فروع للأحزاب اليسارية والشيوعية في المنطقة العربية .

تحدثت مع النواب الخمسة عن فكرة إنشاء مركز ثقافي ـ اجتماعي ، للجالية العراقية ، يضم كل الجمعيات ، ويكون ارضاً مشتركة للّقاءات على اختلافها ، ومرتبَعاً للقادمين ، علماً بأن استراليا شرعت تستقبل شهرياً ، وبصورة منتظمة ، عشرات العراقيين المهاجرين .

رحَّبوا بالفكرة ، ووعدوا بالسعي الى تنفيذها ، مطالبين بتهيئة مشروع متكامل الصياغة .

اردت القول هنا إن سياسة حزب العمال تبنت التعددية الإثنية ، منذ فترة ، والثقافة ، بالطبع ، هي الجوهر لكل هويةٍ اثنية . إنني متفائل بإمكان قيام «المركز الثقافي ـ الاجتماعي» . وحين سألني احد النواب عن زيارتي المقبلة إلى استراليا ، اجبت بأنني سأكون في «سيدني» يوم افتتاح المركز!

●

خطوطُ الريح

يبدو «الزائر» في السفارات الأسترالية ، شخصاً مرغوباً فيه . التأشيرة تعطى اليومَ نفسه ، وبالمجّان .

الأمرُ مفاجئٌ لي ، انا الذي اعتدتُ الوقوف طويلاً أمام الشبابيك ، حتى وإن كنت احمل دعوةً رسمية من البلد المعنيّ .

إذاً ، سأذهب ، بالفعل ، الى استراليا ، لأرى قارةً جديدةً ، ومحيطاً جديداً ، اضيفهما الى تكويني ، والى مشهد هذا العالم الذي أحبّه... ولسوف تكون رحلتي عبر البحرين وسنغافورة .

في مطار البحرين فكرتُ بأن اهتف الى قاسم حدّاد ، رفيقي في رحلة الشعر ، لكنني ارتبكُ إزاء جهاز الهاتف ، وبخاصة حين اكون في مطار . فلأحتفظ بهتافي الداخلي الى قاسم حدّاد ، ولأكتفِ من البحرين بالمنظر الذي يتبدّى من وراء الزجاج .

حول مطار سنغافورة ، رأيت الخضرة ، والخلجان ، والتداخل العجيب بين الأرض والماء .

الساعات تمضي ، طويلةً ، مملةً ، بالرغم من الموسيقى والفيديو والعناية الممتازة .

في الرحلات الطويلة ، لا ليل ولا نهار .

يقول الطيار : نحن نقترب من سيدني .

من النافذة أرى ارضاً بُنَيةً ذات خطوط بيض منتظمة .

أسألُ جليستي (وهي استرالية من مدينة أديلايد) : هل الأرض مزروعة ؟

تجيب : إنها قاحلة حتى اللعنة .

وأسألُ : والخطوط البيضُ ؟ أليست قنوات مياه ؟

تقول : لا . إنها خطوط الريح...

تُرى... أ هبط الأمير الصغير هنا ؟

الطائرة تهبط . تحطّ على المدرج .

كان ثمت بردٌ خفيف . نحن في شهر آب ، بداية الشتاء الاسترالي .

لكنْ... من هؤلاء ؟

الأطفال ، والكبار ، والنساء...

عراقيون في المنفى يحملون الزهور ، والابتسامة الدامعة .

وغيلان الشاعر ، أمير الأرصفة ، كان هناك ايضاً . الرحلة دائمة : بيروت . تونس . عدن . دمشق . كردستان . تسمانيا . والآن ، مدينة سيدني...

ماذا بعدُ ؟

●

شعراء استراليّون

كنت أريد ان أرى : مخلوقات الله ، وما صنعته يداه .

وعندما سُئلتُ ، استغربَ السائل ، وأنا أقول أريد أن أرى الأكواريوم (متحف الكائنات البحرية) ، وحديقة الحيوان في تارونجا ، والكنغر ، والكوالا (المخلوقان يعيشان في استراليا فقط) .

انا ، بالطبع ، أريد أن ألتقي ديفيد معلوف ، الشاعر والروائي ، وقد حاولت...

اريد أن ألتقي شعراء استراليا ، وقد أفلحتُ ، مصادفةً .

كنت أستفسر من أبناء الجالية إن كان في استراليا تجمُّعٌ ، أو جمعيةٌ ، للشعراء ، وكان الردُّ بالنفي ، ربما لجهل من سألتُ ، او لابتعاده عن الحياة الثقافية للأستراليين .

وبالمصادفة ، تحدثت مع صحافية من « الغارديان » ، أسبوعية الحزب الإشتراكي الأسترالي ، فأخبرتني بأن هناك اتحاداً للشعراء الأستراليين ، وأن هذا الاتحاد يقيم في السابعة والنصف من مساء كل أربعاء ، أمسية شعرية في الكاليري كافيه ، ٤٣ شارع بوث ، سيدني .

كان حديثها ، الثلاثاء ؛ وفي الغداة ذهبت مع واصف شنّون وأخيه حيدر ، وعقيل منقوش ، وحسن ناصر حسين (كلهم خريج معسكر رفحا السعودي للآجئين العراقيين) . كانت صحافية الغارديان أوصتني بالسؤال عن ديفيد كالي ، منسق اتحاد الشعراء ومُنشّطه .

كانت الكاليري كافيه مكتظةً بالشاعرات والشعراء . ثمت نبيذ بعشرين سنتاً للكأس ، وعصفورٌ دائم التغريد ، ودافيد كالي الذي رحّب بنا باعتبارنا قادمين من أرض العرب .

كانت الأمسية مفتوحة . الضيوف شعراء من كندا . ألقى الكنديون قصائدهم ، ثم بدأت الأمسية ، حرّةً ، طوعيّة .

سمعنا قصائد متنوعة الأساليب والأداء ، لكن أغلبها كان ذا طابع صوتيّ . الهجاءُ سيّدٌ . والرومانسيّ نادر . والحياة الخشنة تتقدم واضحةً في النص .

احد الشعراء الأستراليين ، وكان مثل پان إله المراعي ، قرأ قصيدتين لي مترجمتين الى اللغة الانجليزية ، هما « منزل كافا في » و « تفصيل » . عرضَ عليّ ديفيد كالي أن أحيي أمسيةً في الكاليري كافيه ، الأربعاء المقبل . أخبرته بأنني مغادرٌ ، اليوم نفسه .

في كل مكان ، للشعر أهله .

●

استثمار ومافيا

في الفندق الصغير ، المطل على خليج كوجي ، بادرني الشاب الذي يتولى أمر «الاستقبال» ، بالسؤال : هل جئت هنا لترود ؟

Are you here to do pioneering?

ابتسمت ، وأنا اردّ عليه بالنفي .

ابتسمت ، لأن كلمة Pioneering كانت شائعة الاستعمال في اميركا البدايات ، أيام القارةُ الشمالية لم تكتشف ثرواتها وأسرارها بعدُ ، والقادمون إليها يحملون على العربات الثقيلة ، أمتعتهم وأحلامهم .

أترى استراليا ، الآن ، في وضع مماثل ؟

ثمانية ملايين كيلومتر مربع لاتضم إلا ثمانية عشر مليونا من البشر... لكن هذه القارة ، ليست في بحبوحة الثروة الطبيعية التي تتمتع بها اميركا الشمالية ، فالصحراء القاسية تكوّن معظم اليابسة ، والمراكز الحضرية معدودة ، محدودة ، إذا قيست بالمساحة ، وأكثر من نصف السكان يعيشون في ولاية نيو ساوث ويلز ، وفي سيدني الكبرى تحديداً .

إن قسوة الظروف تجعل استخراج الثروات واستغلالها عملية باهظة التكاليف ، صعبة الأداء .

يأمل الاستراليون في فترة انتعاش قريبة ، بعد فترة الانكماش التي لم يمض على نهاياتها سوى عامين تقريباً ، وهم ينظرون الى مستثمرين من نوع غير تقليدي ، ويركزون بصورة خاصة على مستثمري جنوبي شرق آسيا .

ويقال إن كبار مستثمري هونغ كونغ بدأوا يقيمون لهم قاعدة بديلة في منطقة بيرث التي تعتبر اكثر مناطق استراليا رخاءً وإمكانات ، وذلك قبل أن تنتقل هونغ كونغ الى السيادة الصينية .

حتى في سيدني ، بدأت البوادر الطبيعية لمجيء المستثمرين الجدد : ارتفاع اسعار العقارات ، فروع مصارف هونغ كونغ ، والمطاعم الصينية .

وبدأ ايضاً ، الحديث عن المافيا ، صينية أو فيتنامية . ترى ، مع أي مافيا ، وضعني موظف « الاستقبال » ؟

●

كشفُ حساب

كانت لي ثلاثة أنشطة ثقافية ، كلها في سيدني .

أولاً ، الأمسية الشعرية .

ثم ، محاضرة في جامعة سيدني عن تطور الشعر العربي .

وثالثاً ، محاضرة عامة عن « راهن الثقافة العربية » .

ليس بمقدوري الحكم في ما يتصل بنجاح هذه الأنشطة أو إخفاقها ، لكني سمعت من يقولون بأن الحضور كان كثيفاً قياساً بأنشطة سابقة ، واستطعت أن اقدِّر انتباه الحاضرين من طبيعة الاستماع الى النصوص الشعرية ، وردود الأفعال التي تصدر عند هذا المقطع أو ذاك . انا اعرف ، تماماً ، ان قصائدي لا تدغدغ الكفّين ، إلا اني اثق ، تماماً بالناس ، وبقدرتهم على الوصول الى العمل الفني ، لو بذلوا جهداً اكثر ، وأنصتوا متأملين .

أعتقد أن الإصرار على تقديم نصوص غير سهلة ، يتضمن احتراماً للناس ووعيهم ومقاربتهم الجماليات .

في جامعة سيدني ، كان للبروفسور احمد الشبول ، الفضلُ في دعوتي وتقديمي الى « اصدقاء الدراسات العربية » بالجامعة .

ألقيت محاضرة مكتوبة باللغة الانجليزية ، وقرأت قصائد مترجمة الى اللغة ذاتها ، كما قرأ البروفسور احمد الشبول قصائد اخرى لي مترجمة الى الانجليزية ايضاً ، ولربما اراد بهذا إنقاذ شعري من طريقة نطقي البائسة بلغة شكسبير!

أمّا المحاضرة العامة عن « راهن الثقافة العربية » ، فقد جرت في قاعة للأفراح والمناسبات تتّسع الى حوالي ثلثمائة مستمع . كانت القاعة ملأى .

حاولتُ في المحاضرة ، ان اتتبع ، بالتفصيل الملموس ، راهن الثقافة العربية ونحن نستقبل القرن الحادي والعشرين .

لا اكتمنَّك أنني كنت متشائماً ، أشعرُ بالقرف مما نحن فيه ، من تخلُّفٍ ، وعسفٍ ، وتضييق خناق .

تحدثت بلغة بسيطة ، بعيداً عن حذلقة المصطلح ، وتغليف الفكرة بألف غلاف .

كنت أريد ان يعرف هؤلاء الأصدقاء ، المنقطعون في استراليا ، شيئاً واضحاً عن حالتنا وحالنا .

●

صحافة المهْجر

للصحافة العربية ، في استراليا ، تاريخٌ يمتدّ عقوداً ، وأظن «التلغراف» أقدمها عمراً واستمراراً .

الشاعر وديع سعادة ، يتولى القسم الثقافي بالصحيفة ، وربما شمل بعنايته أقساماً اخرى .

هذا الشاعر ، احببتُ مايكتب . التقيتُه مرةً في نيقوسيا ، في منزل سليم بركات ، ولم أنسه . أمّا حين وجدنا نفسينا ، بلا توقعٍ ، على الأرض الأسترالية ، فقد كان للقائنا جوّ المهرجان . بيتُه ، الأرخص ، عنوانُ غنىً وصداقة . سهرنا عنده ، وغنّينا ، وقلنا أشعاراً .

في الصباح الباكر ، عند الخامسة تماماً ، يستيقظ وديع سعادة ، كي يصل الى «التلغراف» في الموعد المحدد .

لقد طوّر الصحيفة ، ووسع علاقتها ، وكسب أصدقاء يكتبون فيها . إنه يحاول إدامة علاقة بين عرب استراليا ومنطقتهم ، بطريقة ذكية . وفي سيدني ، «مجلاتُ» عربية .

غيلان لديه «جُسور» .

وحسن ناصر حسين لديه « رواشن » .

وهناك مشاريع في الطريق .

كلُ هذا حسنٌ . كله مبعَث فرح . المهمَ في الأمر ان تكون هذه الدوريّاتُ علامةَ ثقةٍ وتلاحُمٍ .

كلُ حرفٍ عربيّ في استراليا له معناه . فليكن المعنى مقدَّساً .

مسألةٌ اخرى اعتقدُ ان الحديث عنها واردٌ في هذا المجال ، هي ألاّ تكون الصحافة العربية في استراليا ، صحافة غيتو ، وألاّ تنتقل اليها امراضُ البيع والشراء .

ثمت صحيفة عربية في سيدني ، تنصرُ نظاماً عربياً معيناً ، ظالماً أو مظلوماً . قيل لصاحب الصحيفة : والحقيقة ؟

أجاب الرجل : ماذا ؟ ادفعوا اكثر ، اكتبْ معكم!

أعتقدُ ، بعد متابعتي ما يصدر في سيدني ، أن الجالية العربية في استراليا ، لاتزال بحاجة الى صحيفة اكثر تطوراً ، صحيفة تعنى بأن تضع القارئ على مقربة من استراليا والعالم العربي والعالم ، وتهتم بإيصال الحقيقة اليه ، كل صباح .

الأغنياء لايقرأون .

●

الجبال الزرق

توني وهبة ، كان يغني مع مارسيل خليفة ، في فرقة الميادين . إنه الآن في استراليا ، يغني ، لكن وحيداً...

كان معه عبد المجيد حجازي ، ورفقةٌ لبنانيون . قالو إنهم يريدون ان امضي معهم ، في رحلة إلى « الجبال الزرق » .

ننطلق ضحىً . الشتاء الأسترالي رحيم . معتدل . زخات مطر لاتطول ، ثم تطلع الشمس ، بهيةً ، خفيفة ، لتلتمع الأشجار مغسولة بالرذاذ والنور ،

متضوعة بشذاها .

في بلدة لاوسون ، التي اخذت اسمها من هنري لاوسون ، رائد الأدب الأسترالي ، والتي تقع غير بعيدة عن «الجبال الزرق» ، في هذه البلدة توقفنا عند مطعم لبناني يملكه قسطنطين سابا ، وهو مهاجرٌ قديمٌ ظلَّ أميناً على افكاره الراديكالية ، وتقاليد ضيعته ، وابتسامته العريضة . شربنا عنده قهوة سوداء . قال : بعد عودتكم من الجبال الزرق ، سنتغدى هنا . ليس من طريقٍ آخر للعودة . لابد أن تمرّوا بي .

بلغنا الجبال الزرق . إنها زرق حقاً . اغنية للشمس والصخر والنبات . من الهضبة الصغيرة المشرفة على المشهد الجليل ، تنظر الى الجبال الزرق البعيدة ، كأنك تتملّى ضباباً ازرق ثابتاً . وبين الهضبة والجبال ، وفي هاوية سحيقة ، ترى الغابات العذراء التي لم يطأها بشر . انت لاترى إلا قمم الأشجار ، متصلة ببعضها ، متلاحمة ، مثل قبابٍ لا حدَّ لها ، أو تشكيلات موج عجيب . . بحرٌ اخضر توقّف موجه ، فجأة ، عن الحركة ، وظل هكذا منذ قرون وقرون . الناسُ يأتون الى هنا ، ليستمتعوا ، ويَطعموا ، ويزوروا «الأخوات الثلاث» ، وهي ثلاث قمم حادّة ارتفعت من البحر الأخضر ، ومَثُلتْ هكذا ، جرداء ، ناتئة ، شواهدَ ابديةً على لعبةٍ للطبيعة ، خرقاء ، مثيرة .

في المطعم اللبناني ، كان الغداء فاخراً . أُمّ قسطنطين سابا ، التي احتفل الجميع ، البارحة ، ببلوغها التسعين ، جلست معنا ، قرب المائدة الحافلة . وحين لمحتْ توني وهبة ، قالت له : غنِّ لي نتفة!

ايتها الأم اللبنانية...

ايكما الأجمل ؟ انتِ أم الجبال الزرق ؟

●

الكنغر

منذ ولدت فكرة زيارتي استراليا ، صرت افكر بالكنغر . صحيحٌ ان هذا الحيوان العجيب لم يكن بعيداً عن اهتمامي ، بل انه دخل متباهياً في إحدى قصائدي :

« وهذا القط ، هل يقفز ، كالكنغر ، عبر النافذة ؟ » ـ من قصيدة « حمَى » . إلا انني جعلتُ أمنِّي النفس برؤية قطعان الكنغر ، وهي تجوب السهوب ، وتقفز على أسيجة المزارع ، وتؤدي ألعاباً بهلوانية . لكن طبيعة الرحلة ، وانشغال الناس بأعمالهم ، جعلاني ارضى بالقليل المتاح : أن أرى الكنغر في حديقة الحيوان ، مثلاً .

ولهذا عندما ذهبت الى حديقة حيوان تارونغا ، وهي من أكبر حدائق الحيوان في العالم ، ورأيت مارأيت... سوى الكنغر ، أحسست بالخيبة . رأيت في الحديقة ، كلاب البحر وهي تلعب ، وأفاعي البوا والبيثون ، وأخرى سوداء طولها طول مسطرة تلميذ ، لكن بلدغتها من السم مايكفي لقتل مائتي ألف فأر... الخ...

غير أن الكنغر كان غائباً .

أنستُ بحيوان « الكوالا » النعسان ، السكران ، من قضم اوراق الكاليبتوس الطرية ، التي تتخمر في معدته ، فيظل « الكوالا » نائماً او كالنائم . وهو أيضاً الرمز الوطني للبلاد .

أمّا الكنغر ، فكان لايزال يراوغني .

لم أعد أتحدث عنه .

وفي أحد الأيام ، قيل لي إن ثمت قرية ، بل بلدةً ، للفيتناميين المهاجرين ، وان في هذه البلدة حديقة يابانية .

قلت : حسناً... الحديقة اليابانية لم ارها إلا في الصور .

أغرب ماحدث ، أنني رأيت الكنغر في هذه الحديقة .

هل اقول : خاب أملي ؟

كان الكنغر الذي رأيته ، بطيء الحركة ، شبه ساكن ، حجمه بحجم ارنب كبير .

سألتُ : أهذا هو الكنغر ؟

اجابني صاحبي : نعم . لكنه من النوع صغير الحجم .

سألته ثانيةً : والنوع ذو الحجم الكبير ، اين اراه ؟

لم يجب صاحبي .

لكني متأكدٌ من أنني سوف ارى الكنغر الكبير ، لكن في احلامي الهائمة .

●

السيندروم اللبناني!

حين جاء حزب العمال الى الحكم ، حقّق ، بطريقة بسيطة ، انتقالةً حقيقية في المجتمع الأسترالي .

وضع أمامه البرنامج الراديكالي للحزب الإشتراكي (الشيوعي) ونفّذ البنود الإجتماعية الواردة فيه ، وبخاصة في ما يتعلق بالضمان الإجتماعي ، والرعاية الصحية . حتى غدت استراليا جنّةً إذا قارنّا هذه البنود الإجتماعية المتحققة بمثيلاتها في البلدان الاخرى ذات الشهرة في هذا الميدان مثل السويد وهولندا .

إعانة البطالة ، مثلاً ، تساوي او تكاد تفوق ، أجرا لعمل . والرعاية الصحية لا مثيل لها ، وقد تدرّ على المريض ما يمكّنه من شراء نصف منزل ، في حالات خاصة : أمراض الظهر الناتجة عن العمل وحوادثه .

وبما أن الشطّار في الجالية العربية ، كثار... عمد بعضهم الى إساءة استعمال هذه الرعاية .

فجأة ، يضع الرجل يده على ظهره ، ويصيح متأوهاً : آه... ظَهري! يأتي الطبيب ، وتنفتح ابواب المستشفى ، وتبرق الأشعة ، والرجل لايزال يصيح :

آه... ظهري!

وبما أن اوجاع الظهر صعبة التشخيص ، وان من الصعب أن يقول الطبيب للمتوجع : انت لا تتوجع ، يحصل الرجل على مكافأة حوادث العمل ، او الاجازة الطويلة .

هكذا دخل في القاموس الاسترالي مصطلح جديد : السيندروم اللبناني! مسرةً ، زلقَ أحد الوزراء ، وهو يهبط سلماً ، على ما أظن ، وأُدخل المستشفى ، فخرجت صحف الصباح وهي تحمل العنوان الآتي :

« الوزير... اصيب بالظَّهر اللبناني! » .

أمورٌ مثل هذه ، جعلت حزب الأحرار المحافظ ، يمسك بورقة يلوِّحُ بها ، وقد عقد عزمه على تقليص الخدمات التي يقدمها برنامج الضمان الإجتماعي والرعاية الصحية ، وجعل دوائر الضمان والرعاية تضع شروطاً وقيوداً وتدقيقات اكثر مما كانت تفعل في الماضي .

السيندروم اللبناني ، ليس وحده ، السبب في مايجري .

ربما رأى حزب العمال أن ما تعهّدَ به ، وتعهَّدَه ، شرع يثقل كاهله!

●

الجمهورية الأسترالية

إن كانت اللغة ، والأرض ، والمصلحة المشتركة ، هي التي شكّلت مفهوم « الوطن الأسترالي » يوماً ما ، فإن الأشياء لم تعد هي هي .

كان في سكان استراليا (أعني القادمين إليها) نوعٌ من التجانس : العِرق الأنجلو- سكسوني ، اللغة الانجليزية ، الأرض الجديدة المنتزعة من أهل البلد الأصليين ، والثروات التي يمكن جَنيُها من الأرض المنتزعة .

هكذا خاض الأستراليون معاركهم المختلفة منطلقين من هذا المفهوم . كان « الآخر » لديهم هو غير الأنجلو - سكسوني . أمّا هم فإنهم « البُناة » ، حين ترنّ الكلمة ذاك الرنين الآتي من « بُناة الإمبراطورية » .

وإلا ، فما السبب الذي جعل الجنود الاستراليين يُقتلون بعشرات الآلاف على شواطئ الدردنيل البعيدة ؟

الأشياء ، لم تعد هي هي .

انت الآن تتمشى في شوارع سيدني ، المركز والضواحي ، فتسمع لغاتٍ شتى ، وترى ملامح من شعوبٍ مختلفة ، وتجد الكنائس والمساجد والمعابد . العادات تتبدل ، في المأكل والملبس ، والثقافة غدت ثقافات .

من هنا ، سوف تخرج عناصر ، من مفهوم الوطن ، وتدخل عناصر . يقول اللبناني : انا استراليّ .

ويقول الفيتنامي : انا استراليّ .

ويقول الهندي : انا استراليّ .

كذلك يقول الأنجلو ـ سكسونيّ .

الخدمة العسكرية الإلزامية ألغيت ، هذه الخدمة الملازمة لمفهوم « الوطن » القديم .

ويوضع ، هذه الأيام ، الجدول الزمني للجمهورية الاسترالية . سوف تتبدل الراية أيضاً ، ومعها الأولويات .

أعتقد أن الجمهورية الأسترالية ، ستكون كومونويلث استراليا ، صيغةً قريبة من صيغة الولايات المتحدة الاميركية .

لكنها لن تكون روما جديدة في جنوبيّ الأرض .

استراليا ، الآن ، تخطو خطواتها النهائية ، باتجاه مجتمع ديمقراطي ، متعدد القوميات والثقافات ، مجتمع إنسانيّ .

لكن سيمر وقت طويل ، قبل أن تتشكل لهذا المجتمع المأمول ، عاداته وأعرافه .

●

السؤال

في مائتي سنة ، حسب ، تحولت استراليا من ساحة غزاة يبيدون شعباً ، وينتزعون ارضاً ، إلى حديقة متعددة الألوان ، حيث الفردُ سيِّدٌ ، والوطن اختيار ، والثقافة ثقافات .

لقد طالما بحث الاستراليون عن أصول ومرجعيات ، وإذا بهم يجدون هذه الأصول والمرجعيات ، لا في الماضي ، وإنما في الآتي الذي يجهدون من أجله ، ويخططون في سبيله .

في المطار ، فتش موظف الجمارك حقيبتي ، فلم يجد إلا كتباً وأسمالاً . تناول أحد الكتب ، وكان مجموعة شعرية لي مترجمة الى اللغة الانجليزية .

سألني : اهو كتابك ؟ انت شاعرٌ ، إذاً ؟

وأضاف وهو يقلِّب الكتاب : في الطبعة الثانية تأكَّدْ من الهفوات المطبعية ، لقد وجدتُ واحدةً...

هذا في مطار سيدني .

لا أريد ان اخبركم بأي نكدٍ سأواجَهُ ، وانا أعبر حدوداً بمنطقتي ، وكتابٌ في يدي .

أفكر بهذه الأرض العربية ، حيث للحضارات عمرٌ بعشرات القرون ، افكر بهذه الأرض حيث ولدت الكتابة ، والصورة ، والمنحوتة ، والموسيقى...

أرض الآلهة ، وارض الإله الواحد الأحد .

لمَ كان عليها أن تشهد لعنة هذا المصير ؟

لمَ كان عليها أن تشهد خروجها النهائي من التاريخ ؟

والإنسان المفعم بجمال الروح ، والتطلع الى الحرية والخير... كيف ارتدَّ خاسئاً ، وهو حسير ؟

لابدّ من المقارنة .

حتى ونحن في «الجبال الزرق» ، مأخوذين بسحرها ، كنّا نقارن :

هل ستكون لنا ، يوماً ، فسحةُ إطلالةٍ على البهاء ؟
هل سنكون احراراً ؟
أم ترى أن السؤال ذاته لم يعد وارداً ؟

عمّان ١٩٩٥/٦/٢٩

●

أثينا بعيدة

منذ أشهر ، كان الحديث ، بالهاتف والورق ، عن لقاء في أرض الإغريق ، لمناسبة صدور مختارات من الشعر العربي باللغة الإغريقية ، أعدَّها ، وترجمها كوستيس موسكوف ، ممثل اثينا الثقافي بالقاهرة ، المهتم بالعلائق العربية ـ الإغريقية ، في الثقافة وسواها .

إن مدخله الى العلائق العربية ـ الإغريقية ، مدخل صدقٍ ، إذ بدأ هذا الأمر بإحياء ظاهرة كفافي ، الشاعر الإغريقي الإسكندري ، المولود في الإسكندرية ، والمتوفى بها في أوائل الثلث الثاني من قرننا هذا ، العشرين . أقول بدأ هذا الأمر ، ليتطور إلى صلات أوسع بالعالم العربي ، ثقافية وسياسية ، وأعتقدُ ان مايقوم به الرجل يستحق الانتباه ، والتقدير .

في التاسع والعشرين من اكتوبر ، غادرت عمّان ومؤتمرها الاقتصادي ، لأصل إلى اثينا . لقد اخبرتني الوكالة الأثينية المكلفة شؤونَ اللقاء ، بأنها ستكلف شخصاً مهمةَ استقبالي في المطار .

كان يوم أحد . فلم يأت احد!

المشكلة أنني ـ ربما للمرة الأولى ـ أعتمدتُ ، اعتماداً كاملاً ، ما تلقيتُه من معلومات حول تفاصيل استقبالي وإقامتي ، فلم احتطْ لما قد يصادفني . لم يكن معي إلا مائة دولار ، ابتعت بعشرين منها دخاناً وشراباً سائغاً في مطار عمّان ، وتبقى لديّ ثمانون دولاراً ، عداً لا نقداً .

لم يكن في استقبالي احد . كانت وكالات السفر تعرض أسماء من تستقبلهم في لوحات صغيرة يلوّح بها شبّانٌ وشابّات . أظل احدّق في اللوحات بحثاً عن إسمي . لاشيء .

أخذ الرعب يدبّ في عروقي .

ماذا تراني فاعلاً ؟

انا اعرف اثينا . كنت زرتها من قبل . أعرف ان الدولارات الثمانين في جيبي قد لاتوصلني الى عنوانٍ في اعماق المدينة . «الفاكس» بين يديّ ، وعليه رقم هاتف الوكالة . قالت لي موظفة الاستعلامات (وهي سيدة جميلة) إنها لاتستطيع الاتصال هاتفياً بالوكالة ، فالأمر ليس من اختصاصها ، وعليّ ان اتدبر أمري .

اشتريت بطاقة مكالمات بألف وثلثمائة دراخمة . اتصلت بالرقم . لا من مجيب . ظننتني لا أعرف طبيعة الرنين ، فرجوت سيدةً ان تتصل بالرقم نفسه . قالت لي بعد محاولتها : «لا احد يجيب» . ثم أضافت : «اعتقدُ ان المكتب مغلق ، فاليوم احد» .

على أي حال . أمضيت ساعتين في المطار ، مريرتين ، مزعجتين ، حتى لقد عدت الى موظفة الاستعلامات ، أستفسرُ عن امكان العودة في المساء نفسه الى عمّان . قالت ، بهدوء مخيف : «لاطائرة اليوم . ولا غداً . بعد غدٍ فقط...» .

ثم ألقت عليّ نظرة مؤولة : «انت تضيع وقتك هنا ، في المطار . يجب أن تبحث عن حلّ» . كيف ؟ أجابت : «إذهب الى احدى وكالات الفنادق هنا . بت ليلتك ، وابحث في الصباح عن مقر الوكالة الموعود بها» .

إذاً ، وقعت الواقعة!

اتجهتُ الى وكالة . كانت الفتاة مشغولة بشابٍّ من زيمبابوي ، تدبّر له فندقاً . تابعتُ حديثهما . هو يريد أن يقيم شهراً . كان شديد الوثوق بنفسه . اخرج دفتر شيكات . وحرَّر المبلغ المقرر لشهر ، وظل يعابث الفتاة ، ويضاحكها ، حتى ازف موعد سيارة الأجرة .

تقدمتُ إليها . كنت مرتبكاً .

اريتها عنوان الوكالة ، ورقم هاتفها . اتصلتْ . لا جواب . قالت إن اليوم أحد .

كانت الفتاة شابةً ، ذات عينين صغيرتين ، وترتدي سواداً إغريقياً مبكراً على من هنّ في مثل سنِّها .

قلت لها : « كيف بإمكانك مساعدتي ؟ لديّ ثمانون دولاراً فقط » .

شهقت من هول المفاجأة . ثم تمالكت نفسها .

نقَّبتْ في لائحة الفنادق . رفعت رأسها اخيراً . ثمت فندق لايبعد كثيراً عن عنوان وكالتك . المبيت فيه معقول السعر : ثمانية وعشرون دولاراً . اتريد مبيتا مع الفطور ؟

قلت مبيتاً فقط .

أخرجتْ خارطةً ، ارتني عليها موقع الفندق ، وموقع وكالتي .

قالت أيضاً إن بإمكاني استعمال الحافلة رقم 090 أو 091 ، لأكون عند الفندق ، على مبعدة دقيقتين من السير ، بالضبط .

تذكرة الحافلة : مائتا دراخمة!

حملت حقيبتي اليدوية الوحيدة ، وخرجت من مبنى المطار الى الشارع . كان المساء معتدلاً .

جاءت الحافلة . أخبرتُ السائق بالعنوان .

في شارع متروبوليس ، الذي يلي الساحة حيث انزلني سائق الحافلة ، لمحتُ اسم الفندق : امازون . في جيبي دراخمات قليلة . قبيل الفندق رأيت بائع كستناء . لفَّ لي بورقة صغيرة عدداً من حبّات الكستناء المشوية . قلت في نفسي إنني ضمنت عشائي العجيب ، حبّات كستناء وشراباً . لديّ الآن خمسون دولاراً فقط .

أستفيقُ صباحاً ، حوالي السابعة والنصف ، جائعاً إلا أني غير متعب . لقد نمت عشر ساعات تقريباً . أهبط من الطابق الرابع ، بعد أن كنتُ هيّأتُ حقيبتي الصغيرة . موظفُ الفندق للفترة الليلية يسألني إن كنت أريد الإحتفاظ بالغرفة . اقول له سوف أمرُّ على الوكالة لأخبره فيما بعد .

٣٣ شارع نيكيس . المكان غير بعيد . أصلُ الى العنوان . تطلُّ عليّ

امرأةٌ يونانية عجوز ترتدي السواد الإغريقي . ثمت واجهة يبدو انها مدخل البناية ، وعليها بالخط العريض اسمُ الوكالة ITCO . المرأة تتكلم اليونانية فقط . أستعيدُ ذكريات اللغة من أيامي القبرصية . تقول السيدة إن الساعة الآن هي الثامنة ، والناس نائمون ، وإن عليّ العودة في التاسعة والنصف . اللعنة!

ادخل مقهى . أشرب قهوة بالحليب (الحليب للتغذية) ، وأشربُها واقفاً (الوقوف للتوفير) . السعر : 300 دراخمة فقط .

اعود الى الفندق . أهبط من الغرفة مع حقيبتي الجاهزة . أجلسُ لأقرأ . الوقت لا يمضي . إذاً ، لأكتبْ قليلاً . لأدوِّنْ هذه الملحوظات الأولى ، وانتظر التاسعة والنصف .

انا احب المدن وهي تستيقظ في ساعات الصباح الأولى ، أرهفُ السمع للسيارات المبكرة ، ثم اتجول لأرى المقاهي تفتح ، وبخار القهوة يتصاعد ، والناس يمضون الى أشغالهم ، والفواكه والخضر الطازجة تتألق في صناديقها الجديدة .

اثينا ليست مدينة مغلقة .

أثينا تقترب

في التاسعة والنصف ، كنت عند باب الوكالة . المرأة العجوز قالت لي : الطابق الثالث . اعتذروا قليلاً . ظنوا أن رسالتهم كانت تتضمن اسم الفندق . سألوني اين أمضيتُ ليلتي... الخ . ثم قالوا إن عليّ الإسراع كي أصل الى فندق «اسبيريا» حيث القوم هناك يستعدون للإنطلاق في الساعة العاشرة ، ليشاهدوا معالم اثينا التاريخية . وصلتُ الفندق في الموعد تماماً . كان كوستيس موسكوف أول من التقيت ، ثم الحشد كله : حجازي . محمد عفيفي مطر . كمال ابو ديب . رفعت سلام . فاروق شوشة . ابو سنة ، وسواهم .

أقمنا أمسية في المركز الثقافي لشمالي اثينا . كان الواحد منا يقرأ ثلاث دقائق من نصه العربي ، ثم تقرأ الترجمة الإغريقية للنص . أعتقدُ ان اليونانيين متشوّقون الى معرفة ما نفعل ، والى ان تكون بين ثقافتينا علائقُ افضل ، لكني ارى في الوقت نفسه أنهم ـ باعتبارهم اوربيين ـ لايزالون اسرى الصورة التي ارادت مركزية اوروبا ان نبدو فيها .

تحدّث اثنان عن شعورهما بالانتماء الى الشرق ، كأنهما يدغدغان فينا وتراً نحبّ سماع رنينه .

قلت لأحدهما : اي شرقٍ هذا الذي تتحدث عنه ؟ اهو شرقٌ في الجغرافيا ، ام انه شرقٌ في الاستشراق ؟ إننا ـ اهل الشرق ـ نرفض ان نظل في هذه الشروط القائمة لشرقنا . نحن نريد الإنعتاق من ربقة التخلف : المرض ، والجوع ، والجهل . نريد اللحاق بالتطور المتسارع للعصر .

وردت أيضاً إشارةٌ الى التصوف أبداها الشاعر يانيس ايفانتيس ، وهو شابٌ ملتحٍ ، أهداني فيما بعد مجموعة من قصائده مترجمة الى الانجليزية .

قلت له إن التصوف لم يكن لدينا السبيل الأفضل الى المعرفة أو الشعر . وأنا أعتقد أن أسوأ الشعر العربي هو ماكتبه المتصوفة (هناك استثناءات على الدوام) .

بعد أن قرأت مجموعة قصائده لم أجد فيها ما أعهدُه في تصوُّفنا . ولربما شاركني آخرون هذا الرأي بعد أن يطّلعوا على هذه القصيدة مثلاً :

هذا يعني

قصيدة للشاعر اليوناني

يانيس ايفانتيس

الآن ، افتحُ الأبوابَ التي هي ابوابي فقط
وكلٌ يفتح ابوابه فقط
الآن ، كلٌ يرى اشياءه هو فقط .
ولو حدث أن وجدنا انفسنا إزاء الأشياء نفسها
فسيراها كلٌ منّا
بألوان وأشكال مختلفة .
ولو حدث أننا نراها
بالألوان نفسها ، والأشكال نفسها
ليس في المكان نفسه
وليس من المكان نفسه
وليس في الزمان نفسه .
ولو اننا ، نرى ، بالضبط ، الأشياء نفسها
في المكان نفسه
ومن المكان نفسه
باللون نفسه
والشكل نفسه
وفي الزمان نفسه

فان هذا يعني
يعني أننا قد فتحنا الباب الأخير

●

في مدينة سالونيكا ، نزلنا في فندق على تلعة تنظر الى البحر . لوحة الفندق تحمل كلمة «فيليبون» ، على اسم الملك المقدوني فيليب ، والد الإسكندر المقدوني .

يفخر متحف سالونيكا ، بأنه يضمّ رفات فيليب . رأينا العظام الرميم مرتبةً في هيأة هيكل عظمي . كان الهيكل صغيراً نحيفاً . فهمت ان المقدونيين كانوا يحرقون موتاهم ، ويحتفظون بالبقايا التي لم تحترق في صناديق صغيرة .

شاهدنا صندوق الذهب الذي حفظ عظام فيليب . شاهدنا السيف والخوذة ، والتماثيل الصغيرة للأب وابنه . وكيف تأكدتم ان هذه البقايا هي عظام الملك نفسه ؟ عرفنا ذلك من حفرة العين ، فالعين اليسرى لفيليب اخترقها سهمٌ في إحدى معاركه .

في بلدة بيللا ، ولد الاسكندر المقدوني .

ومن بيللا ذهب الى مدرسة منعزلة على شاطئ البحر ، ليتتلمذ على ارسطو ، وليعيش التربية الشاقة لأميرٍ سيكون له دوره العظيم في العالم .

في بيللا ، متحفٌ صغيرٌ ، يجاور منطقة الحفريات .

هناك رأيت تمثال الاسكندر الفتى ، صورة وجهه فقط ، مثلومة قليلاً بفعل الدهر ، إلا أنها متألقة بفتوّة هذا الفاتح الفيلسوف الذي اراد أن يكون العالم اجمل .

لا ادري لماذا اقترن تمثال الاسكندر لديّ ، بوجه ارتور رامبو في تلك الصورة الشهيرة التي تضم شعراء فرنسيين في مقهى ، بينهم بول فرلين . رأيت الملامح نفسها : الشَّعر المتمرد ، والعينين اللماّحتين الحالمتين ، وتذكرتُ

هنري ميللر الذي تمنى لو اتيحت لرامبو فرصة أن يحكم .

●

في الليل ، بعد ان اغلقتُ عليّ باب غرفتي ، في فندق فيليب المقدوني ، أخذت أفكر بفداحة ما حلَّ بالأب وابنه ، او بعبرة ماحلَّ بهما :

الاسكندر ، ليس له قبر .

وفيليب ، لم يُعثر على قبره إلا قبل خمسة عشر عاماً .

●

قلت لكوستيس موسكوف ، إنني اريد العودة الى منطقة سالونيكا ، والى بلدة بيللا الصغيرة بالذات ، لأكون قريباً من الإسكندر الفتى ، قريباً من تلك الجبال والأنهار التي كانت حدوداً للمعارك ، والافتتاحات ايضا ، ان اكون قريباً من تلك اللُّقى والتماثيل ولوحات الموزاييك حيث تبدَّى أمام عينيَّ ، القنطورُ الخرافيّ ، كما لم يتبدَّ يوماً حتى في الخيال البعيد .

●

البحر في سالونيكا غنيٌّ بثماره .

والجبل في سالونيكا غنيٌّ بأعنابه .

وهذه العاصمة المقدونية تحمل اسم شقيقة الإسكندر .

وأثينا تقترب ، مع شمسها ذات الستة عشر شعاعاً ، شمسها التي ادَّرَعها فيليب وابنه .

دهشة المكان

إن لم يعد في الزمان ما يدهش ، فالمكان ثمّت .

وفي الحياة ، كما في الشعر ، يظل المكان ينأى بالمرء عن الرتابة ، وتكرارِ المشهد والإهتمام .

والمكان في هذه الحال ليس مجرداً . إنه حمّالُ اوجُهٍ وأزمنةٍ ومَعانٍ . يُعيد المجرَّدَ إلى ملموسيته المفتقدة ، ويمنح المرءَ امتيازَ التقرّي والتملّي والتأمل ، في آن .

انت تدخل ، في الفجر ، مدينةً لم تكن رأيتها من قبلُ . كلُ شيء ينهض أمامك وقد اكتسبَ ملمحاً جديداً ، في عينيك انت ، تأكيداً . الشجرُ مختلفٌ ، كذلك الأبواب ، والمقاهي إذ تُفتح ، والطيور المبكرة ، والبشر وهم يخطون خطواتهم الأولى في اليوم الذي ينتظرهم .

وأنت في حالة غريبة . مشاركٌ ومراقبٌ . مستقبلٌ ومتسائلٌ . دانٍ وقاصٍ ، في تواترٍ يجعل نبضَك يتسارع ، وأنفاسك تتلاحقُ ، ويمنح عينيك سعةً لم تكن فيهما قبل أن تنفتحا على المشهد الجديد .

●

سلطنة عُمان أراها للمرة الأولى في شهر نوفمبر ١٩٩٥ .

لكن أي ارض عربية ، ليست بالجديدة تماماً ، على زائرها . إنها ارضٌ كامنةٌ في التكوين ، وفي المخزون الثقافي للزائر ، غائرةٌ في الزمن ، تسيل ينابيعها منذ ما قبل الإسلام ، حتى يومنا هذا .

إن أعلاماً مثل الأزد ، ونزوى ، وصحار ، والحجاج بن يوسف ، وعمرو بن العاص ، وسمايل تظل تسكن الذاكرة ، وتستفيق بكل حيويتها مع

الإستعادة ، وليس عليك إلا أن تضغط الزرَّ ، في الوقت الذي يُلحُّ ، كي تتقافز الأحداث والأماكن ، في عينيك ، وبين يديك ، آنذاك يكون للمشهد سحره ، وللتفاصيل معناها . ليست ارضاً هذه التي تسير عليها ، إنها مغانٍ ومعانٍ . فلتخفف الوطء . لتخفِّفِ الوطء!

●

هبطت الطائرة ليلاً في مطار «السيب» ـ اسمٌ بحريٌّ ايضاً . كان في استقبالي ثلاثةٌ ، أحدهم عرفتُه في مرّاكش ، هو الشاعر محمد الحارثي ، من أسرة عريقة كان لها دورها في تاريخ البلد الحديث ، أما الآخران فهما علي المعمري ومحمد اليحيائي ، من النادي الثقافي الذي وجَّه اليّ الدعوة .

إذاً ، انا ادخل مسقط ، من بوّابة الريح ، لا من باب البحر .

وأستعيدُ : «إن أهم ما يلحظه الداخلون الى مسقط هو القلعتان البارزتان اللتان تحرسان البلدة . الأولى هي القلعة الشرقية وقد شيدها البرتغاليون عام ١٥٨٩ وأسموها سان جوا ، أو سانت جون ، ويسميها العرب الآن قلعة الجلالي ، وتتألف من برجين عاليين يربط بينهما سور . ولايمكن الوصول اليهما نظراً لأنهما اقيمتا على صخرتين منعزلتين ، ويتم الوصول اليهما عن طريق سلّم صخري . وقد سمّى البرتغاليون القلعة الشرقية قلعة كابيتان ، وتعرف بين عرب البلاد بقلعة الميراني ، وقد اطلق هذا الإسم تيمناً باسم قائد البلوش ، وبنيت في سنة ١٥٨٨ كما تدلّ الكتابة على المدخل» .

«س .ب . مايلز ـ الخليج : بلدانه وقبائله»

الليلة ، سأنام عميقاً في هذه الأرض الأثيرة ، الوثيرة بتاريخها .

●

أستيقظ باكراً . أزيح الستارة فتنفتح الشرفة أمامي . الشمس مرتفعة منذ الآن . في البعيد يلتمع البحر ، وفي الداني يتألق النبت والزهر ، والبياضُ

الشامل يكسو البيوت والمباني .
ثمت ما يُذكِّرُ ببلداتٍ اندلسيةٍ : البياض والشرفات .
وهناك ما يذكِّرُ بالهند : الأشجار والأزهار .

●

في كل مدينة ادخلها ، أحرصُ على تكوين الانطباع الأول الذي يلي دهشة الصلة الأولى .

والانطباع هذا الذي احرصُ عليه ، آت من الأسواق الشعبية ، في المقام الأول ، ومن أماكن التجمُّع العامة .

ومسقط ليست استثناءً ، فأنا لن اجدها في غرفات الانتركونتيننتال ومطاعمه ومصاعده ، ولاحتى في مذاق قهوته .

●

في سوق السمك ، وهو عند المرفأ ، وجدت كائنات البحر ، كأنها بلا عدد ، في انواعها ، وفرحت حين رأيت الناس مزدحمين ، يفضلون السمك غذاءً يومياً على اللحم ، وإن كان «بلدياً» . وأغرب ما رأيت سمك القرش الصغير الذي يؤكل بشهية ، و«يُعرض لحم هذا السمك في اسواق المدن الساحلية ، طازجاً ومملَّحاً ومجففاً ، كما يتم تقطيعه الى شرائح ويرسل الى داخلية عُمان ، وهو يشكل العنصر الغذائي الرئيسي للسكان الآن ، والموسرون من الناس لايتناولونه إطلاقاً» ـ س .ب .مايلز ـ ، وقد دُهشت حين رأيت الجمبري العملاق يباع باثني عشر دولاراً للكيلوغرام الواحد . أما السلطعون (السرطان) فهو رخيص الثمن إلى حد لايصدّق . إن سوق السمك ، بتنوع أسماكه ، ونظافته ، مكان جديرٌ بالزيارة .

●

ليس بعيداً عن سوق السمك ، يقع السوق الشعبي المسقوف : سوق الظلام ، كما يسميه الناس ، وربما جاءت التسمية من سقيفته التي تقيه الشمس ، وتمنحه قدراً من العتمة الخفيفة . في هذا السوق تجد كل شيء ، من البهار حتى الذهب ، من الملبس حتى الحلوى الشهيرة ، حلوى مسقط ، تلك التي كان يأتي بها البحّارة الى البصرة ، في الأيام السوالف . الغريب أن منطقة المرفأ تخلو من المقاهي والمشارب ، وليس في « سوق الظلام » سوى دكّة واحدة وبضعة كراسي تشكل مقهىً طائراً . وقد قيل لي إن هذه المنطقة كانت تعجّ بالمقاهي ، ومشارب البحّارة الآتين من كل مكان .

وأنا ارى أن يعاد النظر في الأمر ، إذ ليس من المعقول أن يخلو المرفأ التاريخي من المقاهي . لكن مسقط ، على أي حال ، تخلو ، شأنها شأن المرفأ ، من المقاهي . ربما كانت للأمر أسبابه يوماً ما ، إلا أن المقاهي في الموانئ ظاهرة جميلة لايستغنى عنها .

●

المحُ القلعتين تشرفان من تلعتيهما على البحر . السفن قليلة في الميناء . ومن الأسطول الخيالي للسفن الخشب الشراعية ، لا ارى إلا سفينة واحدة... اين ذهبت الأيام الخوالي ، حين كانت هذه السفن تبلغ الهند ومومباسا وزنجبار وسواحل شرقي إفريقية ؟

والبحّارةُ الأوائل اين ذكراهم ؟

في برشلونة ، رأيت الصاري العملاق ، ذكرى كريستوفر كولمبس الذي أبحر من هناك الى العالم الجديد...

وفي مسقط ، وفي صحار ايضاً ، افتقدتُ ابن ماجد .

باريس التي أحبُّ

المدن العميقة ، لاتقام معها العلاقة ، في مصادفة او سرعة .

قديتوهم المرء علاقة ما ، وقد يراها غير عابرة ، بل ربما اعتبرها تحت الجِلد ، جلدِه ، وبخاصة حين يتعلق الأمر بأشخاص ، بحبٍّ ، او صداقة ، او عمل .

إن لتلك المدن تاريخين : التاريخ العام ، بما فيه من سياسة وثقافة تقتضيان معرفة ، أو اطلاعاً في الأقل ، والتاريخ الخاص الذي ينشأ من عمقِ تعامُلِ المرء مع المدينة . إذّاك يتصل التاريخان ، ويتواشجان ، ويتجسّدان في علاقة مشخَّصة .

●

باريس ، التي ارتادها بين حين وآخر ، وقد أقيمُ فيها أياماً ، أو سنوات ، هي من بين المدن العميقة التي حاولتُ علاقةً معها . لا استطيع القول إني نجحتُ في هذه المحاولة ، لكني لا أتردد في القول بأن المحاولة مستمرة ، منذ النظرة الأولى وحتى اليوم .

وللموضع مكانته في هذا السياق . ليس بإمكاني الحديث عن باريس مجرّدة . بإمكاني الحديث عن مواضع تعلّقتُ بها ، أو عَلِقت بي لأسباب مختلفة ، بإمكاني الحديث عن أناسٍ ، أي عن اشخاص ، عن ساحات ومقاهٍ ، عن أشجارٍ ، وأيامٍ آحادٍ في الضواحي . إنها مادّة الحياة ، وماؤها ، وبالتالي فإنها ما يظهر على سطح القصيدة ، وما يغور في أعماقها ويفور .

●

تفصيل

الغُرَيفةُ ، ملأى مساميرَ
غادرها الساكنون
وما خلّفوا ليَ إلا المساميرَ
دقّوا مساميرهم في الخشبْ
أولجوها بقلب الحديد
وشقّوا السمنتَ بها حائطاً من حطبْ
ثم لم يتركوا أثراً غير هذي المساميرِ
من أين جاؤوا بها ؟
ما الذي فعلوه بها ؟
عند رأسي مساميرُ
ملء فراشي مساميرُ
في الحوض ، حيث امرّغُ بالماء وجهي ، مساميرُ
حتى الهواءُ مساميرُ...
لاتعجبوا إذ اقول لكم إنني قد مددتُ يدي في جيوبيَ
أبحثُ عن درهمٍ
فوجدتُ المساميرَ
أمشطُ شَعري فتسقطُ عنه المساميرُ
حتى الفتاةُ التي كنتُ احببتُها أبعدتْها المساميرُ...

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

إني امرؤٌ مثلكم :
أستريحُ الى غرفةٍ
وفتاةٍ

وأغنيةٍ
فلماذا تكون المساميرُ لي ؟

باريس ٢٢/ ١١/ ١٩٩٠

●

قد تبدو قصيدتي هذه ، مستأنسةً بمبالغةٍ ما ، او بفكاهةٍ سوداء . وربما ظنني القاريُ ميّالاً إلى اطروحة الصلة بين الشعر والكذب ، باعتبار هذه الصلة تحققُ افضل الشعر .

لكنّ بمقدوري القول إن المادة الأساس للقصيدة ، هي واقعٌ محضٌ .

عام كتابه القصيدة (١٩٩٠) ، كنت في باريس ، مفلساً تقريباً ، متشرداً فعلاً ، حتى لطالما أُغلقتْ في وجهي ابواب ، وأُغلقت امام وجهي وجوهٌ . لم اكن أعرف اين سأبيت الليل . والفنادقُ ، حتى رخيصُها غالٍ .

في احد الأيام كنت مع صديق لي نزور سيدةً فرنسية متخصصة بشؤون جزيرتنا العربية ، وقبائلها ، وهجرة تلك القبائل .

أظن هذا الصديق كان حدَّثها عني ، وعن محنتي .

فعندما كنا نودعها ، بعد انتهاء الزيارة ، اخرجت مفتاحين من دُرجٍ عند الباب ، وقدّمتهما إليّ ، مبيّنةً أن احدهما لبوّابة المبنى ، وثانيهما لباب الشقّة . ابتسمتْ وهي تتلقى تشكّراتي الغَدِقة ، وانا اقلّبُ المفتاحين : مفتاحي جنتي الموعودة ، مستقَرّي بعد طول اضطراب ، ومثابتي بعد طول اغتراب ، والحلم الذي ليس بعده من حلم .

●

المكان : جزيرة سانت لويس . بوليفار هنري الرابع!

أيّ شآبيب رحمةٌ هبطتْ عليّ الليلة! أهذا الأمرُ ممكنٌ ؟ أن اسكن في جزيرة سانت لويس التي عجز فرانسوا ميتران نفسه عن الحصول على منزل

فيها ، فأقام في موضع يواجهها... وفي بوليفار هنري الرابع الشهير ، الممتد من معهد العالم العربي حتى الباستيل ؟

●

بتُّ ليلتي ، في منزل الصديق ، وهو شقّةٌ غير بعيدة عن ساحة «الجمهورية» العريقة ، حيث يقيم الباريسيون احتفالاتهم الشعبية ، وتظاهراتهم الضخمة...

كانت ليلتي تلك ، عروساً عليها قلائد من جُمان ، عروساً ليست من الزنج... ليلة احلام واجنحة وزهور ، ليلة استباق لشقتي في جزيرة سانت لويس .

انطلقتُ ، في الصباح ، ماشياً إليها ، ومفتاحا الذهب في جيبي ، ويدي في الجيب تتحسسهما وتحرسهما .

بلغت المكان : ٣ بوليفار هنري الرابع ، في رأس جسر مريم مباشرة!

فتحت البوابة الضخمة ودخلت . شرعت ابحث عن السلّم الذي حدّثتني عنه السيدة . وجدته . لم يكن ثمت مصعدٌ . قلت لا بأس . بدأت ارتقي درجات السلّم . ماهذا ؟ صعّدتُ نظري لأبصر سلالم بلا انتهاء . كدت اعود ادراجي ، ظانّاً المكان غير المكان . لكن لا سلّم آخر . فلأمض إذاً...

اللعنة! كنت اعدّ الدرجات ، واحدةً بعد اخرى . بلغتُ المائة عداً ، والجنةُ لاتزال بعيدة ، وعليّ ان ارتقي معارجها . اقتعدت إحدى الدرجات الخشب لاهثاً ، استعيدُ أنفاسي ، وأفكر . استأنفتُ المرتقى . أخيراً ، وبعد ان بلغت من الدرجات ، الأربعين بعد المائة ، وجدتُ نفسي في ممر ضيق ، على احد جانبيه ابوابٌ وغرفات . ادرت المفتاح في الباب المرصود ، ودخلت لأتكوّم رأساً على ارضية الغرفة . أنهض ، لأتقدّم في المدخل مترين ، فأجد السقف مائلاً الى حدّ جعلني أطاطيء رأسي . في أقصى الغرفة ، لصقَ الجدار ، سريرٌ ضيقٌ ، وكوّةٌ ضيقة جداً أستطيعُ أن ارى من خلالها نهر السّين ، إذا

تطاولت بعنقي .

العجيب في الغرفة ، ليس الضيق ، والسقف المائل...

العجيب في الغرفة : المسامير .

المساميرُ في كل مكان . مسامير من مختلف الحجوم والألوان . حتى السقف ممتلىء بالمسامير... لمَ هذه المسامير كلها ؟ من كان يسكن هنا ؟

فكّرتُ بانتزاعها من السقف والجدران... لكن هذا العمل قد يكلفني من الوقت والجهد اسبوعاً... عليّ ، إذاً ، التعايش مع المسامير .

ومن يدري... ربما صلحت المساميرُ مادّةً لقصيدة!

التي هو في بيتها

مرةً ، كان مقامه بباريس ، مَشْغلاً فنياً ، يقع في الطابق بعد الأرضيّ ، في «طريق الزجاج» المتفرع عن شارع ريفولي الشهير ، غير بعيد عن الشاتليه ،وبرج سان جاك ، ومبنى بلدية باريس ، ومركز جورج بومبيدو .

الحيُّ من أقدم أحياء العاصمة الفرنسية ، وأكثرها حركةً في الليل والنهار ، ومن أغلاها إيجاراً .

إذاً ، كيف حظي ، وهو الشاعر الشريد ، بهذا المقام العليّ ؟

السبب بسيط ، هو أن السيّدة ، مالكة المبنى ، الذي يضم مجموعة شقق ، مغرمةٌ بالفن وأهله ، رسّامةٌ لكن بالتصوير الضوئي ، ولهذا أفردتْ من مبناها شقةً صغيرةً جعلتْها مَشْغلاً لها ، يضم آلات تصويرها ، وأحماضها ، وأحواضها ، وألواحها المنجزة وشبه المنجزة .

وتشاء المصادفة ، أن تعرف السيدةُ ، الشاعرَ الشريد ، وهو في محنة بحثه عن ملجأ ، فتعرض عليه أن يقيم في مشغلها ، مؤقتاً ، ريثما يهيء له الزمنُ العصيُّ مسكناً .

كان الشتاء قاسياً ، وحينما أقرسه البرد ، احتمى بالمشغل ، لايغادره إلا لُماماً ، ليشتري خبز يومه ، او ليزور السيدة ، دقائق معدودات ، في شقتها الفارهة ، بالمبنى ذاته .

إنه ينام على الأرض .

وفي متناول يده ، اوراقه وكتبه ، وجهاز الهاتف الضروري في مدينة مثل باريس .

في صباح ما ، استيقظ ، وعندما اراد النهوض ، أحسَّ بظَهرهِ يخذله ، وبألمٍ نغّارٍ لا يستطيع لشدّته أن يتحرك ، أو حتى أن يبدّل ولو قليلاً من

وضعه ، وهو على الأرض ممدَّدٌ .

مدَّ ذراعه ، محاولاً استعمال جهاز الهاتف كي يتصل بمغيث ، فوجد الجهاز أبعد من أن تمسك به يده . كان عليه أن يقترب قليلاً ، نصف متر تقريباً ، وقد بدا له نصف المتر ذاك ، اطول مسافةٍ على وجه البسيطة .

لكنّ عليه ان يحاول ، وقد فعل ، وإن كلَّفته المحاولة آلاماً لاتطاق .

أخيراً ، اتصل بالسيدة التي هو في بيتها .

بعد عشر دقائق ، سمع المفتاح يدور ، ودخلت السيدة .

قالت له : خذ هاتين الحبّتين اوّلاً ، لتخفَّ آلامك ، وتتحرك قليلاً ، وفي ما بعدُ سوف ادبِّرُ لك علاجاً حقيقياً ، طبيعياً ، عجيباً . ابتلع الحبّتين ، وكانتا من الفولتارين .

أمّا السيدة ، فقد غادرته ، مسرعة إلى شأن من شؤونها التي لاتنتهي ، ومعلنةً أنها سوف تعود لتراه في الظهيرة .

لكنها لم تنس ، قبل مغادرتها ، أن تحضر له طاس القهوة السوداء .

●

جاءت السيدة التي هو في بيتها ، منتصف النهار بالضبط . إلا أنها لم تأت وحدها . كانت بصحبتها امرأة شابّةٌ ، اقرب الى النحافة ، ذات نظّارة طبية عريضة العدستين .

قدَّمتها السيدة : الآنسة باسكال ، سوف تتولى العلاج . ابتسمت الآنسة باسكال .

أمرته بأن ينقلب ، وساعدته في الأمر ، هكذا تمدد منكفئاً ، كشفت عن ظهره ، بعد أن انتزعت قميصه وما تحت القميص ، وأمرته بأن يتنفس عميقاً اوّلاً ، ثم يعود الى حالته الطبيعية من التنفس .

قالت السيدة التي هو في بيتها : إن الآنسة باسكال تعالج هذه الظواهر بطريقتها ، إنها سوف تمرر كفّها على ظهره ، بدون أن تلمسه ، ولسوف يحسُّ بالفرق .

كان الشاعر الشريد منكفئاً ، لايرى السيدة التي هو في بيتها ، ولا صديقتها الآنسة باسكال ، لكنه كان يحسُّ بدفءٍ ما ، بدفء يتزايد ، ثم بحرارةٍ رفيقةٍ تنتشر على امتداد ظهره .

سألته الآنسة باسكال : هل يشعر بشيء ؟

أجابها بصوت خافت : إنه يشعر بحرارة هيّنةٍ .

قالت الآنسة باسكال واثقةً : إذاً ، الجسدُ يستجيب .

وعقّبت السيدة التي هو في بيتها : إنه أحدث علاج في العالم .

اتصالٌ بواسطة الطاقة الروحية . لا دواء ولا كيمياء...

●

ولثلاثة أيام ، ظل طريح الفراش ، والآنسة باسكال تأتيه رفقة السيدة التي هو في بيتها ، منتصف النهار تماماً ، وتؤدي طقوسها الروحية .

والحقُّ أنه استطاع مغادرة المشغل ، في اليوم الرابع ، شاكراً السيدة والآنسة على صنيعهما ، لكنه لم يقل لهما إنه استمرَّ يبتلع حبوب الفولتارين...

●

أروي هذه الحكاية ، لأني التقيت في دمشق ، قبل اسبوعين ، صديقاً لي ، جاء من لندن ، ليعالج ذلك «الديسك» اللعين الذي لازمه ثلاثين عاماً ، والذي أعيا الأطباء في مشارق الأرض ومغاربها . وحين سألته عن الطبيب والعلاج ، هنا ، في دمشق ، قال لي : اوصاني صديقي فلان ، بأن اراجع سيدةً تعالج الأمر بتمرير كفِّها على ظهري...

وأسأله : وكم من أيام أمضيتَها في العلاج ؟

قال : هذا اسبوعي الثالث .

واستفسر منه : هل طرأ تحسُّنٌ ؟

فيجيبني : قالت لي السيدة في الجلسة الأخيرة إن الجسد بدأ يستجيب!

عن الانتباه والواسطة

الأماكن القصية ، في الذاكرة أو في الجغرافيا ، تظل قصية البلوغ .

انتَ كنتَ فيها يوماً . وكانت فيك . سكنتك حيناً من الدهر . وتركتْ في هواء كتابتك شذىً متضوعاً ، ار رائحةً حادّة كرائحة البارود .

لكنك تغيِّرُ الأماكن ، تغادرها مكرهاً في الغالب ، حتى قبل أن يكتمل تغلغلُ الشميم في عروقك...

وها أنتذا ، في ضحى كهذا الضحى ، تجدك مستعداً لاستقبال ذكرى مكانٍ ما . الضحى شفيفٌ ، يبلغك أو تبلغه عبر زجاج النافذة . جرّةُ الفخّار الأقرب فيها نبتة صبّار من اليمن . النبتة متوردة الأوراق بفعل الشتاء . ستّ اوراقٍ فقط اكتنزت خضرتها : بشائر دفء ربيعيّ ؟

وهناك شجيرة الورد المتطاولة ، لقد تعالت على البرد . إن فيها وردتين ، إحداهما متفتحة تستقبل الشمس حرّة التويجات ، أمّا الأخرى فلا تزال ملتمّةً على نفسها ، تتشبَّعُ هادئةً بدفء الشمس ونورها ، وسوف تتفتح على مهلٍ في احد الصباحات... الثلج لن يسقط .

والقنفذ الذي أمسكتَ به ، في منتصف إحدى الليالي ، ضالاً في الشارع العامّ... هذا القنفذ الذي أطلقته في الحديقة ، لم يعد يظهر . ربما حفر له نفقاً ، وربما استطال هذا النفق واستطال حتى تخطّى ارض سور الحديقة . انت تكتب ، والقطة تراقبك من وراء الزجاج . اللعبة اختلفت الآن .لقد جاء دورك كي تراقب القطة ، كي تنظر في عينيها... لكنها تغمض عينيها ، وتهملك ، مستمتعةً بنعاسها تحت الشمس .

والكتب حولك . خلفك . أمامك . على الطاولة . على الرف . على الأرض . وأنت تتفادى النظر إليها ، لاتريد لعينيك أن تلتقطا حتى عناوينها المتاحة .

فالمشهد الذي شرعتَ تهدهده ، منذ حين ، هو أثمن ، الآن ، من هذه الكتب كلها . فأنت ، كما تعرف نفسك ، وكما يعرفك الأصدقاء ، ملتقطُ مَشاهد .

هل المشهد هو ما سيُبلغك المكان ؟

وأي مكان ؟

جرّة الصبّار ، مثلاً ، اين ستمضي بك ؟

الى اثينا... قبرص... الجنوب الإيطالي ؟ أم أنّ صبّارها سيمضي بك الى جبال اليمن ، الى صعدة او يافع...

ام تراه رامبو سيختطفك الى الحبشة ؟

●

رسالة صعبة

وماذا سأكتب إليك

عبر خمسة محيطات...

انت الذي كنت ، يوماً ، أقرب إليّ من أنفاسي ؟

لو كنت على مبعدةٍ من العداء المحض

فلربما كان بمقدوري أن اسدَّ الفجوةَ

بمقاطع عابرة ، وتهذيب بارد

لكن أيّ كلمات قاتمة يمكن أن تخطّ هذه المحيطات

التي تجري ، كالزمن ، بيننا ؟

ماذا استطيع أن أقول لك ،

يا من لستَ عدوي ، ولا صديقي

بينما كانت تنطبع على شفاهنا ، يوماً ،

ترانيم مديحٍ بلا كلمات...

آن وقَّعتُ ، مرةً ، خربشاتي ، في محيط دمك ؟

ديفيد معلوف

●

إذاً ، توقفت دورة الروليت ، لتثبت في أستراليا القصيّة . المكان يحضر . فجأةً... إنه استعداد الاستقبال .

لكنّ الواسطة تظل ذات أهمية . والواسطة هذه المرّة كانت قصيدةً لديفيد معلوف ، عثرتُ بها ، في نسخة مصوَّرة لديوانه « قصائد ١٩٥٩-١٩٨٩ » .

لم أتعمّد الاستعانة بديفيد معلوف .

كان الديوان المصوَّر ذا غلاف من الكارتون الأخضر ، وبلا عنوان . امتدت يدي ، عن غير قصد ، وبلا تأكُّدٍ من هوية الكتاب ؛ فتحتُ صفحةً وإذ بـ « رسالة صعبة » تَمثل أمام عينيّ .

لابد من قراءة القصيدة . إنها فأل هذا الصباح!

بسرعة خاطفة ترجمتُ القصيدة .

لم اراجع الترجمة .

●

وعليّ ، الآن ، أن استعيد شيئاً من انطباعاتي عن استراليا :

إن كانت اللغة ، والأرض ، والمصلحة المشتركة ، هي التي شكّلت مفهوم « الوطن الأسترالي » يوماً ما ، فإن الأشياء لم تعد هي هي .

كان في أستراليا ، في سكان استراليا (أعني القادمين إليها) نوعٌ من التجانس : العِرق الأنجلو ـ سكسوني ، اللغة الانجليزية ، الأرض الجديدة المنتزعة من أهل البلد الأصليين ، والثرواتُ التي يمكن جَنيُها من الأرض المنتَزعة . هكذا خاض الاستراليون معاركهم المختلفة منطلقين من هذا المفهوم .

كان « الآخر » لديهم هو غير الأنجلو ـ سكسوني . أمّا هم فإنهم « البُناة » ، حين ترنّ الكلمة ذاك الرنين الآتي من « بناة الامبراطورية » .

وإلا ، فما السبب الذي جعل الجنود الأستراليين يُقتلون بعشرات الآلاف على شواطئ الدردنيل البعيدة ، في الحرب العالمية الأولى ؟

الأشياء ، لم تعد هي هي .

انت الآن تتمشى في شوارع سيدني ، المركز والضواحي ، فتسمع لغاتٍ شتى ، وترى ملامح من شعوب مختلفة ، وتجد الكنائس والمساجد والمعابد . العادات تتبدل ، في الملبس والمأكل ، والثقافة غدت ثقافات .

من هنا ، سوف تخرج عناصر من مفهوم الوطن ، وتدخل عناصر .

يقول اللبناني : انا استراليّ .

ويقول الفيتنامي : انا استراليّ .

ويقول الهندي : انا استراليّ .

كذلك يقول الأنجلو ـ سكسونيّ .

الخدمة العسكرية الإلزامية ألغيتْ ، هذه الخدمة الملازمة لمفهوم «الوطن» القديم ، والمتطلبات القاسية لهذا المفهوم .

ويوضع ، هذه الأيام ، الجدول الزمني للجمهورية الأسترالية .

سوف تتبدل الراية أيضاً ، ومعها الأولويات .

أعتقدُ أن الجمهورية الأسترالية ، ستكون كومونويلث استراليا ، صيغةً قريبةً من صيغة الولايات المتحدة الأميركية .

لكنها لن تكون روما جديدة في جنوبيّ الأرض .

استراليا ، الآن ، تخطو خطواتها النهائية ، باتجاه مجتمع ديمقراطي ، متعدد القوميات والثقافات ، مجتمع إنسانيّ .

لكن ، سيمرّ وقت طويل ، قبل أن تتشكل لهذا المجتمع المأمول . أعرافُه وعاداته المتساوقة .

القاهرة كتاب

معرض القاهرة الدولي للكتاب ، في دورته الثامنة والعشرين ، هذا العام ، كان حافلاً كعادته ، بالناس ، والكتب ، والندوات والأمسيات . وأهل مصر يأتون ، أفراداً وعوائل ، ليمضوا في المعرض يوماً كاملاً ، يتجولون ، ويشربون الشاي ، ويحضرون الندوات ، ويقتعدون الأرض طاعمين ، وفي المساء ، حين يبدأ المعرض يغلق ابوابه الكثيرة ، يخرجون وقد حملوا كتبهم في أكياس ، بعضها مكتنز ، وبعضها ضامرٌ .

لقد صار المعرض ، مع السنين ، مناسبةً اجتماعية ، مثل شمِّ النسيم ، وهو بهذا متفرِّدٌ بين المعارض المثيلة التي تكاد تقتصر على النخبة ومن حولها . ومعرض القاهرة الدولي للكتاب ، متفردٌ ايضاً ، بل أوّلاً ، في كونه المعرض العربي الوحيد الذي لاتخضع كتبه للمراقبة ، أعني رقابة الدولة ، والأمرُ ذاته متوافرٌ في الندوات .

●

لكنّ عدداً من مثقفي مصر لايشعر بالإطمئنان .

والسبب هو في ما يتواتر من أنباء او شائعات حول بيع المعرض إلى القطاع الخاص ، أو «تلزيمه» الى هذا القطّاع . وتمضي هذه الشائعات الى حدّ تسمية «المقاول» الذي سيتولى «خصخصة» المعرض في دورته التاسعة والعشرين ، في العام المقبل .

تقول هذه الشائعات أيضاً إن «الخصخصة» لن تقتصر على معرض الكتاب ، بل ستبدأ من «الهيئة المصرية العامة للكتاب» .

هؤلاء المثقفون المصريون الحريصون على التمسك بمنجزات الهيئة في

إشاعة المطبوع ذي السعر المنخفض ، يرون في «خصخصة» الهيئة ضربة موجعة للثقافة ، ويقارنون بين اسعار كتب الهيئة ، واسعار الكتب التي يصدرها القطاع الخاص ، كما ان تزامن هذه الشائعات ، مع إعلان بيع محلات «عمر افندي» بفروعها الستمائة الى القطاع الخاص ، يثير الذعر والمرارة لدى مثقفي مصر ، ويجعل الشائعة في مقام الواقعة .

إذاً ، هل سيبيعون السدَّ العالي ؟

اتراهم سوف «يلزِّمونه» الى شركة ؟

إن كانت الثقافة ، وهي غذاء الروح ، سوف «تخصخص» ، فإن «خصخصة» الماء واردةٌ...

●

حدّثني الصديق ، كاتب القصة اللامع ، سعيد الكفراوي ، حديثاً مختلفاً عن «السدّ العالي» .

قال لي : لو لم يكن للسدّ العالي سوى فضلٍ واحدٍ لكفى...

أمّا هذا الفضل فيتمثل في تجنيب مصر اهوال فترة الجفاف الكبرى التي تقع كل سبعين عاماً .

وقد حدثت فترة الجفاف الدورية ، هذه ، لكنّ التحكم بتدفق المياه من بحيرة ناصر جنَّبَ مصر أهوالها...

وأيّ أهوال!

كان اهل القاهرة المتضورون جوعاً ، يقفون على أسوار القلعة ، وبأيديهم الخطاطيف ، حتى إذا مَرَّ عابرٌ ، اقتنصوه بخطاطيفهم ، رافعين إياه ، من الدرب الى السور ، ليتناهشوه ويأكلوه حيّاً...

ويمضي سعيد الكفراوي في مرارته ، متسائلاً عن تلك الضجة المثارة هنا وهناك ، عن إمكان غرقِ الدلتا ، بسبب ما يفعله السدّ العالي من تحكُّم بمياه النيل ، وسيطرةٍ على تدفقها الذي كان يحمل معه ، في

السنين الخوالي ، قبل إنشاء السدّ ، الطميَ ، فيضيف الى الدلتا تراباً جديداً .

الآن ، لم تعد الدلتا تكسب تراباً جديداً .

لكن د . فاروق الباز ، وهو العالم المتحقق ، ينفي الأمر نفياً تاماً ، ويقول إن الدلتا تتوسع ، فعلاً ، مع الأراضي المستصلحة ، وإن ما تفقده الدلتا هو من الضآلة ، بحيث ينبغي ألاّ يُحسب له حساب .

كانت مصر هبة النيل .

وهي الآن هبة السدّ .

هبة السدّ العالي .

أمورٌ عدةٌ تؤرق مثقفي مصر ، بعضُها شديد ، وبعضها هيّنٌ ، ويندر أن يهبط المرءُ ارضَ مصر ، ولايسمع هواجس هذا الأرق . لكنّ مايثلج الصدر ، ويدفع الى التفاؤل ، هو هذه المسؤولية التي يشعر بها المثقفون المصريون تجاه وطنهم .

●

المقهى الثقافي ، من ظواهر الحياة الثقافية المصرية .

في العقود الماضية ، كان مقهى « ريش » الشهير ، بأسمائه اللامعة ، وأحاديثه وحوادثه .

اغلق المقهى ابوابه .

ذهب الناس إلى الأوديون .

لكنّ الأوديون رفع أسعاره الى حدٍّ رآه المثقفون المصريون أعلى مما يطيقون ، فهجروه .

شرعوا يلتقون في مقهى جدّ متواضع ، اسمه « البستان » ، يجعل المرء يبحث عن العلاقة بين الإسم والمسمَّى .

العديد من المثقفين يقصد « جريّون » ، وهو مقهى ومطعم في وسط

المدينة ، غير بعيد عن شارع طلعت حرب . إنهم في « جريّون » منذ منتصف النهار حتى مطلع النهار...

●

و « المقهى الثقافي » هو أيضاً في معرض الكتاب .

إنه ، سرادقٌ ، او خيمة واسعة . الكراسي عتيقة ، والأضواء ساطعة . وثمت طاولة صغيرة يجلس إليها المتحاور ، او المتحاورون ، في قربٍ شديد من الحاضرين .

في هذا المقهى تكون العلاقة بين المحاور والناس اكثر وضوحاً ، فالمكان بلا بهرجة . لا منصّة عالية . لا قواعد في الحوار . كل شيء بلا ضوابط سوى الضوابط الذاتية .

والناس يجلسون ويغادرون بدون حرج .

إنه مقهى ، بالفعل .

في « المقهى الثقافي » كان لي حوارٌ مع الحاضرين . الحوار استمرَّ طويلاً ، عميقاً ، صريحاً .

وأقول ، صراحةً ، إن لقائي هذا في « المقهى الثقافي » كان اهمَّ لقاءٍ لي مع الناس ، اهمَّ حتى من أمسيتي الشعرية .

يونانيٌّ فلا يُقرأ

إيثاكا

وأنت تزمع الرحيل الى إيثاكا
فلتصلَّ من اجل ان يكون الدرب طويلاً
مليئاً بالمغامرات والتجاريب .
لاتخف الليستريغونيين والسيكلوبات
وبوازايدون الغاضب ،
فلن تراهم ، مادمتَ متسامي الفكر
ومادامت عاطفة نادرة تلمس روحك وجسدك
إنك لن ترى الليستريغونيين والسيكلوبات
وبوزايدون الغاضب ، إلا إذا حملتهم في روحك
وإلا إذا نصَبتْهم روحُك أمامك .
تمنَّ أن يكون دربك طويلاً
أن تدخل في أسحار صيفٍ عديدة
وبأي امتنان واي فرح -
مرافىءَ تُرى للمرة الأولى ،
وان تتوقف عند مراكز التجارة الفينيقية ،
فتشتري بضاعة طيبة
أصدافاً ومرجاناً وعنبراً وأبنوساً
وعطوراً شهّاء شتى ، قدر ما تستطيع
أن تزور مدناً مصرية عديدة
وأن تجمع معرفة العارفين .

لتكن إيثاكا ، دوماً ، معك
إن بلوغك إياها ، لهو مصيرك
لكن ، لاتسرع الرحلة ، في الأقل
والخير ، ان تستمر الرحلة أعواماً ،
كي تبلغ الجزيرة شيخاً
غنياً بما كسبتَه في الدرب ،
غير متوقع من إيثاكا ان تهبك الغنى .
لقد وهبتك إيثاكا الرحلة الرائعة
وبدونها ، لم يكن بإمكانك الرحيل ،
وليس لديها ما تهبك سوى هذا .
إن وجدت إيثاكا فقيرة ، فهي لم تخدعك ،
إذ غدوتَ من الحكمة في هذه التجربة
بحيث فهمتَ ، فعلاً ، معنى هذه الإيثاكات .

كافافي

هذه القصيدة التي ترجمتُها للشاعر اليوناني الإسكندري قسطنطين كافافي ، والتي غدت ، مع الزمن ، كالمثل السائر ، منذ نشرها الأول في اواسط السبعينات ـ اقول إن هذه القصيدة تبيِّنُ كم نحن الشعراء ، ضعفاء ، إزاء إيثاكا ، المدينة الحلم ، التي لن تمنح المرء إلا الحلم ، وإلا حكمة الطريق :

« إن وجدتَ ايثاكا فقيرةً ، فهي لم تخدعك... »

وهكذا ايضاً ، دائراً في هالة إيثاكا ، لا اتردد في تلبية دعوةٍ تأتيني من أرض اليونان .

وجرياً على العادة ذاتها ، مستخدماً آخر صفحة فارغة في جواز سفري العتيد ، حصلت على تأشيرة الدخول من سفارة اليونان بعمّان ، حيث أقيم ،

وتوجهت ـ على الطائر الميمون ـ الى بلاد الإغريق . كانت تذكرة السفر ملأى بالتفاصيل . وعلمت أنّ عليَّ أن آخذ طائرة اخرى من مطار اثينا ، كي اصل الى إيثاكا ـ ي ، وإيثاكا ، هذه المرّة ، بلدةٌ تسمى كافالا ، تقع على شاطئ بحر إيجة ، وتكاد تتوسط المسافة بين سالونيكا واسطنبول (تبعد كافالا عن اسطنبول ٤٥٠ كيلومتراً) .

وصلت اثينا في السابعة والنصف صباحاً ، وأسألُ عن موعد الطيران الى إيثاكا (او كافالا!) فإذا هو السادسة والنصف مساءً... أليس من طائرة اخرى ؟ ابداً...

أحسست ، فجأة ، بالتعب . إلا أن المكث داخل المطار ، من الصباح حتى المساء سيكون منهكاً تماماً . هبطت بحافلة المطار الى ساحة اومونيا ، وسط العاصمة ، وحاولت ان اتسكع ، لكنّ الحرّ كان شديداً ، وازدحام حركة النقل في أشُدِّه .

في حوالي الساعة الثالثة عدت الى مطار اثينا . جلست في الصالة القريبة من شبّاك كافالا . ألتفت فأرى الوضع الجانبي لصديقٍ أعرفه . لم اكن متأكداً . همستُ : حسن... يا حسن طِلِب!

استدار الرجل إليّ .

كان د . حسن طلب قادماً من القاهرة ، ينتظر مثلي ، طائرة إيثاكا . ثم جاء منصف غشّام من تونس ، وشاعر فرنسي مع صديقته ، وأسعد الأسعد من فلسطين .

●

عنوان الملتقى «الندوة الثانية لشعر المتوسط» .

العنوان كبير ، وحوض المتوسط من أغنى مناطق الشعر في العالم ، كما أن الأسماء ذات البريق الحقيقي ، بريق الذهب ، ليست قليلة إطلاقاً . يكفي أن تذكر اليونان واسبانيا وتركيا لتتخاطف النجوم أمام عينيك . لكني وانا اقلّب

قائمة اسماء المدعوين الى «الندوة الثانية لشعر المتوسط» أحسست بالخيبة .

كنت أمنّي النفس بلقاء فلان وفلان ، وإذ بي اجد عينيّ تحدّقان في قائمة مطموسة تقريباً .

سألت سيدةٌ ذات دور في تنظيم اللقاء عن السبب . أجابتني بأنهم قليلو الخبرة في هذا المجال ، وانهم يحاولون ، ضمن إمكاناتهم المحدودة ، تطوير العمل . وأضافت إن حال الندوة هذا العام خيرٌ من سالفتها .

على اي حال...

الأمسية الأولى استمرت خمس ساعات تقريباً .

اضطررت الى مغادرة القاعة قبل انتهاء البرنامج ، بسبب الإعياء ، وحاجتي الى ان اتنفس الهواء الطليق الآتي من البحر .

عدت الى الفندق ، وجلست في الشرفة المطلة على ميناء الصيد . كان في البرنامج حفل عشاء يقيمه محافظ المدينة للمدعوين . لم احضر الحفل . كان المفترض ان احضر أيام الندوة الثلاثة ـ أنشطة الندوة في المساء دائماً ـ لكني في ظهرة اليوم الثالث كنت في مطار «الاسكندر الأكبر» الصغير ، أنتظر موعد الطائرة التي ستنقلني من كافالا (ايثاكا الفقيرة) الى اثينا .

ما الذي عدتُ به من هناك ؟

المشهد الليلي عند سور المدينة القديمة ، القلعة التي بناها محمد علي كي تحرس المرفأ . الأزقة الضيقة المرصوفة بالحجر داخل الأسوار . صباح الصيادين ، صيادي السمك ، وهم يلفّون شباكهم وينظفونها مما علق بها من كائنات البحر وأعشابه . القهوة الأولى التي تحتسيها في مقهى صغير يواجه البحر . الطفلة ذات الشعر الطويل التي تصاحب ، دوماً ، أباها ، الشاعر يانيس افانتيس . أطلال مدينة فيلبوي التي كان الملك فيليب المقدوني ، والد الإسكندر ، يستخرج من مناجمها ذهبه ، ويسكُّ نقوده . تيجان اعمدة كورنثية مقلدة على اعمدة من ايونيا...

أليس هذا مانعود به من إيثاكا ؟

جَنّة المعلّقات

هي ليست معلقات سبعاً أو عشراً . لم يروها راوٍ ، ولا شرحها شارح ، ولا عُلّقت يوماً على أستار الكعبة .

إنها ممّا يمثل على حوائط غرفتي ، ثابتاً او نائساً او مستنداً .

خذ صحن الفضة هذا ، المثبت على حامل لاتراه ، حتى لكأن صحن الفضة طبقٌ طائر يمسّ عَذَبات الخيزران مَسّاً خفيفاً . تأمّلْ ترَ قلعة الجلالي ، التي تحرس مرفأ مسقط . بناها البرتغاليون ، وكان لمن يحتلُّها شأن في تاريخ عُمان . توالت عليها الأيدي ، حاملةً أسلحة اختلفت مع الأزمان ، ودخل إليها ، وخرج منها ، سجّانون وسجناء ، ولربما مات بعضهم صبراً فيها . هذه القلعة رأيتها يوم زرت مسقط . اردت ان تزورها ، فقيل لك : اليوم للإصلاح ، عد ثانيةً لتراها . القلعة اليوم في غرفتي .

●

هذه اللوحة لرسّام هاوٍ . جيء إليك بها ، من باريس . إنها عن مونمارتر ، مضطرَب الرسامين ، هواةً ومحترفين . كل رسّام أسند حامل لوحته قرب شجرة ، ينتظر من يأتي ليرسم وجهه ، أو يطلب لوحةً من طبيعة صامتة .

وانت كنت هناك ، لايوماً ، بل أياماً . كان لك اصدقاء من بين هؤلاء الرسامين المنتشرين في اللوحة ، وكنت تزورهم ، وتثرثر معهم وقت فراغهم بين لوحتين او تخطيطين . وجوههم لن تتعرف عليها ، في هذه اللوحة المزدحمة ، لكنك تحتفظ في غرفتك نفسها ، غرفتك هذه ، بمعلّقة من احد هؤلاء الأصدقاء . المساء يقترب الآن . سوف يحزم الرسّام لوحاته واوراقه وألوانه ، سوف يضعها في سيارته ، او عند مؤتمنٍ ، ويتجه الى اقرب مقهى .

أمّا انت ، الجالس في غرفة مكتبتك ، المتأمل بين حين وآخر شجر الحديقة ، وصبّارها المزهر ، فإنك تستاف الشميم البعيد ، لتلك الساحة الصغيرة في مونمارتر .

●

هذه اللوحة ، هي لرسّام إيطاليّ شهير يقيم بباريس . إنها لوحة أصلية ، قُدِّمت هديةً إليك . حينها كنتَ في ساليرنو ، بالجنوب الإيطالي ، وكان ثمت احتفالٌ بتسليمك جائزة السنة الإيطالية للشعر . السنة ١٩٩٢ . لقد كنت في باريس . راجعتَ السفارة الإيطالية طلباً لتأشيرة دخول ، لكن السفارة ردّت طلبك ، فنحن في اعقاب حرب الخليج الثانية . تتذكر الآن أن رئيسة مجلس النواب الإيطالي تدخلت لدى قنصل فرنسا العام أيضاً ، كي تمنحك السلطات الفرنسية تأشيرة خروج...

كانت الأمور معقدة الى هذا الحد ، وجواز السفر الذي بين يديك لا يستحق العناء كله .

اللوحة ظلت تعايشك . إنها تهاويل احلام ، وأشكال غير مكتملة... اللون الأحمر طاغ ، كأنك في الجحيم . انت الآن تتذكر الليالي الطويلة التي كنت تقضيها في شقتك بالضواحي الباريسية ، الليالي الطويلة التي كانت فيها هذه اللوحة سميرك ومحدّثك . كنت تشعر ، أحياناً ، بأنّ اللوحة تتحرك ، وبأن حياةً شرعت تدبُّ في أشكالها . ها آنتذا مدوَّخ الرأس ، نافر العصب . وحين تنام تأتيك الكوابيس .

●

ملصق عن منوية رامبو (١٨٥٤-١٨٩١) .

تتأمل وجه الفتى ، وقد ألقى بسترته وراء ظهره ، من على كتفه . رامبو المشّاء بين المدن ، المخترق حدوداً ، القاطع بحاراً وفيافي وقارات .

كنت في باريس أيضاً .

وتتذكر الاحتفالات العظمى التي أقيمت لمناسبة هذه المئوية ، القصائد المنعكسة بأشعة الليزر على الممشى الوسيع ، وآخر اغنيات ليو فيرّيه الشيخ ، الذي غنّى مرةً «المركب السكران« لرامبو نفسه .

وتتذكر أيضاً أنك سهرتَ في الليل المضاء ، حتى الصباح .

هذا الخنجر ، ذو المقبض العاج ، والغمد الفضة ، هو من مسقط . خنجر حارثيّ . إنه من الشاعر محمد الحارثي ، ورثه عن أبيه .

يوم كنت في مسقط ، وبعد ان تركت مضافة الفندق ، أقمت في البيت الكبير لمحمد الحارثي . كان معي أيضاً ، محمد جبر الحربي ، الشاعر .

كنت اودّع محمد الحارثي ، صباح السفر الباكر .

قدّم لي محمد الحارثي ، الخنجر . قال : خنجر أبي ، خذه .

قلت : لكنه خنجر ابيك ، إرث العائلة ، وحرزها .

قال محمد الحارثي : لهذا السبب قدّمته إليك!

●

الملصق الضخم هذا ، الذي يبلغ حجمه حجم تلك الملصقات التي تعلّق في محطّات المترو الباريسية ، يحمل كلمة واحدة هي : سفر VOYAGE .

إنه عن فيلم سينمائي شهير ، يحكي قصة فتى يبحث عن ابيه في مجاهل المدن بأميركا اللاتينية .

مخرجة الفيلم : جميلة اوليفيزي .

صديقة لنا . جزائرية الأصل . فرنسية الجنسية . هيّامةٌ بالحرية والفن .

زارتنا ، هنا ، في عمّان .

كان السرطان ينهشها بلا رحمة .

ودّعناها .

وبعد اسبوعين فارقت الحياة .

السفر أيضاً...

أجبال المطيحة

لقائي ، بعد حوالي عشرين عاماً ، مع علي الخرجي ، الذي كان يحضر في عمّان اجتماعاً لرسامي الكاريكاتير العرب ، هذا اللقاء بدا لي ضرورياً الى حدٍ مرهق . كنت أريد ، حقاً ، أن أراه ، وأن اعرف عن اخباره ، واخبار إخوته ، وأقاربه ، الكثير .

لقد تقطعت بنا السبل ، وشطّتْ بنا النوى ، ولم نعد نلتقي إلا لماماً ، وعلى فترات اخذت تتباعد ، شيئاً فشيئاً ، حتى بلغ آخرها عشرين حولاً .

إن ما بيني وبين علي الخرجي ، هو اكثر من صداقة ، وأعمق ، وأشدُّ غوراً في الذاكرة والزمن .

مابيننا ، عيشٌ اول .

لقد نشأتُ ، في كنف أسرةٍ نجديّة ، اشترت نخلاً بـ «أجبال المطيحة» من البصرة ، وابتنت منازل ولدتُ في أحدها . كنت اتصور أنني ولدت في ابي الخصيب (حمدان تحديداً) ، وإذا بعلي الخرجي يقول لي إنني ولدتُ في منازلهم ، منازل الخرجي ، سعد الخرجي ، ولؤلؤة (ام ابراهيم ومحمد وناصر واحمد وعليّ وعبد الرحمن)... والأسماء تتخاطف : آل الشيخ ، واليحيا ، والمانع ، والصانع . ويقول لي علي الخرجي ونحن نشرب قهوة مرة في فندق «عمرة» : أنتم ، أيضاً ، من نجد...

إذاً ، هو الشميم الذي أنتظره . الدهشة الأولى وانتباهة العينين ، وتلك الأغاني التي كانت تهدهدني بها ، لؤلؤة ، أمُّهُ ، سقى الله ثراها ، وأمرعه :

فزّ قلبي ، فزّ قلبي ، يوم شاف الغاويات...

أقول لعليٍّ إنني اتذكر هذه الأغنية ، اتذكرها الآن كأني أسمعها من شفتي ام ابراهيم في ظهيرة قائظة ، في عتمة الدهليز . يفتح عليّ عينيه

واسعتين . يرعفُ أنفه ، وتغرورق العينان لامعتين بالدمع الصعب .

يسألني : كيف تذكرت ؟

اجيبه : الآن ، الآن فقط .

●

كان البيت كبيراً ، هكذا أتخيله . بابه العالي ، الخشب ، ينفتح بصرير مكتوم ، على الدهليز شبه المعتم عادةً . الدهليز يوصل الى الحوش بعد انعطافةٍ يسيرة الى الشمال . وحول الحوش تتوزع الحجرات . في عرس محمد ، بنى ناصر حمّاماً بخارياً ، وأتذكر عبارةً خُطَّتْ على مدخل الحمّام : عرسٌ مبارك إن شاء الله . ولربما كان الخطّ بالفارسيّ ، أخضرَ كما أراه اليوم .

البيت دائم الحركة . مفتوح للجميع ، إلا «الغرفة» ، التي ظلت محتفظةً بأسرارها . ماذا كان في الغرفة ؟ من كان ساكنها أو ساكنيها ؟ لست أدري .

قبل سنوات أخبرني عبد الجبار اليحيا أن سعداً (رحمه الله) ، والد عليّ وإخوته ، كان يسكنها ، محتبياً بها ، ممسكاً بعصاه التي يخشاها كل من في البيت الكبير .

أنا لم ار سعد الخرجي . ولدتُ بعد وفاته ، كما أعتقد ، لكني سمعت الكثير عن هيبته .

كان آل الخرجي مروّضي خيول . وقد قُتل ابراهيم (اخو عليّ) تحت حوافر حصان كان يروّضه .

أتذكّرُ ابراهيم جيداً . إنه اكبر أشقائه وأرزنهم ، واكثرهم شعوراً بالمسؤولية إزاء البيت الكبير ، وبستانَي النخل ، والأشقاء . كانت رزانته لا تحجب خفّة دمه روح الدعابة لديه . كان عذب اللسان ، فصيحاً في النطق ، وكريماً .

ناصر ، النحات الرسام الخطّاط النجّار ، والمغامر ، كان أقرب الأشقاء

شبهاً بإبراهيم . وقد كان موته في ارض بعيدة جرحاً ظل ناغراً . ناصر الخرجي ، كتب بدر شاكر السياب مرثية له . لم اجد المرثية في ديوان بدر ، لكن القصيدة يوم نُشرت كانت مهداةً إليه .

اتذكر بيتاً واحداً منها :

غربان ، ياغربان ، ياجوّالةْ

●

لازلتُ أتساءل في سرّي : كيف كان بمقدور ابناء الأسرة النجدية هذه ، أن يدخلوا ، دخولهم العجيب ، في متاهة المجتمع المدنيّ بالبصرة ؟

لم تكن بلدة «الزبير» مرجعيتهم في حياتهم اليومية . كانوا يزارون ولايزورون . كان للبيت الكبير جواذبه ، والفتيان من الأقارب كانوا يؤمّونه كثيراً لأنهم يجدونه مختلفاً . في البيت الكبير دخل الحاكي مبكراً ، والمذياع ذو البطّارية الضخمة . وفي البيت الكبير بدأت الخطوات الأولى في طريق الفن الطويل (عبد الله الشيخ صنع اول تمثال له هناك ، فينوس صغيرة من طين الجدول) . علي الخرجي ، كان مدللاً ، فتىً تيّاهاً بنفسه ، يُمضي في مدينة البصرة وقتاً اكثر مما يمضيه في «أجبال المطيحة» . كان انيقاً ، ربما الى حدّ المبالغة .

●

الذكريات تلُحّ .

بعضها يحضر ، خاطفاً ، وبعضها يهرب خاطفاً ، حتى لكأن المرء لايكاد يمسك بواحدةٍ منها . مادّةٌ للحياة ، ام للرواية ؟ لماذا نسرع دائماً الى الغنيمة ؟ لماذا لا ندع الحياة تتدفق كما هي ، قبل أن نحشرها حشراً في قصيدة او رواية ؟

●

مرّةً ، ذبح آل الخرجي جملاً .

ربما كان ذلك في عرس ، أو عيد .

القدور الكبيرة منصوبة ، صفّاً ، في الحوش . والنيران تتوقّد ، والفتيان من الأقارب جاؤوا جميعاً .

واكثر من واحدٍ ، منّا ، نحن الصغار ، يتلهى بمحاولة مضغ « عُصبة » ألقيَ بها إليه .

لاتزال « العصبة » قاسيةً ، عصيّةً ، في فمي ، حتى يومي هذا!

●

الذكريات تلحُّ...

فلتحفظها للحياة ، الحياة كما هي .

مغادرات: الخروج من عدن

في الغالب ، أغادرُ المدن مرغَماً .

وفي الغالب ايضاً ، ادخُلُها مرغَماً ، حتى المدن التي احببتُها اكثر من سواها : باريس ، مثلاً ، لم أذهب إليها كي اقيم ، إلا مضطراً . أيّامها ، كنت في تونس ، وكانت حرب الخليج الثانية ، تبعث نُذُرها في الآفاق ، وتعمّقُ سايكولوجيتها اللاعقلانية في النفوس . الحرب ، على الدوام ، تأتي مع قوانينها الخاصة بها ، وتفرض بهستريا الهياج ، هذه القوانينَ ، على الأفراد والجماعات .

في تونس ، تلك الأيام ، أحسستُ بأنني مهدَّدٌ ، أعني أنَّ المكان لم يعد مناسباً لي ، انا الذي اعتدتُ الجهر بالرأي ولو في صوت خفيض . كنت مدعواً من « بيت الشعر » في مدينة نانت ، وكانت لديَّ تأشيرة دخول الى الأراضي الفرنسية . حملتُ حقيبتي الصغيرة ، وحمَّلتهُا بما يمكن ان ترفعه يدٌ ، وذهبت الى فرنسا .

في مطار باريس ، كان وضعي عجيباً . جرى استجوابي ، وكذلك الاتصال بـ« بيت الشعر » للتأكد من صدق كلامي . وأخيراً سمحوا لي بمغادرة غرفة الاستجواب ، معتذرين .

●

عدن ، مثل باريس .

ذهبت إليها ، في ١٩٨٢ ، بعد ان ارغمتنا دبابات شارون على مغادرة بيروت .

ذهبتُ إليها مضطراً .

وغادرتها مرغَماً ، في احداث كانون ثاني (يناير) ١٩٨٦ .

●

اليوم هو الخامس والعشرون من آب (اغسطس) ١٩٨٢ . قبل يومين انتخب ثمانية وخمسون نائباً لبنانياً ، رئيساً جديداً لجمهوريتهم . عليّ الآن مغادرة بيروت ضمن قافلة عسكرية تقصد الشام . حتى اليوم لا اعرف موعد انطلاق القافلة ، وأي طريق تسلك ، طريق بيروت ـ دمشق الدولي ، أم طريق البحر الى اللاذقية ، لكن هذا لايهمّ كثيراً .

مايهمّني ، بإلحاح ، ان لا أظل دقيقة اكثر تحت الاحتلال الإسرائيلي ، وألاّ تمحي (من الذاكرة ؟) الصورة البهية لبيروت . اريد أن احمل المرآة وهي لم تتشرخ بعدُ .

من يومياتي

●

بين ١٩٨٢ ويناير ١٩٨٦ ، عملت مستشاراً ثقافياً في عدن . ساعدتُ في تأسيس «دار الهمداني» للنشر ، وأسستُ اول مجلة اطفال ملونة ، واول مجلة اسبوعية ، وكنت اكتب مقالة اسبوعية تحت هذا العنوان العريض ذاته «افكار بصوت هادئ» .

●

لكني اتحدث عن مغادرات .

من روايتي «مثلث الدائرة» احاول ان انقل اجواء المغادرة :

قالت لي فاطمة ، بمجرد دخولها عائدةً من العمل : «ألم تسمع ؟» . كانت مرتجفة الصوت ، قلقة العينين ، وبدا شعرها أشعث قليلاً . اضافت : «ألم تسمع ؟ أطلقتْ النار على الرئيس . كانت محاولة اغتيال . لكن المحاولة

فشلت...» . فكّرتُ لحظة . إذاً ، بدأ الإحتكام الى السلاح .

القادمون الى فندق عدن يزدادون عدداً . أمناء عامّون ، وممثلو أحزاب ، وأصدقاء مشتركون بين الأطراف المتناحرة .

كأن المتسابقين بلغوا الأمتار العشرة الأخيرة .

شحنة رشاشات نقلت ، سراً ، من الميناء الى محافظة أبين . اوقفت تدريبات الطيران ، وطلعات الاستطلاع . بدأ الناس يخزنون المواد الغذائية . السوق الحرة ، في خور مكسر ، فرغت من قناني المياه المعدنية . والجمعة الماضية ، بلغ عدد المصلين اقصاه ، في جامع العيدروس والشوارع المحيطة . زارني «أ» ، وقال إن كل محاولات الوساطة اخفقت .

١٣ كانون ثاني ١٩٨٦ .

بدأ الانقلاب ، كما تبدأ الانقلابات ، عادةً ببيان إذاعيّ . كنا في المنزل . فتحت المذياع ، صباحاً ، على إذاعة عدن . لاشيء . تأكدت من الموجة . لاشيء . إذاعة عدن صامتة . في حوالي العاشرة ، بدأ البثّ . كان بياناً يلق بصوت مرتجف ، متعجل ، وعلى موجة ضعيفة . البيان يسرد قصة . محاولة اغتيال . دفاعٌ عن النفس . قتلى . أحكام بالإعدام . تنفيذٌ فوريّ للأحكام . اتصل بي «أ» : «تقطعت اوصال المدينة . المسلحون في الشوارع . ابق في مكانك . الخروج الى الشارع خطر جداً . اصدقاؤنا في البيكاجي منقطعون . الساكنون في التواهي لايستطيعون الوصول الى المعلاّ . والساكنون في المعلا لايستطيعون الوصول الى خور مكسر» .

نحن محاصرون في المدرسة . الإذاعة شبه صامتة . سمعنا اذاعة جديدة تبثّ من حضرموت . الحراسة مشددة على المدرسة . اخذ الموظفون ، من اهل البلد ، يتركون المدرسة ، متسللين مع عوائلهم . اطلقت النار ، اليوم ، على جندي الحراسة ، من سيارة مسرعة . اصيب في رجله . الشائعات تزيد التوتر توتراً . اخبارٌ عن اقتتال وقتل ، على الهوية ، في معسكر بدر القريب . بامطرف وزير البترول والثروة المعدنية اعتُقل . المياه لم تعد تصل الى عدن .

قطعت من مصدرها في لحج . لجأ الناس الى احواض النافورات . في المدرسة حفرنا بئراً ، ورفعنا منه ماءً طينياً . بعد يوم نشف البئر ، فطويناه ، وحفرنا بئراً آخر . التيار الكهربائي انقطع ايضاً . والأطعمه التي كانت في الثلاجة ، بدأت تفسد . فجر الثالث عشر من هذا الشهر ، حتى قبل اذاعة البيان المرتجف ، غادر الذين كانوا في فندق عدن . غادروا جميعاً على الطائرة الأخيرة . بعد مغادرتهم أغلق المطار . الشعب يقتتل . والجمهورية تنتحر . تقتل حتى سلاحها . في الجبل المهيمن على خور مكسر ، الجبل المخزن ، الجبل مستودع السلاح... ظلت الذخائر تتفجر . تندلع من منافذ الجبل ، وتندفع في الفضاء ، نيراناً حمراء ، وبرتقالية... ظل الجبل البركاني يتفجر . يقذف بحممه على المدينة ، علينا نحن المحاصرين في المدرسة القريبة . غيمة من رماد البارود ورائحته تهبط على المدينة . البركان الخامد ، منذ آلاف السنين ، عاد الى الحياة...

سقطت القذيفة الأولى على المدرسة . كانت تستهدف المبنى الجديد ، الذي لم يكد الروس يتمون بناءه إلا قبل اسبوعين ، وكنت رأيتهم آنذاك يجرجرون تمثالاً نصفياً للينين كي ينصبوه في المدخل . سقطت القذيفة الثانية . القذيفة الثالثة اصابت مطبخ مسكني . تهاوت قطع اسمنتية ، وقضبان حديد ، وهبّت الأتربة مثل عاصفة .

جاء أحد اصدقائنا . أرسله «أ» إليّ . الدخول الى المدرسة ممنوع . لهذا عبر السور ، متسلقاً . قال وهو يلهث : يجب ان تغادروا المدرسة . المدرسة منذ الآن هدف عسكريّ . كل فريق يريد احتلالها ، والتحصن فيها . «أ» يقول إن عليكم الذهاب الى العمارات التي يسمّونها المثلث . المثلث تحت حماية الصليب الأحمر...

تركني ، ورأيته يتسلق السور ، ويقفز الى الشارع .

القذائف تنهمر على المدرسة .

ركبنا السيارة . عند البوابة استفسرنا من جندي الحراسة عن الشارع ،

وعمّا إذا كان فيه مسلّحون . قال الجندي : «ليس في الشارع مسلّحون ، الآن . لكنهم قد يظهرون في كل لحظة . إنهم يطلقون النار باستمرار» .

اندفعت السيارة خارج البوابة .

وفي ساحة فندق عدن ، كان القتلى لايزالون ممدَّدين على الأرض...

استدرنا بسرعة .

في البعيد ، في سماء المطار ، كانت غيمة من الغربان .

قال أحمد : مجزرة المطار .

في هذا الوقت ، كان رتل من الدبابات الروسية يطبق على المدينة ، متقدماً على امتداد ساحل أبْيَن .

وفي «المثلث» ، ووراء لافتة ضخمة للصليب الأحمر ،

توقفت السيارة...

مغادرات: الخروج من البصرة

وهل يخرج المرء من جِلْده ؟

لكن أزماننا العجيبة تأتي بكل عجيب . وهكذا تمادى الزمن في غيِّه ، ففرض عليَّ أن اغادر البصرة ، مدينة مولدي ، وملعب صباي ، والانطباعة الأولى في العينين . فرضَ عليَّ أن احملها ، وأطوِّف بها ، ومعها ، حتى اقاصي الدنيا . وما أنا بالفلاّح الذي يتعيَّن عليه ، بحكم وشيجته مع الأرض ، أن يظلَّ مُلامِسَها . إذاً ، سأظل احمل المدينة ، مثل كنز ، او مثل صندوق المسافر الخشب ، كلما ادخلَ يده فيه أخرجَ مايحتاج . لقد انطقتني الأيام بلغات ثلاثٍ ، وتنقّلتُ في ارض العرب حتى عرفتُ لهجات اهلها الكثيرة ، وتحدثت مع أهل هذا البلد او ذاك بمنطق بنيه ، إمالةً ، او لثغةً ، او لحناً . لكن اللهجة الأولى ، لهجة اهل البصرة لاتزال هي المتحكمة ، ليناً في النطق ، وخفةً في مخارج الحروف ، وفصاحةً .

كم من أحداثٍ مرَّتْ عليَّ ، وبعضها جسيمٌ . وكم من أناسٍ عرفت .

كم من مطاراتٍ هبطتُ . وكم من بحارٍ قطعتُ ، ومدنٍ رأيت . إلا أنني لا أزال احتفظ بذلك الخجل شبه المرتبك الذي ينماز به أهل البصرة .

الأشجار التي ظللتني كثيرة ، بين دائرتي القطبين ، وغابات المطر ، وسيسبان الرمال ، غير أن النخلة تظل شجرتي .

استنبات

لا تتعبْ نفسكَ
إن الأمر لأصعبُ مما تتصوَّرُ :
حقاً ، آنيةُ الفخّار ، تماماً ، في زاويةٍ تبلغها الشمسُ
وحقاً ، أن التربة حمراء

وأنك تعرف أن تتحكم في قطرات الماء...
لكنّ فسيل النخلة لن ينمو في غرفتكَ
النخلةُ لن تتنفس مثلكَ
حتى لو هدأتْ أنفاسُكَ
حتى لو كُتمتْ انفاسُكَ...

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

لكنْ ، حين يجيء الليل
وتغمض جفنيكَ
ويأخذك الماءُ الى حيث يشِفُّ الماء
ستأتيك النخلةُ
فارعةً
ضارعةً
زرقاء...

١٩٩٣/٦/٢٦

●

في اواخر السبعينات ، كان جو بغداد المكفهر يزداد وطأة وإطباقاً على الأنفُس والأنفاس .

آنذاك ، كنت شبه معتزلٍ في منزلي ، اكاد لا اتخطّى عتبته ، ولا استقبل اصدقاء .

لكنّ الباب يُطرَق .

ويأتي من يدعوني الى الدخول في حزب حاكم متحكم .

وكان هذا الداعية من الوسط الثقافي الذي أعرفه .

وما ان ينس مني ، حتى تمَّ نقلي من مدير بوزارة الثقافة ، الى مساعد مدير مكتبة في إحدى دوائر الريّ .

وأقولُ ، صدقاً ، إنني رحبتُ بهذا النقل ، إذ اعتبرتُه نهايةً معقولة لدعوة غير معقولة ، ظنّاً مني أني استرحتُ اخيراً ، وأنني سأكون قادراً على أن اقضي ساعاتي الطوال في هذه المكتبة المعتمة ، التي كانت اصطبلاً في الحكم العثماني ، اقضيها في القراءة والكتابة .

لكن الرياح في جو بغداد المكفهر ، تجري بما لا أشتهي .

ويعود الطرق على الحديد البارد . في المنزل ، وفي مكتبة الريّ .

والطارقون ، الآن ، لا اعرف منهم احداً . بعضهم يقول إنه من « القيادة » الفلانية ، وبعضهم يقول إنه من « الشعبة » الفلانية ، وكلهم يتسمّى بأبي فلان .

أخيراً ، قال لي آخر الدعاة :

نمهلك عشرة أيام . وبعدها سيتولّى امرك آخرون . نحن جهة حزبية . بعد الأيام العشرة ستتسلمك جهة أمنية...

●

لم أفلح في إيصال شكواي ، او محنتي ، الى احد .

كانت الهواتف تغلق في وجهي . وكل من سألت عنه كان غائباً . وجدتُ نفسي ، فجأة ، في عالمٍ رهيب من الغياب .

●

قلت : عليَّ أن اغادر ، قبل انقضاء فترة الانذار .

لكنَّ عليَّ ايضاً ، وقبل أن اغادر ، وداع مدينتي ، البصرة ، بل منطقة ابي الخصيب من البصرة .

استقللت القطار من بغداد الى البصرة .

وبسيارة اجرة ذهبت ، للمرة الأخيرة ، الى ابي الخصيب ، غابة النخل ، ومتفرع الجداول .

هبطت من السيارة .

شربت شاياً في مقهى شعبيّ .

مشيت قليلاً في السوق .

لم أسأ السؤال عن أقاربي هناك ، وهم كُثرٌ .

لقد ألقيتُ النظرة الأخيرة .

●

الآن ، بعد سبع عشرة سنة ، لايزال طريق ابي الخصيب ، ماثلاً أمامي ، نخيلاً وشجراً وجسوراً وانهاراً...

لكنه طريقٌ في السماء...

مغادرات: الخروج من بيروت

كانت شمس المتوسط حادّةً قرب المرفأ . وكان على الملثمين الذين نقلتهم شاحنات اميركية جديدة من ساحة حبيب ابو شهلا أن يخففوا قليلاً من وطأة اللثام كي يتنفسوا بحرية أكثر ، ويشربوا جرعة ماء .

المودعون قليلون في هذا اليوم الأخير . رصاص التوديع متقطع . فقط عند الحمّام العسكري والسوديكو اطلق إثنان الرصاص من رشاشيهما ، وهما في عصبية واضحة ، ثم هرولا مختبئين ، بمجرد إنهاء الواجب . الوقت اشد صعوبة وتعقيداً الآن . إنه الأول من ايلول (سبتمبر) ١٩٨٢ ، آخر مغادرات المقاتلين ، واليوم الأول من الترقب المؤلم لمدينة محاصرة هجرها اكثر حُماتها . في بوابة المرفأ كان مشاة البحرية الاميركيون (المارينز) ، وفي اعلى بناية مصرف مهجور يطل على المدخل ، تمركزت عناصر من الجيش اللبناني . كنت في الشاحنة الأخيرة مع عدد محدود . قفزتُ من الشاحنة غير بعيد عن الرصيف ، ولم تكن القفزة بالصعوبة التي تصورتُها . سرنا خطوات لنجد انفسنا أمام طاولة يجلس خلفها ضباط لبنانيون وسط تجمع واسع من العناصر . كان هناك من يسأل عن الإسم والعمر ويسجل المغادرين . قلت له إن اسمي احمد سعيد زكريا من مواليد ١٩٣٤ . كنت اتوقع في أي لحظة ان يصدر ضابط من المارينز امره ، فيحدث مايحدث . لكن الأمور سارت « على مايرام »... ودخلنا السفينة . في المدخل كانت الأسلحة الفردية تكدس في دقة واضحة . ومقاتلاً بعد آخر تدخل المجموعة السفينة ، عزلاء من سلاحها العزيز ، ضمانتها الوحيدة عبر كل تلك السنوات وهذه الأيام .

ثمت شعورٌ بالخذلان لايستطيع المرء أن يكتمه .

●

والبارحة ، البارحة فقط ، كنت في فندق كافالييه (الفارس)... ديفيد هيرست مراسل «الغارديان» البريطانية يتوسط الى جانب وليد جنبلاط مائدة عامرة في اقصى المطعم . مراسل «لومانيتيه» يستعد لإحدى جولاته التي لا تنتهي والى جانبه دليلته البعلبكية ذات الحركة السريعة ، صحافيون ايطاليون ومصورو صحافة ووكالات أنباء ، موظفو دوائر دولية ، مناضلون يستعدون للرحيل او الاختفاء ، عائدون الى بيروت الغربية بعد ان اوشك «الغرباء» على مغادرة المدينة الى غير رجعة ، دبلوماسيون جاؤوا من بيروت الشرقية ليلقوا النظرة الأخيرة على الأسطورة التي تغيب في مثل هذه البساطة العجيبة . اصدقاء لبنانيون اتوا مودعين . محمود درويش ترك الفندق منذ يومين بعد أن عاد التيار الكهربائي الى شقته . قال محمود : أنتظر فتح المطار . لن أغادر على سفينة ، فالبحر يشعرني بالمرارة ، لا أريد ان يقول الإسرائيليون إنهم رموني في البحر .

منى السعودي وطفلتها جاءتا مودعتين . الطفلة جلست الى البيانو تدندن غير عابئة . قالت «باولا» : سأكون صباح غد في ساحة ابو شهلا لأصورك بالملابس العسكرية .

هذه الملابس العسكرية ، جمعتُها بطريقة فريدة . مررت على «الحمرا سنتر» حيث كانت «فلسطين الثورة» . المبنى خالٍ ، وجدت بدلة فأخذتها بكل بساطة ، الحزام جاء به صديق . الكاسكيت اشتريته من أحد باعة الرصيف بعشر ليرات . الجعبة ايضاً اشتريتها بأربعين ليرة . أما السلاح فكان بالمجّان في تلك الأيام .

البارحة ، إذاً ، كنت في فندق كافالييه .

واليوم ، في هذه الظهيرة القائظة ، في الساعة الثانية عشرة ، تدخل السفينة التي ستنقلك الى ميناء طرطوس السوري . السفينة قبرصية يونانية . اسمها «شمس المتوسط» .

●

« شمس المتوسط » تستعد للإقلاع .

في « المقصورة » كان صديقك الذي نجا بأعجوبة حقيقية من محاولة اغتيال قبل اسبوع ، وظل راقداً في مستشفى الجامعة الأميركية ، وكان عليه ان يترك المستشفى والمدينة قبل أن تلتئم جراحه الخطيرة . لقد وصل الى »شمس المتوسط » في سيارة إسعاف ، ملفوف الرأس واليدين بالضماد . إنه صامت . عيناه فقط تدوران . لقد اخترقت إحدى الرصاصات خده . لسانه متورم . حتى تناول السوائل كان يسبب له ألماً فظيعاً .

●

« شمس المتوسط » سفينة ركاب جيدة التجهيز .

على سطح السفينة يتبدى مشهدٌ عجبٌ : المقاتلون منتشرون في كل مكان . طائرة هليكوبتر تقوم بدورية قرب السفينة . من البعيد تبدو حاملة طائرات هليكوبتر . « شمس المتوسط » تبدأ رحلتها في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر . ربما للمرة الأولى في حياة « شمس المتوسط » تجد نفسها « متوسطة » بين سفينتين حربيتين ترافقانها عن يمين وشمال ، إحداهما فرنسية ، والأخرى اميركية . احياناً تقترب السفينتان الحربيتان من « شمس المترسط » اقتراباً مدروساً ، بحيث لا تدعو الحاجة الى استعمال النواظير ، ثم تبتعدان شيئاً فشيئاً بعد ان تتأكدا من ان كل شيء « على مايرام » .

حين تبتعدان ، وتكتسبان لون الرماد الأبيض اللامع ، يفكر المرء بأسماك القرش .

الأفق بلا مفاتيح . وأسماك القرش تطاردنا .

في جانب من سطح السفينة ، كان العميد سعد صايل (ابو الوليد) وابو إياد ، وابو موسى ، وعدد محدود من رفاقهم . وكان الحديث يدور عمّا جرى .

قال ابو الوليد : كنا قادرين على الصمود بين اسبوعين الى ثلاثة اسابيع

اخرى . لكن الضحايا ستكون اكثر ، والنتائج أقل . لقد ظل الوضع على حاله ، من التدخل ، حتى الحصار . لم تدخل عناصر جديدة كي تحدث تفاعلات تنتج عنها امور جديدة .

●

ماذا تفعل نادية لطفي ، هنا ، في »شمس المتوسط« ؟

كنت أظنها سافرت منذ حين . لكنها على سطح السفينة ، بكامل عدتها . لقد أصرّت على توديع المقاتلين ، وجبةً وجبةً...

وغادرت مع الدفعة الأخيرة . معنا .

●

نبلغ ميناء طرطوس السوري ، ليلاً...

« من يومياتي »

مغادرات: الخروج من باريس

كنت كتبت ، في اولى المغادرات ، أنني في الغالب أغادر المدن مرغماً . وباريس ، التي أحببتُها ، ولم ارد مغادرتها ، ما كانت خارج هذه القاعدة .

أتيتُها في الأجواء المكفهرة التي سبقت حرب الخليج الثانية ، فراراً من هستيريا الحرب التي كانت تأخذ مداها ذاهبة بألباب الناس إلى الخرافة ، آنَها ، كنت في تونس .

لا اريد الحديث عن طبيعة حياتي في العاصمة الفرنسية ، أو تقلُّبِ أحوالي ، بين الحضيض والسماء السابعة ، بين الشظف والترف ، فالمورد الآن مختلف ، وأنا اتلفَّتُ الى الحيِّ تلفُّتَ المفارق .

●

في العام ١٩٩٢ طرأ على وضعي ، في باريس ، تحسُّنٌ مباغتٌ . إذ حصلت على شقة في الضواحي ، ذات إيجار معقول ، ألفي فرنك شهرياً مع الخدمات . وكان للشاعر المغربي عبد اللطيف اللعبي الفضل في هذا ، فقد بذل مساعيه لدى بلدية اوبرفيلييه ، وأفلحت المساعي ، بعد ان اقتنع رئيس البلدية ، الوزير السابق ، جاك راليت ، بقضيتي .

وفي شباط (فبراير) من العام ذاته ، تسلّمتُ جائزة سلطان العويس ، وصارت لديّ ضمانةٌ مادّية للعيش ، حراً ، سنواتٍ قادمات . وهكذا ، بدأت اذهب الى المسرح ، والسينما ، وأشتري صحيفة كل يوم ، وأرتاد اسبوعياً مطعم الأيجر ـ دو ، الواقع في شارع جرافيلييه ، بباريس الثالثة ، مع ان صاحب المطعم ، وهو صديقٌ ، كان يأخذ مني خمسين فرنكاً فقط ، عن وجبة كاملة مع ملحقاتها . بدأت اعتني بالشقة ، وأحتال لتأثيثها ، وقد

ساعدني في الأمر ، مصممُ ديكور مسرح ، هو عليّ ، ذو الاسم الشائع : علي عنفش!

كان يزورني بين حين وآخر ، حاملاً عدته ، وقطعاً متناثرة من الخشب واللدائن ، يصنع بها الأعاجيب فيما بعد .

●

من الضروري ، أن اذكر ، هنا ، أننا أسسنا ، في العام ١٩٩١ ، «المنتدى الديمقراطي العراقي» ، وحصلنا على إجازة قانونية من الدوائر الفرنسية المختصة ، غير أننا كنا بلا مقرّ ، إذا استثنينا صندوق البريد ، ولهذا تعيّنَ علينا أن نقيم أنشطتنا في قاعات صغيرة مستأجرة ، لساعتين فقط ، وغالباً ما تكون القاعة في محيط كنيسة ، في حيّ اكثر ساكنيه صينيّون!

كنت رئيس المنتدى ، بالانتخاب .

وكان المنتدى خليطاً عجيباً من فنانين وشعراء وكتّاب وأساتذة ، وسياسيين محبطين ، وطلبة مزمنين ، ذوي انتماءات تكاد تستغرق المسافة بين الألف والياء .

●

في احد الأيام ، وجدت في صندوق البريد رسالة رسمية على غير العادة .

كانت الرسالة موجزة جداً .

عليّ مراجعة دائرة تابعة لوزارة الداخلية ، تقع في منطقة بير حكيم ، غير بعيد عن مقر اليونسكو .

والرسالة تحمل توقيع مفتش في الشرطة .

●

من يومياتي :

مع اقتراب الساعة المحددة في الاستدعاء ، اخذت المترو ، من الشاتليه ، باتجاه « لا موت بيكيه » حيث سأنزل في بير حكيم . كان عنوان الدائرة واضحاً . قدمت الرسالة للشرطي الواقف بالباب . اخذ الرسالة . وسمح لي بالدخول ، مشيراً الى كرسي في قاعة الانتظار . جلست . اتصلَ ، مستخدماً الهاتف الداخلي . دخنتُ سجارة ، ثم ثانية . لم يكن احد معي في القاعة . كدت ادخن سجارة ثالثة ، لكن موظفاً جاء ، وأشار إليّ بأن اتبعه . احتفظ شرطي الاستعلامات بجواز سفري . تبعتُ الموظف . دخلنا مصعداً . توقف المصعد عند طابق لا اتذكره . خرجت يتبعني الموظف . اشار الى باب مغلق . دخل . خرج بعد برهة . امرني بأن ادخل . دخلت . نهض رجل من وراء مكتبه . مدّ يده إليّ ، مصافحاً ، مبتسماً ، مقدماً نفسه ، باللغة العربية ، وأشار الى الكرسي الوحيد في الجانب الآخر من المكتب . جلست . قال مستريحاً : « ارجو ألا يكون الإهتداء الى المكتب أتعبك... » . قلت : « العنوان واضح . جئت من الشاتليه » .

مال بصدره الى المكتب ، وأخذت يده اليمنى تتحسس اوراقاً كأنها تعدُّها . قال : « انت كنت وراء تشكيل تجمّع للمنفيين من بلدك... » .

قلت : « انا رئيس المنتدى . لقد انتخبوني » .

قال : « اعرف ذلك . لقد حضرت احد اجتماعاتكم » .

نظر إليّ ، ودقّ بسبّابته على الأوراق : « هذه الأوراق ، كلها تقارير عن منتداكم . لقد تابعنا تشكيل المنتدى ، واجتماعاته ، والاشخاص المهتمين به . المعلومات الواردة في تقاريرنا ، سطحية حتى الآن . إنها لاتكفينا . لاتجعلنا مطمئنين . نحن ، مثل ما قلت لك ، نريد ان نتأكد... » .

نظر إليّ ثانيةً ، كأنه ينتظر تعليقاً مني . لكني لم اجد ما اقوله . استأنف كلامه : بإمكانك مساعدتنا .

توقف قليلاً ، وأضاف : «اتظن الأمر محرجاً ، أو غير سليم ؟ نحن نستقي معلوماتنا عن التجمعات كلها ، من خلال التجمعات ذاتها ، أي من خلال اشخاص ذوي مسؤولية فيها . ولن يكون تجمعكم خارج القاعدة» .

قلت : انت من الجهاز الذي يتولى أمن دولة كبرى ، وبمقدورك الحصول على المعلومات التي تريدها ، بطريقتك...» .

قال : «من اين نأتي بالمعلومات ، إن لم تكن منك ، أو من غيرك ؟ اي من الذين يتعاونون معنا» .

احسست بدمي يتصاعد ، وبحبّات عرق تنبجس من جبيني .

قلت على الفور : «ايها السيد ، انا لا احب هذه الكلمة» .

سأل مباشرةً : «اي كلمة ؟»

قلت : «يتعاونون»...

●

كان عليّ ، إذاً ، أن اغادر باريس .

وقد غادرتها ، مرغماً ، أيضاً...

ماء الزعفران

في قصص الخيال العلمي ، ومايُعتمد في السينما منها ، وفي المسرح احياناً ، قد نرى ، بشراً حكمت عليهم ظروفٌ معيّنة ، مختارة ، أو طارئة ، بأن يحيوا منقطعين عن العالم ، وأهله ، في كوكب ، أو جزيرة ، أو متاهة ، ولسوف نرى هؤلاء البشر ، متتبعين إياهم بعين اللهفة والتعاطف ، كأننا نرى فيهم أنفسنا ، وكأن حالهم حالُنا نحن أيضاً .

ما سرُّ هذا التعاطف ؟

أهو حبُّ الاستطلاع عندنا ؟

أهو توقّعُ أن نكون ، نحن ، في شدّةٍ مماثلة ؟

أم أن عزلة المرء هي القانون ؟

في زورةٍ أخيرة لدمشق شاءت الأيام أن اسكن وحيداً في منزلٍ ، وأن يكون هذا المنزل بلا هاتفٍ ولا تلفزيون ولا مذياع .

أنا اسكن في الطابق الرابع ، من مبنى بلا مصعد ؛ ويتعيَّنُ عليَّ أن ارقى من الدرجات ، ثمانين ، ابتداءً من الأرض حتى السماء الرابعة حيث أقيم . لا أقول إنني اتوقف عند منتصف المسافة كي استريح قليلاً ، وتهدأ انفاسي اللاهثة ، لا أقول هذا ، إلا أني اتمنّى لو توقفت فعلاً ، لكنها المكابرة تقف لي بالمرصاد ، فأواصل المرتقى حتى اصل ، لأرتمي مباشرة على اول كرسيّ .

وفي حالة كهذه ، لن يكون المرء كالنول ، بين الأرض والسماء الرابعة ، فهو يكتفي بهبوط واحد وصعود واحدٍ يليه ، في اليوم . إنه يدور دورته الاجتماعية المألوفة ، بين الأصدقاء ، والمعارف ، ويمرّ على السوق ليجمع خبز يومه ، ثم يعود الى منتبَذهِ في الأعالي ، حيث لاهاتف ، ولاتلفزيون ولامذياع .

كان ذلك الشخص يشتري صحيفة يومية يضمُّها الى خبز يومه ، يتسلّى بها ، ويعرف شيئاً عمّا يحدث في كوكبنا الأرضي . لكنه مع مرّ الأيام ، والصمتِ الذي تهيّأ مع غياب الهاتف والتلفزيون والمذياع ، يجد الصحيفة اليومية ، نافلةً ، لا معنى لها ، وسط الهدوء السبيغ ، فيصرف النظر عنها ، وعن جوسق بائعها وبائع مثيلاتها من يوميّات وأسبوعيات ، ولا يعود يضُمّها الى خبز يومه في ما يضمّ داخل سلّته .

وبعد أسبوع ، سوف يتساءل في سرّه : ألم أُحسن الفعل ؟

هاهو ذا كل شيء على حاله . السياسة وأحداثها ، والنزاعات ووقائعها ، والأموال وتحركاتها...

والسماء الرابعة لاتزال رابعة .

وكم من حاجات انتفت ، وكانت تبدو ضرورية .

كم من علائق انقطعت ، وكان انقطاعها يعني الكثير ذات يوم .

كم من وجوهٍ غابت ، ومن نيرانٍ خبتْ!

وكم من معنى لم يَعُد ذا معنى...

●

سوف يقول هذا الشخص ، المقيم في الطابق الرابع ، إن لي حياتي ، إن لي حالة حياتي ، وبإمكاني أن ألمسها ، وأتقرّاها ، وأتحقق منها ، بأصابعي أنا ، وبهواجسي أنا ، وليس عبر الهدير الآتي من الآخرين...

●

أتذكر أننا حللنا ، يوماً ما ، على الشاطئ الجزائري ، في نُزلٍ يدعى « ما زفران » ، وأظن اصله العربي « ماء الزعفران » . الفندق ضخم ، لايفصله عن البحر سوى امتار قليلة ، حتى انك لتسمعُ الأمواج تهدر ، والريح تعصف ، طوال النهار والليل ، فتحسُّ بنوع خفيفٍ من الدوار .

ثم ان مصاعد الفندق ذات ارقام تعني عكسها ، فالصفر يعني الطابق الأعلى... وهكذا .

كنا حشداً من أهل القلم ، آتين من بقاع شتى ، نظل مرتطمين مع بعضنا ، دائخين ، كأننا سكارى ، ومانحن بسكارى ، أمّا السبب في ما نحن فيه ، فهو في منتهى البساطة . ليس بإمكانك في نُزل « ماء الزعفران » ان تهتدي الى غرفتك...

هكذا ، يكون لزاماً عليك ، ان تلتجئ الى اول غرفة تجد فيها صديقاً لك ، ليلجئك ، ويخلصك مما أنت فيه ، من هلع وتيه ، ثم لتمضي الليل في غرفته ، مريحاً رأسك على اي وسادة ، حتى لو افترشت الأرض ، المبللة برطوبة هذا البحر الذي يقتحم عليك ، عالمك ، بلا رادع...

●

سليم بركات ، الشاعر ، كان معنا .

في أحد الأيام قال لي سليم ، ونحن في غرفة ليست لنا ، غرفة التجأنا إليها بعد ضياع منهك :

« اسمع . نحن لن نغادر هذا الفندق . لقد ضعنا فيه . نسينا أصحابُنا وسوف يرحلون ليخلّفونا هنا بعد أن ينسوا من العثور علينا »...

وأسأله : وماذا سنفعل ؟

يجيب : نقف عند النافذة ، ونلوّح بملاءةٍ بيضاء من ملاءات الفراش ، لعلَّ سفينةً ترانا من بعيد ، فتحملنا إلى بلادنا...

وأعود أسأله : فإن لم ترنا سفينةٌ عابرة ؟

يقول سليم بركات : نعود الى عزلتنا ، لنكتب...

الصيفُ وبحارهُ

في الصيف ، تنبت للمرء أجنحةٌ خفيّةٌ ، ذوات رفرفةٍ مستقلة عنه ، فهي تتحرك حركتها الخاصة ، محرِّضةً إياه في نداءٍ عميق ، نحو بقاعٍ قصية ، وشواطئ وأمواه ، ورحلات مفعمة بالمغامرة .

لكن للإنسان ، في زمننا هذا حدوده التي يصعب اجتيازها احياناً ، بعض هذه الحدود يتصل بانبساطة اليد ، وبعضُها بانبساطة النفس ، وربما تعلَّقَ بعضها بأوراق تُيسِّرُ الارتحالَ أو تُعَسِّره .

إلا ان الصيف يظل ، في هذا كله ، يتخافق بالشواطئ والأمواه ، حقيقةً او خيالاً .

هذا العام ، فكّرتُ بأن أُمضيَ اسبوعين او ثلاثة على شاطئ ما . كان خليج العقبة أقرب ما ورد الى ذهني ، لكننا في عز الصيف ، والخليج على مبعدة ثلاثمائة وخمسين كيلومتراً من عمّان ، ثم أن الخليج بجباله البركانية ، وبحره الأحمر ، يجعل السباحة في الماء اصطلاءً على النار .

إنني اذهب الى العقبة شتاءً لأسبح .

حسناً ، إن كان البحر الأحمر للشتاء ، فالبحرُ المتوسطُ للصيف .

هكذا ذهبت الى دمشق ، آملاً في التوجه شمالاً الى الساحل السوري ، في طرطوس او اللاذقية ، حيث لي أصدقاء وأحبّاء ، من بينهم حيدر حيدر الروائي في طرطوس ، وعلي الجندي الشاعر في اللاذقية . وتشاء المصادفة أن اتلقى رسالة من « اتحاد الكتاب العرب » بدمشق ، تدعوني الى قضاء اسبوع في استراحتي الاتحاد باللاذقية ، على ان أدفع اجراً معلوماً يقلّ خمس مرّات عن اجر الفندق او الشاليه هناك .

وحدَّدتُ يوماً للإنطلاق الى هناك ، ممنِّياً النفس بما تاقت إليه ، من بحر وشجر وصيف رخيّ .

لكني أقرأ لصديق عزيز هو شوقي بغدادي ، عموداً في صحيفة دمشقيّة قضى على كل امنياتي في الإستراحة . إذ تحدّث عن المكان المقصود بكل ما يجعل امراً مثلي يتردد ألف مرّة قبل الذهاب الى هناك .

انتهت ، إذاً ، حكاية اللاذقية وبحرها ، وعدت الى عمّان خائباً عدت الى اوراقي وذكرياتي ، مكتفياً من الغنيمة بالإياب .

●

يقال : التمني رأس مال المفلس .

وقد يصحُّ القول : التغنّي رأس مال المفلس .

●

أعود ، إلى ذكرياتٍ متصلة بالبحر :

أيام كنت في عدن ، ظللت حريصاً على مشاهدة غروب الشمس . والحقُّ أن مشهد الغروب هناك مديدٌ ، جميلٌ . والشمس تظل ماثلةً على البحر ، متدرجة اللون ، حتى تغطس فجأة في البحر ، مثل برتقالة حمراء كبيرة ، تاركةً وراءها ، على المياه البعيدة ، حمرتها الذائبة .

لكني لم ار شروق الشمس في عدن .

وفي مساء ما ، اتفقت مع اصدقاء ، على المبيت ، جوار البحر ، قرب « الساحل الذهبي » ، لنشهد الشروق ، البهيّ افتراضاً .

أمضينا ليلتنا ، في أُنسٍ وسمرٍ ، حتى هدهدنا الليل البحري ، فأسلَمَنا الى النوم .

فجأة ، أحسستُ بنارٍ تحرق رأسي .

صحوتُ كالملسوع ، وإذا بالشمس في السَّمْت تماماً ، كأنها قفزت قفزة واحدة الى مستقرّها الرهيب ذاك ، بينما الساعة لاتزال تشير الى حوالي الخامسة صباحاً!

لا أمل في عدن بمشاهدة شروق الشمس .

على أنني اعتدتُ ، كل صباح مبكر ، أي قبل الخامسة صباحاً ، على

الإنطلاق الى اقرب شاطى ، أسبحُ وأتريّضُ ، وربما ابتعتُ أسماكاً طازجة او سلطعوناتٍ من صيادٍ عائدٍ للتوِّ...

●

الشاطئ ذو مفاجآت .

اخترتُ ، مرةً ، شاطئاً منعزلاً ، لايكاد يؤمُّهُ احدٌ ، ويقتضي بلوغه أن ترتقي جرفاً ، ثم تهبط ، شبه متدحرج .

على امتداد الشاطئ ، مصاطب صخرية من نحتِ الموج الغاضب ، فالمكان هنا مفتوحٌ على البحر الطليق ، وليس بأيّ حالٍ ، خليجاً متطامن الموج والريح .

اخترتُ مصطبةً تجوّفَ وسَطُها ، حتى غدت مثل حوض الاستحمام المنزلي...

كان الرذاذ يبلغني ، عنيفاً ، وأنا متمدد في الحوض العجيب ، أُسَرِّحُ النظر في السماء ، وأرقب زورق صيّادٍ يبتعد...

فجأة ، دهمتني موجةٌ جبّارةٌ .

وفي لحظةٍ ، وجدتني منقذفاً في محيط لا قرارة له .

كانت الأمواج العاتية تتقاذفني ، في حركة جذب ودفع .

الجذبُ يبعدني عن الأرض .

والدفعُ يرمي بي على صخور مسنّنة ، مكسوة بقواقع متراكمة ميتة .

أحاولُ أن أمسك بصخور الشاطئ ، لأنجو من مصيرٍ شبه محقق . القواقع المسنّنة تجرِّحُ يديّ ، وجسدي ، في محاولتي التشبث بها ، وبلوغ المصطبة التي بدتْ لي ، آنذاك ، عاليةً جداً .

أخيراً ، أفلحتُ في التملص من مخالب الموت غرقاً .

تمدَّدت على الرمل ، وجسمي يقطر دماً .

صيادٌ عجوزٌ مَرَّ بي ، غير مبالٍ ، مكتفياً بحكمته ، قائلاً :

البحر يأخذ ، البحر يعطي .

الشعر وأهلهُ

ما أشقّ الطريق إلى الشِّعر!

قبل أشهر تلقيت دعوة من «رابطة الخريجين الأستراليين العرب» ، لألتقي هناك عرباً ، وألقي شعراً . والحقُّ ان زيارتي كانت نافعةً ، في الإلتقاء ، وربما كانت ناجحةً في الإلقاء ايضاً ، أقول : ربما ، لأن الرأي هنا أدقُّ من أن يراه شخصٌ واحدٌ ، وإن كنتُ ، أنا ، صاحب الرأي .

تجوّلت في مدينة سيدني ، رأيت مرفأها ، ودار الأوبرا ، ومبنى البرلمان حيث تحدثت مع نوابٍ فيه من حزب العمال ، ومضيت حتى «الجبال الزرق» المذهلة بجمالها ، وألقيت محاضرة باللغة الانجليزية ، وللمرة الأولى ، في جامعة سيدني .

الخلاصةُ ، أنني اطلعتُ على المتاح في مثل هذه الزيارة .

الآن ، وأنا في غرفة مكتبي ، المطلّة على حديقة صغيرة من نباتات الصبّار ، أراجعُ حصيلتي الفعلية من أستراليا ، أعني الحصيلة التي يمكن ان تمسي ، في ليلٍ ما ، مادة للشعر ، وإذا بي لا أجدُ فيها إلا ما يجده طفلٌ ، أو من هو كالطفل : موشور ألوان المحيط الهادئ ، السلاحف والقرش في الأكواريوم ، حيوانَي الكوالا والكنغر ، الجبال الزرق ، ومشرباً صغيراً يؤمه صعاليك ، ونساء يابانيات ، يتبارزن في إحدى الحدائق ، صباحاً ، بسيوفٍ من اللدائن .

وماذا أضفتُ إلى تكويني ؟

أضفتُ محيطاً ، وقارةً ، وغابة مطرٍ .

شيء من هذا الإحساس غمرني ، وأنا ارى مضيق هرمز . قلت في نفسي : ها أنذا أحيط بمضائق بلاد العرب : قناة السويس ، باب المندب ، وأخيراً مضيق هرمز .

●

يروي هيرمان هسّه في « الشاعر الصيني » حكاية شاعرٍ شابٍّ ، متطلّعٍ إلى بلوغ القصيدة المثلى .

كان هان فوك آنذاك يعيش في مسقط رأسه ، قرب النهر الأصفر ، وكانت له خطيبة من أسرة معروفة ، وهو يستعد لتحديد موعد الزواج . إن هان فوك شاب جذابٌ في العشرين من عمره ، مؤهل للدخول في المجتمع الراقي ، ومعروفٌ عند كتّاب بلده بقصائده الممتازة .

في حفل ليليّ عند ضفة النهر الذي تضيئه القناديل ، كان الحضور شبّاناً وشابّاتٍ ، يلهون ويمرحون . لكن هان فوك عبر الى الضفة الأخرى ، واستند الى جذع شجرة ممتدٍّ تحت الماء ، وشرع يتأمل في الآلاف من نقط النور التي تطفو وتلتمع على مرآة النهر . فجأةً ، يتقدم اليه شيخٌ لم يكن رآه من قبل ، ويتلو قصيدةً هي من الجمال والكمال والإتقان بحيث أذهلتْ هان فوك .

يسأله الشابّ : من آنت ؟

يجيبه الشيخ : إن اردت أن تغدو شاعراً ، فتعال عندي . ستجد كوخي قرب منبع النهر العظيم ، في الجبال الواقعة في الشمال الغربي . إسمي سيِّدُ الكلمة الكاملة . إثر هذه الكلمات يختفي الشيخ في الظل الضيق للشجرة ، ليظل الشابّ مبهوتاً .

على أي حال ، وباختصار لابد منه ، يهجر الشابّ ماهو فيه ، من اطمئنانٍ ، وبيتٍ ، وعرس مقبلٍ ، ويمضي في رحلة طويلة ليجد الشيخ ،

هناك ، في كوخه عند منبع النهر ، جالساً على حصير قصب ، وهو يعزف الناي .

يظل هان فوك يتعلم الموسيقى والشعر والاصغاء الى الكون . وبعد سنوات يعود الى مسقط رأسه ، فجراً ، متسللاً ، كي ينظر الى حال القوم هناك ، إلا انه يشعر بالخيبة ، فيترك المكان ، عائداً إلى كوخ سيد الكلمة .

لايعلم هان فوك كم من أعوامٍ أمضى عند السيد ، قرب منبع النهر العظيم ، لكن إحساسه الدائم يظل إحساس العشية التي وصل فيها ، لأول مرة ، الى هذا المكان . في صباح ما ، استيقظ هان فوك ليجد أن الشيخ قد اختفى . يحمل الشاعر آلة عوده الصغير ، وينحدر عائداً الى مسقط رأسه ، ليجد الناس يحيّونه بالاحترام الذي يستحقه شيخٌ مثله ، وليجد امه وأباه وخطيبته ماتوا ، وأن آخرين غرباء يسكنون منازلهم .

يمضي الى الضفة الأخرى ، يعزف على عوده .

كان ثمت حفل . واستمع الشبّان والشابّات الى عزفٍ لم يعهدوا مثله ، البتة . هان فوك يحدّق في النهر ، حيث يطفو ضوء آلاف القناديل ، ولايرى اختلافاً بين الصور المنعكسة والصور الحقيقية ، وفي اعماقه لايرى أي اختلاف بين هذا العيد ، وبين ذلك الذي شهده في صباه ، حين استمع الى كلمات السيد المجهول .

●

الشعر يستغرق حياةً كاملة . ويحتاج الى اكثر من حياة .

●

إفكرُ بتلك القرية المختفية تحت نخيل ابي الخصيب ، القرية التي شهدتْ خطوتي المبتعدة الأولى . أما زالت القرية قائمة ؟ أما زال النخل يظللها بسعفه ، أم انه صار جذوعاً خاويةً في لون الرماد والدخان ؟ وهل يُقدَّر لي ،

مثل هان فوك ، أن ارى قريتي ، حتى لو وهنَ العظمُ مني ، واشتعل الرأس شيباً ؟

سأحمل قيثارتي معي ، بالتأكيد .

●

ليس في الشعر ما يُريح .

أعني : ليس في الشعر ما يريح الشاعر .

لكنه يحمل الى الناس ، تلمُّساً ، وأسئلةً ، ويحاول أن تكون عيونهم اكثر اتّساعاً ، وأناملهم ادقَّ ملمساً . وآذانُهم أرهف سمعا . هو ، بهذا المعنى ، يأتيهم ببهجة الإحساس والمعرفة ، وربما بالراحة المتأتية من هذه البهجة .

●

أحياناً ، يقولون لي : ألم تتعب ؟ ما الذي أنت واجدُهُ في عزلتك ، التي تكاد تكون منقطعةً الى الشعر وحده ؟

ليس من جواب لديّ .

إنها لطريقةُ حياةٍ ، زاويةُ نظرٍ الى الكون وأشيائه ، ورياضةُ روح . هاهي ذي نبتة الصبّار . خشنة . شائكة . عنيدة . قطعة صخر في هيئة نبات . تتحمل الصهد والزمهرير . يهبط عليها الغبار والرمل . تسقط عليها بضع قطرات من السماء في عام كامل . تعافها الفراشات ، ولاتقترب منها العصافير . والنحلُ ذاتهُ سيكون مرَّ العسل لو امتص شيئاً من نداوتها الشحيحة الغائرة تحت الشوك والجلد الخشن .

لكنّ نبتة الصبّار تصنع ، متمهلةً ، فعلها الخارق .

فجأة ، وفي اللاتصديق ، كأن المرء يشهد بدء الخليقة ، تندفع من بين الأشواك والخشونة ، زهرةٌ بوقيةٌ في رقّة الدانتيل ، وفي صفاء لونٍ لن يجده في زهرة اخرى .

الشمسُ لن تشرق ثانيةً على هذه الزهرة . لقد وهبت العالمَ جمالاً فريداً ، لأربع وعشرين ساعةً ، حسبُ . الزهرة تذوي ، بطيئةً ، لا مباغِتةً مثل ماتفتحت قبل يوم في ساعة غامضةٍ من الليل .

●

القصيدة ، بعد كتابتها ، لا أراها إلا وهي مطبوعة . نحن نظل مع ذكرى زهرة الصبّار ، مع ما خطّتْ من مسلكٍ في العصب ، وبهاءٍ في العينين .

القصيدة تظل ذكرى القصيدة .

والذاكرة تُراكمُ الذكريات . تنظّمُ المختزن ، وتحوّلُه نُسغاً . ولسوف يغتذي الشاعر هذا النسغَ . وستكون المرحلة الشعرية ، الى حين . الى أن تهلَّ إطلالاتٌ جديدةٌ ، تستدعي مختزَناً مختلفاً يكوّنُ ، بدوره ، نُسغاً جديداً يغتذيه الشاعر ، فتتكون مرحلة شعرية جديدة أيضاً .

●

الشاعر يكتب بعينه وأنامله ومسمعه .

وثمت ، آلة عود خفيّة ، صغيرة ، كالتي جاء بها الشاعر الصيني هان فوك من ذلك المنبع قرب النهر العظيم .

هذا العود الخفيّ ، يَهَبُ كل ماتراه العين ، وتلمسه الأنامل ، وتستقبله الآذان ، إيقاعه الخاص المتفرّد .

الشاعر في المنفى

الإمبراطور الروماني أغسطس ، نفى اوفيد ، شاعر «مَسْخِ الكائنات» الشهير ، الى أقصى نقطة من الإمبراطورية ، بين من كان الرومانيون يسمّونهم «برابرة» ، وكانت هذه النقطة ، كما يُرجَّح ، في شمالي رومانيا الحالية ، في قرية تدعى «توميس» .

وقد تضمَّنَ أمرُ النفي إبعادين : إبعاداً عن العاصمة روما التي كان اوفيد شاعرها ، وإبعاداً عن كنف اللغة اللاتينية التي كتب بها الشاعر ، إذ لم يكن اولئك البرابرة يعرفون اللاتينية إطلاقاً .

اوفيد (٤٣ق .م ـ ١٧م) قضى هناك ، في الأرض القصية . أمّا قبره ، فلم يُعثر عليه حتى الآن ، بالرغم من كل الجهود التي بُذلتْ . كان عهد الإمبراطور أغسطس فترة سلام مديدة ، حلّت بعد فترة حروب طويلة . وقد أتاحت فترة السلام هذه ، مجالاً لحركة فكرية وشعرية اتّسمت بالتجدد والنقد والصراحة ، لكن اوفيد ، كما يبدو ، اندفع اكثر من اللازم في هجائه ، فأغضب الإمبراطور ، وحلَّ به ماحلّ .

●

الآن ، يأتي ديفيد معلوف (وهو من أبٍ لبناني ، وأمٍ بريطانية) ليقدم قراءة عميقة لأوفيد في المنفى .

لكن ، عليّ ، قبل التقدم اكثر في الكتابة ، أن أشير الى انّ ديفيد معلوف هو شاعر استراليا المرموق ، وروائيُّها . قرأت أشتاتاً من شعره ، كما قرأت له روايتين هما : «لعبة طفل» و «خبز الآتي» ، إضافة الى روايته الشهيرة «حياة متخيَّلة» التي تتناول الجانب الذي لم يُضأ بعدُ ، من اوفيد ، اي حياته

في المنفى النائي ، بين البرابرة .

●

يقول معلوف في «مؤخرة» الرواية :

« نعرف القليل القليل عن حياة اوفيد ، وقد جعله غياب الوقائع هذا ، نافعاً باعتباره الشخصية المركزية لحكايتي ، وسمح لي بحرية الابتداع الطليق ، فما اردت ان اكتبه ليس رواية تاريخية ولا سيرةً ، بل قصةً تمد جذورها في الحدث الممكن .

الأمور التي نعرفها ، مصدرها الشاعر نفسه : مكان وتاريخ ميلاده ، موت اخيه الذي يكبره بعامٍ واحدٍ في ميعة الصبا ، والمنفى الشهير طبعاً ـ مع أننا لانملك تفسيراً لسببه . اوفيد ممثِّلٌ الى حد كبير ، ميّالٌ الى المبالغة ، بُغيةَ التأثير ، ولهذا فإن مايخبرنا به لايمكن اعتماده كثيراً . استخدمتُ قصيدته عن المنفى ، «تريتيا» في وصفي «توميس» ، واعتمدتُ على الكتاب الثالث من «فاستي» ، ودراسته عن الاعياد الرومانية الرئيسية ، في تفاصيل عيد «باريليا» . أما إشارتي الى القبور السيثية فهي من هيرودتس . أمّا اللقاء مع الطفل ، الذي يشكّل القسمَ الأكبر من هذا الكتاب ، فليس له أساس في الواقع» .

●

ماذا يفعل الشاعر في المنفى ؟

لقد سُلِّم اوفيد الى شيخ القرية ، المكلف بمراقبته ، و «ربما بالإجهاز عليّ ، حين يحلّ الوقت» كما يقول اوفيد .

لكنّ على الشاعر في المنفى ، أن يتوطّن . عليه أن يقيم علائق مع محيطه ، المشهد الطبيعي ـ البشر ـ اللغة ، وعليه أن يقيم توازناً نفسياً جديداً ، بينه وبين المحيط ، وإلا فقدَ إمكانَ الاستمرار ، سويّاً ، على وجه

الارض ، وسقطَ في الجنون ، او المرض المميت ، او الانتحار . أنت في غرفة صغيرة ، مائلة السقف ، في الطابق السابع من مبنى بلا مصعد ، في باريس . انت لاتعرف اللغة الفرنسية . والشجر الذي تلمحه من مربع الزجاج الصغير (النافذة ؟) في غرفتك ـ هذا الشجر لاتعرف له اسماً . إنه ليس النخل ، لا الدَّوم ، ولا السيسبان . هنا ، في منتَبذِك بالطابق السابع ، لن يزورك أحد ، رجلاً كان او امرأة . حتى الشمس لاتمرّ بك ، إلا عابرةً ، لمدة خمس دقائق ، تحيِّيك مسرعة من مربع الزجاج الصغير ، وتمضي لتضيء عالماً انت لستَ منه .

الأيام تمرّ . ومع مرورها يقلّ هبوطك من الطابق السابع ، الى الشارع ، والمقهى ، والمطعم الرخيص الذي قد تصادفُ فيه أحد أصدقائك او معارفك القدامى .

قد تقضي اسبوعاً كاملاً في المنتَبذ العالي ، محشوراً بين ارضية باردةٍ ، وسقفٍ مائلٍ تشعر ، تدريجاً ، بأنه يطبق عليك ، اكثر فأكثر ، حتى لتضيق أنفاسك في مايشبه الاختناق .

سوف تهمل حلاقة ذقنك . وتغدو ملابسك أسمالاً نتنه . غرفتك ذات الهواء المحصور تجعلك ساهماً . مدوَّخاً ، شبه نائم . ومذياع الترانسستور الصغير لم يعد يحمل إليك أخباراً ، او يُسمعك موسيقى من موجة الـ F.M . إنه صامتٌ مثلك . هامدٌ مثل حجر .

●

اوفيد ، في المنفى :

«في العراء ، ادأبُ على الصراخ ، وأُحدِّث نفسي ، لأنني ببساطةٍ ، أريدُ أن احتفظ بالكلمات في رأسي ، أو أن أخرجَها منه . أيامي في هذا المكان ، ولياليَّ ، رهيبةٌ ، يعجز عنها الوصف . النهارَ كله أشردُ في حلم ، معزولاً عن عالم البشر ، كأني من طينة اخرى . في الليل ، أكتشفُ وأنا

نائمٌ ، ما حجبه عني ضوء النهار البسيط : أن الجانب المظلم في كل شيء هنا ، وأكثر من ذلك ، المشهد نفسه حين تهبط عليه ظلال الليل ، هو صفحةٌ واسعة أعجزُ عن حلِّ لغتها ، وعن ترجمة رسالتها اليّ . وحلماً بعد حلم ، أغامرُ بعيداً ، وراء الحقول الحصيدة ، وعبر السهل الموحش الذي يتلوها ، في الأراضي العشبية ، خلف عالمنا . الريح تهبّ عليها ، فتجيش مثل البحر ، هسهسةً وأنيناً ، والهواء مليء بأجنحة الهوام . اركعُ على ركبتيّ ، وأشرع احفر الأرض بأظافري الطويلة . احياناً تأتي الذئاب ، وتنبش بمخالبها الأرض الى جانبي ، وهي تعوي . نحن نحفر معاً ، وهي لاتعيرني من انتباهها اكثر مما تعيره لشبح . لكني اعرفُ أني سأكتشف قبلها ما تبحث عنه ، مهما كان ، وإلا ضعتُ . هكذا أحفرُ ، اقوى ، وأسرع . وضوءُ القمر يسقط دبِقاً عليّ . انا عاجزٌ عن أن أسِرَّ لنفسي : هذا حلم .

أنا أعرفُ ما نبحث عنه . إنه قبر الشاعر اوفيد ـ ببليوس اوفيديوس ناسو ، رومانيٌّ من الفرسان ، شاعر .

في هذا المكان الموحش كله . لا أحد يعرف اين يثوي» .

●

لكن اوفيد ، يتعلم لغة البرابرة . وقبلها كان تعلَّم لغة العناكب من طول مراقبته أضأل الأشياء .

البذور والطيور ، صارت لها أسماء .

وقرّر ان يكتب قصيدة بلغة اولئك القوم الذي أُلقيَ بينهم هكذا . وفجأة ، ينبثق الطفل .

الطفل الذي عرفه وهو في الثالثة من عمره ، يعود إليه وهو في الخمسين من عمره ، في هذا الصقع النائي .

لقد تجسَّدَ الطفلُ ، في ولدِ ذئبٍ ، كان يعيش متوحشاً في غابة البتولا .

الطفلُ واوفيد ، يكوّنان كُلاً قادراً على المضيّ ، قدماً ، في الزمان والمكان .

ولسوف يجتازان نهر إستير ، ويدخلان عالم اللانهاية . يتغلغلان في الماء والسماء والتراب ، ليعيد اوفيد ارتباطه الأوثق بالأرض ، وحين يتمدد يشعر كأن جسده يمدُّ جذوراً تغور في الأرض ، وتشدّه إليها .

●

المنفى ، ولادةٌ طويلةٌ ، تعسُرُ قراءتها ، حتى في غرفة بباريس .

فتنة اللحظة الطائشة

بعد مجموعته «أفعال مضارعة» ، الصادرة عن دار ابن رشد ، في العام ١٩٨٦ ، بيروت ، يطلّ وليد خازندار بـ «غرف طائشة» ، مجموعته الثانية ، ومن بيروت أيضاً .

وقد كنت ذكرت في ماكتبته عن مجموعته الأولى :

«الضجيج حرفةٌ ، لها اهلٌ وساحة ، وأسواق . أما الصمت فما أهله بالكُثر . وليس للصمت من ساحة . ليس للصمت من أسواق ايضاً ، إذ لاباعةَ ولا شُراة . والشعر العربي ، شأن الشعر القديم في ارجاء العالم ، ولد في السوق والساحة . عكاظ ، والفورم الروماني ، وساحة القرية الإفريقية . ومع تراجع الإنشاد عن النص ، ثم انفصاله باعتباره فناً متميزاً ، أخذتْ مِنازعُ معينةٌ تؤثر في النص الشعري تأثيراً أعمق ، من هذه المنازع معالجة ما لم تُمكن معالجته في الساحة والسوق... وأعني هنا ، الاحتفاء بالصمت...» .

لقد جهد وليد خازندار طويلاً كي يبلغ هذا الإحتفاء بالصمت .

والآن ، في هذه المجموعة الجديدة . أي خطوةٍ تالية خطاها ؟

●

«غرفٌ طائشةٌ» عنوان يحمل التباسَه معه . العنوان يشي بالمألوف ، المتعارف عليه ، أي ان هذه الغرف هي منابتُ للطيش ، ومباءةٌ ، ودِمَنٌ .

لكننا ، إذ نتصفح القصائد ، واحدة بعد الأخرى ، لن نجد هذا المألوف ، المتعارف عليه . للغرف أجنحة . غرف مرتعشة . ثمت نبتٌ ، ومرمرٌ ، وظلالٌ مفاجئة ، وعبورٌ خفيٌّ لأشخاص وذكريات . هذه الغرف مؤقتة الحالات ، مسافرةٌ بذاتها ، مندفعةٌ اندفاعاتها المرهفةَ ، في هذه

الوجهة او تلك . إنها مثل سهام بوذا السبعة ، تنطلقُ بقوانينها ، في فضاءٍ مشحون ، وهي إذ تُصوَّبُ ، لا تصيب . طائشةٌ ، إذاً ، الغرفُ ، مثل مقاصيرِ فضاءٍ فقدتْ مداراتها ، فأضحت كل لحظة من لحظاتها ذات فتنة وخطر .

●

كنت أشرتُ الى الإحتفاء بالصمت في مجموعة «افعال مضارعة» ، والى التنويع على الصمت ، تنويعاً يستغرق المجموعة ، واعتبرتُ ما تحقَّق سجيةً جديرة بالاعتزاز . أعتقدُ ان وليد خازندار الذي يشقُّ على نفسه كثيراً ، ويواصل معالجاته ومحاولاته في الصعوبة ، والمقايسة ، قد خطا خطوته التالية ، فعلاً ، على مستويين : اولهما يتعلق باللغة ، وثانيهما يتعلق بتحريك عناصر اللعبة .

فلا اللغة مأمونةُ .

ولا الصمت مطبقٌ .

●

لنقرأ هذه القصيدة :

ذهابٌ ابيض

الياسمينة الأخيرة في شجيرة الياسمين
تكاد
من صباحاتٍ كثيرة
تسقط .
هي في انتظار رعشتها
في احتمال اكتمالها
في ذهابها الأبيض .

لو أنها توشكُ
في لحظة ، فراشةً
لو أنها تطير
العوسجُ حابسٌ انفاسه في الحديقةِ
وثمة صنجٌ يُدقُ
عالياً .

« غرف طائشة ـ ص٥٥ »

عندما أقول إن اللغة غير مأمونة ، أعني ان يتوقّع المرء « مداعبةً ما » للُغة المستعملة ، ضمن سياقاتها التعبيرية ، او حتى النحوية .

في هذه القصيدة ملحوظتان تندرجان في هذا الأمر ، الأولى تتمثل في الفاصل الطويل بين خبر « تكاد » ، وفعل المقاربة . قد لايبدو الفاصل صارخاً ، نحوياً ، لكنه ناتيء اسلوبيّاً ، وهو ضروريّ ، لمنح ترقُّبِ سقوط الياسمينة ، تاريخاً خاصّاً ، في الذات والزمن . ذلك لأن فعل السقوط نفسه سوف يكون عاديّاً جداً ، لولا العمرُ المضاف بـ« من صباحات كثيرة » .

الملحوظة الثانية تتعلق بخبر « توشك » ايضاً ، إنه هنا « فراشة » ، اسمٌ جامدٌ مفردٌ ، لا جملة كما هي القاعدة النحوية ، او شبه جملة احياناً .

أهي مخالفةٌ للنحو ، ام هي نحوٌ مختلف ؟

إن قصائد عدّةً في المجموعة لها علاقةٌ بهذا الاجتهاد في التعبير والنحو .

كنت أشرتُ إلى الخطوة التالية التي خطاها وليد خازندار في « غرف طائشة » ، وهي الانتقال من تأمين الصمت ، الى تحريك الصمت ، تحريك عناصره ، الواحد بعد الآخر ، أو الواحد مع الآخر .

الياسمينة تسقط ولا تسقط . هي في انتظار رعشتها ، انتظار اكتمالها البهيّ ، وهو الموت ، وهو الطيران كفراشة ، وهو الحياة في هيأة اخرى . العوسج يحبس انفاسه . نحن في اللحظة الحرجة ، في الفتنة التي سرعان ما

نفتقدها . وبالضبط ، في هذه اللحظة المقدسة ، يدقّ الصنج عالياً . تهليلةٌ او نهاية سمفونية . صنجٌ تملأ دوائره الصوتية ، الكون كله .

●

ولنتَمَلَّ هذه القصيدة :

مسكٌ كثير

الساعةُ ، في اللوحة الزيتِ ، سابعةٌ وربعٌ ، منذ عام .
والتفاحتان حمراوان
والصحنُ مستديرٌ ، غامقٌ
وخلف الطاولةِ الستارةُ
بعد المقعدينِ
هادِئةٌ وزرقاء .
تفتَّتَ مسكٌ كثيرٌ طيلة عامٍ
وزنبقاتٌ كثيرة نسيتْ اوراقها
على الأريكة
تحت اللوحة الزيتِ
حيث الساعة ، دائماً ، سابعة وربعٌ
والستارة هائمةٌ
وزرقاء .

« غرف طائشة ـ ص ١٠٣ »

في هذا النص ، تبرز بشكلٍ دقيق ، مسألة تحريك الصمت . الصمتُ للوهلة الأولى مُطبقٌ تماماً ، حتى ان عناصر منه ، ليست ملموسةً في واقعها ، إنما هي تفاصيل في لوحة زيت : الساعة . التفاحتان . الصحن .

لكنّ الشاعر حرّك حتى هذه التفاصيل ليدخلها في اللعبة ، بحيث امتزج المتصوَّرُ والشيءُ ، ليكونا مادّة اللعب .

الصمتُ مطبَقٌ تماماً . الستارة ذاتها هادئة... لكنْ لماذا جاءت الستارة هنا ؟ لماذا حرَّكتْ زرقتها في منتصف القصيدة تماماً ؟ بعد زرقة الستارة ، ينهمر كلُّ ما يتحرك ، ويحرِّك : المسك الفتيت ، واوراق الزنابق المنسية ، على الأريكة... حيث اللحظاتُ تستعادُ ، فاتنةً ، طائشةً ، غير مذكورة إطلاقاً ، لكنها ماثلةٌ ، مثل دفتر يوميات .

●

أنا في هذه الأيام ، قليل الإهتمام بالشعر الذي يُنشر .
لكنّ وليد خازندار يظل استثناءً .

شعراء الشِّعاب

« قطراتُ المياه
تركتْ أمهاتِها
في الينابيع
واغتربتْ في الشّعاب » .

سماء عيسى

●

للشعر في عُمان ، تاريخٌ مباغِتٌ ،

أقولُ هذا لأن القصيدة الجديدة وُلدت في هذه البلاد ، او انتسبتْ إليها ، خارج المسار الطبيعي لتصور نوعٍ أدبيّ ما . اي ان القصيدة الجديدة انبثقت من الرماد كالعنقاء ، ولم تكن تحولاً او مجموعة تحوُّلاتٍ لأصول مؤسسة في المكان . ولو عدنا إلى الأصول غير البعيدة ، لما وجدنا فيها إمكانَ تطوُّرٍ لاحقٍ ، وربما كان من افضلها ، على سبيل المثال ، قصيدة سعيد بن احمد الإمام ، ومنها :

يا من هواهُ أعــــــزّهُ وأذلّني	كيف السبيلُ الى وصالك ، دُلّني
وتركتني حيرانَ صبّاً هائماً	أرعى النجوم وأنت في نومٍ هني
عاهدتني ألاّ تميل عن الهوى	وحلفتَ لي ياغــصنُ ألاّ تنثني
هبَّ النسيم ومالَ غصنُ مثله	اين الزمانُ ، واين ما عاهدتني ؟
جادَ الزمانُ وأنتَ ما واصلتني	يا باخلاً بالوصل انت قتلتني
واصلتني حتى ملكتَ حُشاشتي	ورجعتَ من بعد الوصال تركتني

●

كيف جاءت هذه الكتيبة ، في الفُجاءة العجيبة ؟

سيف الرحبي ، سماء عيسى ، عبد الله الريامي ، محمد الحارثي ، ناصر العلوي ، زاهر الغافري ، عبد الله حبيب ، لتشكل مركزاً شعرياً بالفعل في هذه البقعة من ارض العرب ، أعني عُمان ؟

ثمت ملحوظات ، ينبغي إيرادها ، في سياق هذا السؤال ، منها أن هؤلاء الشعراء لايزالون شبّاناً ، وفي أعمار متقاربة الى حد كبير ، ومنها ، انهم جميعاً ، باستثناء سماء عيسى ، تكوّنوا خارج بلادهم : سيف الرحبي ذو الرحلة الطويلة لم يستقر في مسقط إلا مؤخراً ، عبد الله الريامي ومحمد الحارثي في المملكة المغربية ، ناصر العلوي طوّفَ في الآفاق من دمشق الى الهند ، ولم يمض وقتٌ طويلٌ على استقراره في مسقط ، زاهر الغافري تطاولت رحلته من بغداد والمغرب حتى بلغت الولايات المتحدة الاميركية التي يشعر إزاءها بحنين غامرٍ لاتستطيع القاهرةُ ذاتها أن تخفف منه ، عبد الله حبيب بدأت رحلته في الإمارات ليبلغ الولايات المتحدة الاميركية ، شغوفاً بالشعر والسينما والفلسفة .

شعراء عُمان نشروا أعمالهم ، خارج بلدهم ، أولاً .

غير أن سماء عيسى حالة مختلفة ، فدواوينه الصغيرة ، تبدو مثل الكراسات المنزلية ، لا دار نشر ، ولا تاريخ طبع احياناً . إنه يعمل بهدوء ، كأنه لايريد ان يعرفه احد ، أو يقرأه قارىء خارج دائرة أليفةٍ .

●

مرةً كنت في مراكش . حدث ذلك قبل سنوات . وفي ساحة مراكش الشهيرة ، « جمعة الفنا » ، التقيت بعبد الله الريامي ، ومحمد الحارثي . كانا يقيمان في نُزلٍ يطلُّ على الساحة . اصطحباني الى غرفتهما . زاهر الغافري لم يكن في مراكش ، آنذاك ، بل في سفرة الى مدينة مغربية اخرى .

قبلهم كنت عرفت سيف الرحبي ، في أيامه الدمشقية ، وقرأت لناصر

العلوي شعراً ، ولعبد الله حبيب ، ذلك السيناريو الشهير لفيلمه القصير عن بودلير . لم اكن اطلعتُ على شعره ، آنذاك ، شعره الجميل :

« رجل وامرأة
اقتعدا زاويتين في حانة المحطة
خلع كلٌ منهما معطفه المبلل بالانتظار
احتسيا قليلاً من المخاوف
وتلصصا منفردين على عري الوقت ، على الحائط
كذلك تبادلا ابتسامة المساء
ونظراتٍ قصيرة اثناء قراءة صحيفة اليوم
امرأة ورجل
كيف يتّسع لهما الكلام
حين يطلق القطار صيحته ؟ »

●

هذا المركز الشعري العُمانيّ ، مركز قطيعة كاملة ، ليس فقط مع موروث عُمان الشعري ، وإنما مع مراحل معينة من تطور القصيدة العربية الحديثة ، حتى سماء عيسى وناصر العلوي اللذان يبدوان اكثر وقاراً لايخرجان ، في التصنيف الأخير ، عن هذه القطيعة .

●

سيف الرحبي وزاهر الغافري (الاثنان من بلدة « سرور » ذات النخل الكثيف) ، وعبد الله الريامي المنتسب الى الأسطورة الموغلة ، يحاولون الأقتراب ، لكنّ غرائبية نصوصهم تضعهم على الدوام ، في ملكوت الإغتراب .

مجموعة محمد الحارثي الأخيرة « كل ليلة وضحاها » الصادرة العام الفائت عن دار الجمل بألمانيا ، قد تكون اكثر ،محاولات الاقتراب طموحاً في تحقيق

التماسِ ترابِ الوطن وتلمُّسه . إن فيها اسماكاً وأبراجاً وصيادين ، وجوازَ إمامةٍ ، وعمّالاً ، ومشاهد بحريةً ، وحميراً . لكن هذا كله ، ملْكٌ للماضي :

« تلمع البروج العالية ـ كمن عمَّر طويلاً ـ في رفة عصفور ـ اضرم النار في جناحيه ـ تتلو بعد أن أعيتها الحيلة ـ بياض الصلوات المقدد في الجباه ـ والجرار ـ ترفو قمم النخيل ـ فحلاً فحلاً ـ وسلالةً سلالةً ـ بأصابع الغيوم المثلومة بالجصّ ـ والحصى الناتئ في المخيلة ـ جرحاً ـ ينزف دم الأسلاف ـ في بستان الماضي » .

ـ قصيدة « اصابع الغيم » ـ

ولسوف يجد محمد الحارثي كرسيه الأكثر ملاءمة في « حانة يونانية جدا » و« قناديل إشبيلية » و« قبّة الصباح » .

●

شعراء هذه الكوكبة ، التقيتهم جميعاً ، في زورتي هذه لمسقط ، كأننا على موعدٍ ، بالفعل ، بالرغم من ارتباك المقام ، ووسواس الرحيل . عبد الله الريامي فقط ، كان غائباً ، في مدينته المغربية ، مرّاكش الحمراء .

●

الآن يأتي السؤال : إن كان هؤلاء الشعراء ، حقّقوا ، بجهدهم واغترابهم ، القطيعة المرجوّة الجميلة ، فهل حققوا صلةً بالقاريء في البلد ذاته ؟

الجواب سيظل صعباً ، فهو يدخل في طبيعة تلقّي العمل الفني ، سواء كان هذا البلد ، عُمان ، او سوى عُمان .

لكني ، في الأمسية الثانية ، تحديداً ، التي أقامها النادي الثقافي ، أحسستُ بأن جوّاً من استقبال النص الصعب ، يولد ، مترددا ، خفياً ، لكنه يولد ، على اي حال .

إن جهود هذه الكوكبة لم تذهب سدىً .

پول ايلوار في الضاحية

قبل ثلاث سنوات ، آنَ كنت مقيماً بإحدى ضواحي باريس (منطقة اوبرفيلييه تحديداً) ، هاتفني شاعرٌ فرنسيٌ صديقٌ ، يقيم في الضاحية ذاتها ، وسألني إن كنت أودّ المشاركة في إحياء ذكرى الشاعر پول ايلور . أجبته : «بالتأكيد . إن لإلوار عليّ حقاً» . وأين ؟ أجابني : «في مقبرة بير لاشيز . سيكون التجمُّع هناك . سنضع باقة زهور حمراء على ضريحه ، وستُلقى كلمات» . الموعد : في الساعة التاسعة ونصف ، بعد ثلاثة أيام . حسناً . صباح ذلك اليوم ، فرشت امامي الخارطة الكبيرة لخطوط المترو الباريسية ، ودرستُ جيداً طريقي ، حفظت المحطات غيباً ، ثم انطلقت إلى مقبرة بير لاشيز ، حيث جدار الكومونة الشهير ، وقبور فرنسيين من مثل لويس آراغون ، وايف مونتان ، وصاحبنا پول ايلوار .

كان الوقت خريفاً ، والورق ينهمر كثيفاً .

جلست على مصطبة انتظر . جاء الشاعر الصديق . جاء الشاعر الشيخ دوبزنسكي . جاء مصوِّرٌ من صحيفة لومانيتيه ديمانش . صديقي الشاعر يحمل باقة زهور حمراء . ستّ عيونٍ تنظر الى باب المقبرة . وكامرة المصور تنتظر بعينها الوحيدة .

مضت ساعتان ، ولم يأت احد . قال الصديق الشاعر : ربع مليون فرنسي ساروا في جنازة پول ايلوار . أمّا اليوم فنحن أربعة فقط!

●

هذا العام ١٩٩٥ ، وفي اواسط شهره الأخير ، ذهبت الى باريس ، للمشاركة في إحياء الذكرى المائة لميلاد ايلوار .

في تونس ، ومنذ اشهر ، كان الشاعر برنار نويل دعاني الى هذه المشاركة . وحين بلغت مطار شارل ديغول في الثاني عشر من كانون اول (ديسمبر) كان إضراب العمال في ذروته . وكان من المحتمل ألا استطيع الوصول الى فندق « كامبانيل » بضاحية « سان دُني » ، لولا شابٌّ كان ينتظر مقدمي ، وقد ركّنَ سيارته الخاصة في مرآب المطار . هذه الضاحية قريبة الى نفسي ، لأسباب عدّة ، منها أنني كنت اقيم غير بعيد عنها ، في سنواتي الباريسية ، ومنها أن پول ايلوار نفسه ، وُلد فيها . إنه ابنُ « سان دُني » بامتياز ، ولهذا كان من المعالم البارزة لإحياء ذكراه افتتاح متحف خاصٍ به ، بآثاره ، بمخطوطاته وتخطيطاته وكتبه ، التي تمتد من فترته السوريالية ، حتى اواخر حياته . والواقع أن متحف إيلوار يؤرِّخ ، لا للشاعر حسبُ ، وانما لمجمل الحركة الفنية والشعرية الفرنسية في مرحلة تعتبر من اهم مراحل هذه الحركة حيويةً وجدلاً ، وتأثيراً في لاحقِ الشعر الفرنسي بخاصة .

●

POUR SE PRENDRE AU PIEGE

كي تقع في الفخّ

إنه مطعمٌ كالمطاعم الأخرى . أينبغي الاعتقادُ بأني لا أشبهُ أحداً ؟ امرأة سامقةٌ إلى جانبي تخفق البيضَ بأصابعها . مسافرٌ يضعُ ملابسه على طاولة ، ويواجهني . إنه مخطيءٌ فأنا لا أعرفُ أي لُغْزٍ : اللغزُ لم أبحث عنه البتةَ ، ولم أجده . إنه مخطئٌ في إصراره . الزوبعة التي تنبثق في لحظات من الضباب تجعلني أستديرُ بعينيَّ وكتفيَّ . الفضاءُ ، إذاً ، أبوابٌ ونوافذٌ . المسافر يعلنُ لي أنني لم أعد المرءَ نفسه . لم أعد المرءَ نفسه ؟ أكنسُ نثيرَ كلَّ عجائبي . المرأة السامقةُ هي التي قالت لي إن هذا النثير نثيرُ عجائبَ . أرمي بالنثير إلى الجداول العتيقة الملأى بالطيور .

البحرُ الهادئُ هو فيها مثل السماء في النور . والألوان أيضاً ، إنْ كان عليَّ

ذِكْرُ الألوان ، لم اعد أراها .

حَدِّثْني عن الأشكال ، فأنا متلهّف إلى القلق .

أيتها المرأةُ السامقةُ ، حدِّثيني عن الأشكال ، وإلاّ غفوتُ ، وعشتُ الحياة العظمى . يداي متشابكتان في الرأس ، والرأسُ في الفم ، في الفم المغلق تماماً ، إنه الكلام الداخلي .

بول ايلوار Paul Eluard

ترجمة : سعدي يوسف

هذه القصيدة ، وقصيدة «بار الأنتيل» كانتا إسهامتيَّ في الاحتفاء . ألقيت الإثنتين باللغة العربية ، بينما كان النصُّ الفرنسيّ يُعرض على شاشة كبيرة ، كي يتمكن الحضور من المتابعة ، مختصرين الوقت الذي تستغرقه الترجمة في الأحوال الاعتيادية ، وأعتقد ان الطريقة كانت ملائمة جداً ، وعمليةً .

الشعراء المشاركون في إحياء الذكرى بلغوا حوالي المائة والستين ، من أرجاء العالم المختلفة . أمّا من العالم الغربي ، فكان هناك محمد بنيس وشوقي عبد الأمير ، المقيمان في اوروبا ، وأنا القادم من ارض العرب ، وفضيلة الشابي من تونس ، إضافةً إلى شاعر شابٍ من الطوارق يكتب باللغة الفرنسية ، ويرتل بالطارقية القديمة .

●

من المنجزات الملموسة لذكرى ايلوار المئوية إصدار كتاب ضخم ، بالقطع الكبير ، يحمل عنوان : «ماهو الشعر ؟» ، تحدّثَ فيه اكثر من مائة شاعر عمّا يعنيه الشعر لديهم ، وبين هؤلاءأ المائة اسماء شعرية لامعة مثل ديموستين اغرافيوتيس (اليونان) ، دوبزنسكي وكييفيك (فرنسا) ، آلن جنزبرغ (الولايات المتحدة) ، ماريا افاكوموفا (روسيا) ، وكان نصيب الشعر

العربي وافراً في هذا الكتاب : احمد عبد المعطي حجازي ، صلاح ستيتيه ، فضيلة الشابي ، ادونيس ، شوقي عبد الأمير ، كاظم جهاد ، اندريه شديد ، محمد بنيس ، سعدي يوسف .

إيلوار : «أسميكِ مَرئيّة»

مساء الخامس عشر من كانون اول (ديسمبر) كان مساءً مشهوداً .

أقيمت الأمسية في مبنى أثريّ ، يبلغه المرء بعد ان يقطع «طريق جوقة الشرف» ، ليدخل في قاعة مخصصة أساساً للأنشطة الصوتية .

كان كل شيء مهيّأً بعناية .

وتوالى الشعراء ، واحداً بعد الآخر ، حتى الساعة الثالثة صباحاً . كانت أمسيةً للشعر غير منقطعة ، كأنها تشير الى ان إيلوار مستمرٌّ ، إلى أن الشعر مستمر ، بالرغم ممّا اعترى العالم ، عالم القِيم ، من اهتزاز ، وبالرغم من الارتباك الذي سبّبه الإضراب ، في انتقال الناس .

●

إن احتفاءً كهذا ، لابد ان يستدعي المقارنة ، والمقارنة القريبة .

قبل مناسبة إيلوار بأيام ، تلقيت بالهاتف والفاكس دعوةً كريمة للمشاركة في مهرجان المعتمد بن عبّاد بمدينة مراكش .

لم يكن بين الدعوة وابتداء المهرجان سوى أيّام .

ماذا كنت سأفعل في مراكش ؟

لا احد قال لي . ماذا احمل معي الى هناك ؟ لا احد قال لي . كيف اصلُ ؟ لا احد قال لي . صيغة الدعوة تتضمن محاور قد يستغرق الإسهام في أحدها شهراً .

وثمت إشكالاتٌ تتصل بالتأشيرة ، وتذكرة السفر .

انه المهرجان . والمهرجان عيد . هل يكون الحضور هو المعنى ، حسبُ ؟

لم أذهب الى مرّاكش .

كنت سأزور ، ثانية ، ضريح المعتمد بن عبّاد ، ولن اكون قادراً على فعل امرٍ آخر .

والمثل يقول : خيرُها بغيرها...

أمّا في منوية إيلوار ، فلا غير .

قيثارة ايلول الشمالية

في ١٩٩٨ ، حين تكون استكهولم ، عاصمةً ثقافيةً لأوروبا ، سيكون للسويديين مايفخرون به ، ويفاخرون . ففي الأساس هناك قائمة رفيعة من مبدعيهم : اوغست سترندبيري الذي بلغت أعماله الكاملة خمسة وخمسين مجلداً ، سلمى لاجرلوف الحائزة على جائزة نوبل ، جونار اكيلف الشاعر الهيّام بالشرق ، انجمار بيرغمان المخرج السينمائي العبقري... ولن اطيل القائمة ، مادمت أريد الحديث عن شاعرة سويدية لم تعش على هذه البسيطة سوى واحدٍ وثلاثين عاماً .

إنها إديث سودرغران Edith Södergran (1892-1923)

●

اشتياقُ البرق

أنا نسرٌ
هاهو ذا اعترافي .
لستُ شاعرةً ،
ولا أي شيء آخر .
أنا ازدري كل شيء آخر .
ليس لي إلا ان اندفع في تحليق النسر .
ماذا يحدث في تحليق النسر ؟
الأمرُ نفسه دوماً ، الأبديّ .
برقٌ يخطف في لهفةٍ غير منتهية
مفعماً بحبٍ سرّي كما لو ان عالماً جديداً يولد . (إديث سودرغران)

●

يوم رحلت الشاعرة ، وهي في الحادية والثلاثين من عمرها ، اعتُبرت مخبولةً ، ارستقراطيةً مصابةً بجنون العظمة . هكذا رآها معاصروها الفنلنديون ، أمّا الآن فالفنلنديون أنفسهم يعتبرونها شاعرة فنلندا العظيمة ، بالرغم من ان قصائدها كتبت بالألمانية والسويدية (بين يناير ١٩٠٧ وصيف ١٩٠٩ ، حين كانت بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة من عمرها ، كتبت ٢٢٥ قصيدة ، منها عشرون بالسويدية ، وخمس بالفرنسية ، وواحدة بالروسية ، أما معظم القصائد الباقية فكان باللغة الألمانية) .

كيف حدث هذا ؟

وكيف يعتبرها السويديون شاعرةً سويدية ؟ « أميرةً فارسية » ، كما عبّر جونار اكيلف ؟

عاشت إديث سودرغران اغلب حياتها القصيرة في فنلندا المتأثرة بالسويد من الغرب ، وبروسيا من الشرق . لقد حكم السويديون فنلندا حتى العام ١٨٠٨ واستوطنوا ساحلها الغربي . هكذا ثبّتتْ أقليةً ناطقة باللغة السويدية اقدامها في فنلندا ، وكان ابناء هذه الأقلية السويدية فلاحين وصيادين ، وصنّاعاً ايضاً وإداريين . أبوها ، ماتس سودرغران . وأمها ، هيلينا هولمروس ، سويديّا الأصل .

قصائد مرحلة النضج كتبتها إديث باللغة السويدية .

●

أشجار طفولتي

أشجار طفولتي تنتصب سامقةً في العشب
وتهزّ رؤوسها : ماذا جرى لك ؟
صفوفٌ من الأعمدة تقف مثل تأبينات :
لستِ جديرة بأن تسيري بيننا!
أنت طفلة ، وعليك أن تستطيعي فعل اي شيء ،

فلمَ انتِ مكبلة بأغلال الداء ؟
لقد صرتِ كائناً بشرياً ، غريباً مَقيتاً .
حين كنتِ طفلة كنتِ تتحدثين طويلاً ، معنا ،
كانت نظرتك حكيمة .
الآن ، تريد أن نخبرك سرَّ حياتكِ .
مفتاح الأسرار كلها هو في عشب فسحة العلّيق .
سندقّ على جبينك ، ايتها النائمة ،
سنوقظك ، ايتها الميتة ، من رقادك .

حزيران ١٩٢٢

●

كانت حياة إديث سودرغران بالغة الصعوبة . ومنذ إصابتها بداء السلّ ، وهي في السادسة عشرة ، صارت هذه الحياة صراعاً ضد المرض ، صراعاً من أجل الشعر (باللغة السويدية الآن) ، وإقامةً متنقلة في مصحّات فنلندا وسويسرا . أما اعوامها الأخيرة فكانت في قرية ريفولا ، ببرزخ كاريليا ، تماماً عند الطرف الفنلندي من الحدود الفنلندية الروسية . كانت إديث في وضع بائسٍ ، وعند قيام الثورة الروسية في ١٩١٧ كانت هذه القرية تتبادلها أيدي الحمر والبيض ، ممّا ادى بوضع الشاعرة الى التردي اكثر فأكثر .

في هذه الفترة ، دعتها ناقدةٌ صديقة هي هاغار اولسون الى زيارتها في هلسنكي ، فكتبت اليها رسالة تقول فيها : « يا فتاتي الفاتنة! لا استطيع المجيء . ارقُّ ، سلٌّ ، كيسٌ فارغ (نحن نعيش على بيع محتويات بيتنا وأثاثه) » .

●

مجموعتها « قيثارة ايلول » اثارت ضجة واسعة ، وخلافاً شديداً بين النقاد ومتتبعي الشعر . ويبدو أن إديث سودرغران أحست ، مسبقاً ، بالعاصفة التي ستزمجر حول مجموعتها ، فكتبت مقدمةً توضح فيها طريقتها ومسعاها . ومما جاء في المقدمة :

« لا أحد ينكر ان ما اكتبه هو شعر ، لكني لا أصرُّ على ان ما اكتبه منظومٌ . لقد حاولت أن آتي بقصائد معينةٍ ، عنيدة ، ذات وزنٍ واحد ، فاكتشفت اني امتلك قوة الكلمة والصورة ، فقط في ظروف الحرية الكاملة ، أي على حساب الوزن . ينبغي أن ينظر الى قصائدي باعتبارها تخطيطات سائبة بالقلم . أما في ما يتصل بالمضمون ، فأنا اترك لغريزتي ان تبني ما يتوقعه ذهني . إن ثقتي بالنفس تعتمد على حقيقة أنني اكتشفت أبعادي . ولن اكون ، أنا ، إن جعلتُ نفسي أقلّ مما انا » .

عن قصائد « قيثارة ايلول » الإحدى والثلاثين ، قال أحد النقاد إنها « احدى وثلاثون حبّة ضحك » ، وعارض قصيدة « الثور » بقصيدة سمّاها « البقرة »!

الثور

اين هو الثور ؟
صفتي خرقة حمراء .
لست أرى عينين محتقنتين دماً
لست أسمع الأنفاس ، اللاهثة ، النارية ،
هل الحلبة لاتهتز تحت الحوافر الغاضبة ؟
لا .
ليس للثور قرنان
إنه يقف في المعلف
ويلوك ، حروناً ، تبنه الخشن .
الخرقة الأشدّ احمراراً تخفق ، بلا عقاب ، في الريح .

●

يُقارَن الفعل الشعري لإديث سودرغران ، في شعر البلدان الاسكندنافية ، بتأثير رامبو في الشعر الفرنسي ، والأوربي بعامة .

لقد عاصرت سودرغران حركة تغيير عميقة (الشعر الروسي بخاصة) ، وكان لإسكندر بلوك ، ومايا كوفسكي ، وسيفيريانين على الخصوص ، وقعٌ واضحٌ عليها .

في الفكر ، ظل نيتشه يدفعها الى المخالفة ، وحيوية الروح ، وظل يلازمها هكذا ، حتى لقد رثته بقصيدة .

لكن نيتشه غادرها ، في أيامها الأخيرة .

وبدلاً من : « هكذا تكلم زرادشت » ، تناولت إديث « العهد الجديد » .

●

كانت تعيش وحيدة مع امها ، عليلة في منزل خشبي ، بقريتها الحدودية . وأحياناً كانت ترى بروق المدافع في سماء الليل .

رحلت في ١٩٢٣ .

بينما كانت صديقتها هاغار اولسون في الجنوب الفرنسي .

أميرة التتر

أنّا احمد ـ أنّا اخماتوفا

كان اسمها الحقيقي : أنّا اندرييفنا غورنكو .

لكنها اختارت أن يكون لقبُ جدّتها ، الأميرة التترية ، اسمها الذي اشتهرت به : أنّا اخماتوفا .

أعتقدُ أن اسمها الأكثر اصالة هو : أنّا احمد . ذلك لأن الروس ينطقون الحاء خاءً ، والدال تاءً في احوال مماثلة ، أمّا ما لحق كلمة احمد من زيادة في آخرها ، فمتّصل بقواعد النسبة في اللغة الروسية .

●

هذه الشاعرة ، أنّا احمد ، أنا اخماتوفا (١٨٨٩-١٩٦٦) ، ظلت منذ مجموعتها الشعرية الأولى «المساء» الصادرة في العام ١٩١٢ ، وحتى رحيلها قبل ثلاثين عاماً ، الصوت الخفيض ، العميق ، المستمر ، في الموجة الكبرى لتحديث الشعر الروسيّ ، هذه الموجة المتصلة قرارتُها باسكندر بوشكين ، والمعانقُ رذاذُها المدرسة المستقبلية الأوروبية .

وفي الرحلة الإبداعية المديدة لأنّا احمد ، خُلعت عليها ألقابٌ وصفاتٌ غاية في التناقض ، فهي السيدة العظيمة ، والملكة ، وسافو الروسية ، وهي أيضاً ، بتعبير جدانوف ، المرتدّة ، الرجعية ، والسيدة البورجوازية ذات الرأس الحائر بين الفراش والكنيسة .

إنها المطرودة من اتحاد الكتّاب في العام ١٩٤٦ ، والمتولية رئاسته في العام ١٩٦٤ .

وهي صديقة أهل الشعر ذوي المصائر العجيبة : ماندلستام ، بلوك ، باسترناك ، تسفيتاييفا .

وهي حاملة الدكتوراه الفخرية من جامعة اوكسفورد .

وموظفة المكتبة بالمعهد الزراعي في وطنها .

إنها أميرة التتر...

●

المجد الذي نالته أنّا احمد ، لايوازيه إلا الشقاء الذي تعرَّضت له . كانت تحتفظ بقطعة نقدية قدَّمتها إليها ، صدقةً ، إمرأة عجوزٌ في الطريق . لقد حسبتْها متسوِّلة .

حدث هذا ، وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها ، أيامَ كانت في قاع العوز والحصار . ويقال إن دستوييفسكي أيضاً كان يحتفظ بقطعة كوبك قدَّمتها إليه امرأةٌ في الشارع ، بعد أن قالت لها ابنتها التي كانت بصحبتها : قدِّمي كوبكاً لهذا التعيس!

●

قصيدة

الباب موارب
والزيزفون متضوّع الشذى
قفّاز وسوط
منسيّان على الطاولة .

الدائرة الصفراء للمصباح...
أُنصتُ الى الضجيج .
لماذا رحلتَ ؟
انا لا أفهم...

غداً ، سيكون الصباح
بهيجاً صافياً .
هذه الحياة جميلة
فاهدأْ يا قلبي .

انت منهكٌ تماماً
انت تنبض بلا صوت .
انت تدري ، أنني قرأتُ :
الأرواح لا تموت .

فتى أسمر هام في الحديقة
على ضفاف البحيرات المفقودة
ونحن نختفي ، منذ قرن
بوقع خطوته الذي لايكاد يُسمع .

* المقطع الأخير إشارة الى بوشكين .

قصيدة

أنت ، دائماً ، غامضٌ وجديد ،
وانا اغدو اكثر سلاسةً
يوماً بعد يوم
لكنّ هواك ، يا حبيبي القاسي
تجربةٌ بالحديد والنار .

لقد حرّمتَ عليّ أن اغنيَّ وأن ابتسم
ومنذ امدٍ حرَّمتَ عليّ أن أصليَّ .
شرط ألاّ اهجرك ،
الباقي يساويني!

هكذا ،
غريبةٌ على الأرض والسماء ،
أحيا ولا أغنّي .
لقد اقتلعت روحي الحرّة
من الفردوس والجحيم .

* القصيدتان من ترجمتي . (س .ي)

تنتمي أنّا احمد ، شعرياً ، الى المدرسة «الأكميّة» التي جاءت مع المستقبلية ، بعد انصراف الشعراء الروس الشباب عن المدرسة الرمزية ، في العام ١٩١٠ تحديداً . تقول أميرة التتر : «لم يعد الشعراء الشباب ينادون بالرمزية ، بعضهم صار مستقبلياً ، والآخر صار أكمياً . وأنا غدوتُ أكميّةً» . جاء المصطلح من اللغة الاغريقية ، حيث تعني الكلمة ذروة الشيء واكتماله . وفي التطبيق عُنيت المدرسة الأكمية بـ «الوضوح الجميل» ، رافضة إيحاءات الكلمات وهالاتها ، و «التضاريس الغامضة ، والضباب غير المجدي ، وتركيب الجمل الأكروباتي» . كان الأكميّون يبحثون عن وسائل وسيطةٍ للشعر ، ويرفضون اعتبار العالم مجموعة إشارات ، وينادون بحقيقة الأشياء . ويقولون إن الفن لايعرف إلا المربّع والدائرة . الفن يعني الصلادة . انه «من رخامٍ ومعدن» .

والشعر حرفةٌ ، تتطلبُ ، أوّلاً ، المحترف .

يقول ايتوري لوغاتو في كتابه «تاريخ الأدب الروسي» إن دواوين الأكميين الأولى جاءت بانطباع استثنائي ، سواءٌ في حدّة الأسلوب ووضوحه ، أو في جِدّة الأفكار .

كانت الأكميّة مدرسة شعرية ، حرّة ، وفضفاضة الى حد كبير . كانت اجتماعاتها قليلة ، وبدون وضعٍ تنظيميّ . كانت قصيرة العمر ، إلا انها أثّرت عميقاً في السنوات التي سبقت ثورة ١٩١٧ .

أميرة التتر كانت المرأة الوحيدة في هذه الحركة الشعرية .

●

كانت أنّا احمد ، في مرحلتها الأولى شاعرة حب . وشعرها هذا لصيقٌ تماماً بسيرتها الذاتية .

والحقُ ان العلاقة بين قصائدها وسيرتها الذاتية ظلت وثيقةً حتى النهاية ، واهبةً شعرها الإخلاص ، والثقة ، والإعتراف :

نور المساء اصفر وفسيح
ورقيقة هي طراوة نيسان
أنت تأتي بعد ان مرّت السنوات طويلةً
لكني ، بالرغم من كل شيء ، أفرح برؤياك .

●

بالإمكان القول أيضاً إن شعر أنّا احمد ، في عمومه ، هو شعرُ كلامٍ ، اقصوصة ، محادثة . إنه شعرُ اجتزاءٍ ، بالغ الكثافة ، يتلمس الجوهريّ ، بعيداً عن المبالغات الشعرية ، والاستعارة الصارخة .

●

الشاعرة مارينا تسفيتاييفا ، أهدتها سلسلة من القصائد :
ياعروس الدمع ، يا أجمل العرائس
أنتِ ، يا مخلوقة الليل الأبيض المجنونة
انتِ تطلقين أنفاسك على روسيا عذاباً أسود
وسهام صرخاتك تخترقنا .

غرفة الفندق

علاقتي مع النقّاد تكاد تكون غائبة . إذ ندر ان كتبوا عمّا اكتب . وإن حدث هذا ، فإنه يحدث بالمصادفة المحض .

ومرّة قال لي د . محمد لطفي اليوسفي(من تونس) ، وهو اكاديميٌّ لامعٌ ، إن النقّاد ـ وهو من بينهم ـ يتجنبون الكتابة عن شعري ، لسبب بسيطٍ ، هو انهم لايعرفون مدخلاً إلى ما اكتب .

عبد اللطيف اللعبي (الشاعر المغربي المقيم الآن في باريس) قال لي إن شعري مليءٌ بالألغام . إنه مثل حقل ألغام ، يبدو بريئاً للوهلة الأولى ، لكن سرعان ما يكتشف المرء ان المسألة بعيدة عن هذا ، البعد كله . لقد بلغ الأمر بأحد اصدقائي ، من النقاد ، الى أن يصارحني بأنّ ما اكتب ليس شعراً...

إذاً ، لابأس .

إن كنتَ تجهل المدخل ، فمن الأفضل أن تتجنب محاولة الدخول .

●

في معرض القاهرة للكتاب ، التقيت د . صلاح فضل ، واشتركتُ في ندوةٍ عن «النظام الثقافي العربي الجديد» ، أدارَها هو .

أسرَّني الرجل انه أفردَ لي فصلاً في كتابه الجديد «أساليب الشعرية المعاصرة» ، الصادر عن «دار الآداب» اللبنانية ، في العام ١٩٩٥ . بعد انتهاء الندوة ، ذهبت الى جناح الدار ، وسألتُ رنا إدريس عن الكتاب ، واقتنيتُه ، هديةً منها .

يتناول الكتاب ، في جهدٍ تطبيقيّ واضح ، «اربعة شعراء تعبيريين هم : نزار قباني نموذجاً للأسلوب الحسيّ ، وبدر شاكر السياب للأسلوب الحيوي ،

وصلاح عبد الصبور للأسلوب الدرامي ، وعبد الوهاب البياتي للأسلوب الرؤيوي ، ومحمود درويش كعلامة على إمكانية التحول بين مختلف هذه الأساليب ، وفي الجانب التجريدي يقف ادونيس وحده تقريباً ، أمّا في التيار الثالث ، فهناك سعدي يوسف ومحمد الماغوط وعفيفي مطر لما يمتاز به كل واحد منهم من نهجٍ خاصٍّ في الجمع بين التعبير والتجريد » .

والحقُّ أن د . فضل يأخذ بما أخذ به نقّادٌ جُددٌ من متابعة تمايزات معينةٍ بين الشعراء المعاصرين ، يكون هؤلاء الشعراء المذكورون هنا ، ميدان تطبيقها .

●

ازعمُ أن لصلاح فضل ، في ما أفردَ لي من كتابه ، فضلاً عليّ ، وفضلاً في الجهد النقدي التطبيقي ، ذي الرهافة المرموقة .

إن للمؤلف مشروعه النقدي الطامح الى « إطار نظريّ كليّ ، يعتمد على عدد من الفروض البسيطة القابلة للإختبار والتعديل بشكل جدلي ، في ضوء الممارسة التطبيقية » . إن هذا الإطار يتمثل « في جهاز مفهوميّ مرن ، يؤدي الى تمييز العناصر اللغوية المحايدة من آليات التعبير التقني للأساليب الشعرية ، كما يسمح بوضع مختلف التجارب على سلّم نقديّ قابل للقياس الوظيفي ، دون تحكيم مسبق لسطوة الأسماء او التصنيف الإقليمي او المذهبي للإنتاج الشعري المعاصر » . يريد د . فضل الوصول إلى « تصوّر كليّ عن اساليب الشعر العربي المعاصر » ، رافضاً في الوقت نفسه أن يكون علم الأدب علماً تحليلياً على نمط الرياضيات البحتة ، إذ وقائعُ هذا العلم ، لغويةٌ ، ذات خصائص اجتماعية وجمالية معاً . نحن ، إذاً ، إزاء تناولٍ اكثر حرية ومرونة للنص الشعري . إنه ليس مقيداً بألسُنيّاتٍ أو انساقٍ مُعدّةٍ سلفاً ، مع الانتفاع بما تقدمه هذه الألسنيات والأنساق من ضوابط ، شكلية في الأقل .

●

الورقة

ماذا في غرفة هذا الفندق كي تشعر أنك حُرّ ؟
مروحةُ السقف اصفرّتْ منذ سنين
وأغصانُ السجّادة ناصلةٌ
والأستار
ورقُ الحائطِ
والطاولة...
الكرسيّ المخلوعُ على قائمتين ونصفٍ
والدولابُ بلا بابٍ...
لكنك تبحث ملدوغاً عن ورقة
واحدةٍ
حتى واحدةٍ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أتكون هي المرآة ؟

●

هذه القصيدة ، كتبتُها في احد فنادق بيروت ، في العام ١٩٩٣ ، وقد تناولها د . فضل ، مع قصيدتين أخريين ، محللاً ومستنتجاً ، في ضوء جدل الحضور والغياب ، والدلالة المتراوحة بين حدائق الحواس وفراغ النسيان المتولد من تحولاتها الدائبة .

يقول د . صلاح فضل ، متسائلاً تساؤلاً ذكياً : «ماذا تعني تلك الحزمة الماحلة من الأشياء المرصوصة في غرفة الفندق ؟ إنها تعاني الصفرة والتآكل والنقص ، تعبر بذاتها بطريقة تشكيلية اوّلية عن حصار المكان وتسرُّب

الزمان ، لكن ماهو وضع الإنسان فيها ؟ » .

الكاتب يلتقط شوق الإنسان الى الحرية ، وأن هذه الحرية متحققة في الكتابة والإبداع . لكن النص لو انتهى عند هذا الحدّ لأصبح تعبيرياً تتجلى بنيته في دوالّه المباشرة ، ولانتمى الى تلك الفترة الإيديولوجية التي كانت القصيدة تبوح فيها بمعناها دون عناء .

ويمضي د . فضل في متابعة النص : « عندئذ تأتي النقاط العديدة قبيل ختام تلك المقطوعة الأخيرة ، لتضيف سؤالاً آخر الى تساؤل الاستهلال... اتكون هي المرآة ؟ » .

●

من جانبي ، لا استطيع إلا أن احمد لصلاح فضل صبره وتأنّيه في قراءة النص ، وإلا أن أحمد له حذره المتملّي ، وتجنُّبه الإستنتاج المتعجل . إنه يجسّ النصَّ بأنامل مرهفةٍ ، ويريد أن يأخذ بيد القارئ كي يجسَّ هو الآخر ، النصَّ ذاته ، بأنامل مرهفة .

●

هذه المرآة...
أهي الذات المتحققة ؟
أهي موشور المنظور الذي يحتوي العالم ؟
أهي التوغُّلُ في العمق ؟
أهي حرية الشعر والشاعر ؟
لستُ ادري...
كلُّ ما أعرفه ، أنني أعدتُ تركيب ماحولي ، في غرفة الفندق .

المشي في أحلام ظبية

المجموعة الشعرية العاشرة ، الصادرة هذا العام ١٩٩٦ ، والمعنونة «المشي في احلام الرومانتيكية» ، هي كبرى مجموعات ظبية خميس (١٣٧ قصيدة) ، وأقلُّها بهرجةً ، او بهارج .

لمَ هذا العنوان ؟ والعلاقة بينه وبين قصائد المائة والسبع والثلاثين ، أهي مطَّردةٌ بالفعل ؟ وما المعنى الكامن وراء العنوان ذاته ؟

إن كانت الرومانسية ، بتعبير ما ، ذلك الخيط الحرير الذي يجعل ما حولنا ينتظم في مسبحة صلاة للحياة ، ماضيها وحاضرها وآتيها ، فإن العنوان يغدو آنذاك اسماً على مسمىً ، ويتعيَّن علينا أن نتابع مشية ظبية خميس ، في ترنُّح الخطوات ، وثباتها ، في تراقصها ، وضياعها ، مارِّينَ معها بتلك الأمكنة ذات الضوع ، وبأولئك الناس ، من رجال ونساء ، الذين وهبوا النصوص ، بحضورهم الواضح ، ملموسيَّةً تنقذها من التفكك والإنفراش .

●

الخاسر والرابح

الحياة ، كذلك ، لعبة شطرنج متقنة
لابدَّ من لعب الدورين : الخاسر والرابح
ولكن ، ليس دائماً .

●

على هذه الطاولة... كتبت الكثير من الكلمات :
قصائد حب ؟
صبابات المهرة العُمانية

وغيرها

●

على هذه الطاولة جلس الأصدقاء
والعشّاق
وحتى امي وأختي جلستا
هنا ، معي
على هذه الطاولة .

●

عزيزةٌ عليّ هذه الطاولة .
هنا أيضاً قابلتُ الشعراء والنصّابين واللصوص
ذلك الذي سرق سيارتي مثلاً
وذلك الذي حاول ان يفجر في الطائرة قنبلة...

●

وأناسٌ جاؤوا من مأساة الشرق
ليقيموا امانهم الوهميّ على وسادة لندنيةٍ .
(ص٧١)

●

في هذه القصيدة ، التي اخترتُها من بين مثيلاتٍ لها (ليست بالكثيرة على اي حال) ، تتضح معالمُ في ما أراه خطوةً جديدة في مشية ظبية خميس الشعرية ، ويتّضح ايضاً ما ألمحتُ إليه من مسبحة صلاة للحياة تُشكل صُلبَ الرومانسية لدى الشاعرة . في الاستهلال تعميمٌ غالباً ما تلجأ إليه ظبية خميس . والتعميم هنا متصلٌ بالحياة . فهي لعبة شطرنج متقنة ، يلعب المرء فيها دورِي الخاسر والرابح . هذا التعميم سرعان ما يُخصَّص بعد ثلاثة ابيات فقط ، لتأتي الطاولة ، معادلاً للحياة بأسرها ، مادامت الشاعرة قد أشارت

إشارة قوية في المستهلّ الى إغراء هذا المعادل .

هذه الطاولة : طاولة مقهى ؟ طاولة قمارٍ (الخاسر والرابح) ؟ طاولة شطرنج ؟

إنها هذه الطاولات كلها ، وهي في الوقت نفسه ليست أيَّ واحدةٍ منها .

الأم والأخت تجلسان . الأصدقاء والعشاق أيضاً . ديوانان من دواوين الشاعرة كتبا ايضاً على هذه الطاولة : ديوان « قصائد حب » و « صبابات المهرة العُمانية » . هذه الطاولة عزيزة ، جلس حولها الشعراء والنصّابون واللصوص والمغامرون (ذلك الذي حاول ان يفجر في الطائرة قنبلة)... وأخيراً ، هؤلاء الذين « جاؤوا من مأساة الشرق ، ليقيموا أمانهم الوهميّ على وسادة لندنية » ـ تعميم ايضا .

الطاولة ، إذاً ، موضوعة بين تعميمين ، كأنّ الشاعرة لم تكتف بالتعميم الأول في المستهلّ ، فأوردت تعميماً ثانياً ، لكن التعميم الثاني ماكان له إلا أن يغدو اكثر ملموسيةً ، بفضل السياق الذي قادته بمهارة ودقّة وهدوء ، كي يصبح التعميم الثاني متصلاً بالنسيج الذي يسبقه اوثق اتصالٍ ، حتى لكأنه الخلاصة النهائية للعملية الفنية كلها .

من هؤلاء القادمون من الشرق بغية ان يريحوا رؤوسهم المتعبة على وسادة لندنية ؟

واين مكان ظبية خميس منهم ، وبينهم ؟

إنهم هي .

وهي هم .

ظبية خميس (التي نعرفها جيداً) ، كانت في لندن ، و ،كانت ايضاً تنشد أمانها الوهمي على تلك الوسادة .

هكذا يلتقي الذاتيّ والموضوعيّ في وحدةٍ آسرة .

●

يبدو لي ان الذكرى عنصرٌ أثيرٌ في هذا الديوان .
بل انها لتكاد تكون العنصر الأكثر بروزاً في التناول والتواتر .
إنها ذاكرة الفقدان .
تقول ظبية : « تمور ذاكرةٌ بالفقد » ـ قصيدة « السيل » ـ ص ٧ .
« وبذلك يكون الفقد الدائم ، والمتكرر » ـ قصيدة « يداً بيد » ـ ص١٤ .
« تعبت عيناي من رواية الحكاية . فقدت متعتها » ـ قصيدة « لوحة زرقاء كالصمت » ـ ص ٢٠ .
« كأن الذاكرة جرابٌ مثقوب » ـ قصيدة « ينبوع ورديّ » ـ ص ٢٧ .
« لم يبق لي سوى ذاكرة عجلى » ـ قصيدة « بي شيء ميت » ـ ص ٤٢ .

●

لا اريد أن امضي ، بلا انتهاء ، الى القصائد التي تدندن بالذاكرة والفقدان ، فأثبت عناوينها وصفحاتها ، فالأمر جدّ واضح للقاريء منذ النظرة الأولى ، لكني أودّ الإشارة الى أن الفقدان الذي تستجلبه الذاكرة وتستدعيه ، ليس طافحاً بالمرارة .
إنه استعادة مباهج .
ولهذا فإن ظبية خميس ، في عموم الديوان « المشي في احلام الرومانتيكية » ، تمسك من الرومانسية بالطرف المضيء ، الطرف الذي يريد ان يدفع الى الحياة نبض تلذُّذٍ ، وأن يدفع بالحياة الى منزلة أبهى :

إسرافٌ في كل شيء ، في الوهم ، في هذا السيل
الذي يأخذ حياته على الورق .
ممرّات وسراديب الى خزائن قصيّة
لانعرف عنها الكثير
فوق السطح ، الجلود هي الجلود
المسمّيات نفسها

مرآتنا في الآخر...
مرآتنا امامنا
والمخيلة تلتهم كوحشٍ ، مأدبة ارواحنا
بين الطريق والطريق فراق ،
وعليك ان تغتبط بلذّة العيش الزائلة
أن تقبل نهاية الأشياء ،
وبدايتها كذلك .

قصيدة «فوق السطح الجلود هي الجلود» ـ ص٦٠

قطوفٌ من تونس

أستعير من د . ابراهيم السامرائي ، استاذنا في علم اللغة المقارن ، هذا العنوان ، ذكرى له أوّلاً وهو في منتبَذه ، ثم لأنه عرف تونس ، أيّام كان فيها ، يمنحها علمه ، ويمتحُ ممّا فيها ، صفوَ عيشٍ ، وصفاءَ سريرةٍ .

في نيسان (ابريل) الفائت ، كنت في تونس ، وفي قيروانها تحديداً ، احتفلُ مع المحتفلين بمرور عشرة أعوامٍ على تأسيس كلية الآداب والعلوم الانسانية ، بجامعتها ، جامعة الوسط ، إذ لي ، هناك ، نخبة من اصدقاء ، وكثرة من معارف ، كما ان كلية الآداب غمرتني بفضلٍ عميمٍ ، حين جعلت نصوصي الشعرية مادّةً دراسية ، يؤديها الطلبة ، اطلاعاً ، وامتحاناً .

والقيروان لي مقيلٌ ، حين يشتدُّ عليَّ الدهرُ ويشتطُّ ، فبين مسجدها الجامعِ ، جامع عقبة ، والمدينةِ (القديمة بالطبع) يرتخي منى العصبُ ، وتهدأ النفس ، وفي مَلْقى الأصدقاء والمعارف أجدُ الودَّ والوفاءَ ، وغضارة العيش المفتقدة .

كان الموضوع الرئيس في المحفل الثقافي بالجامعة ، طريفاً ، عنوانه على طريقة إخوتنا في الشمال الإفريقي : «الإبداع والكونيّة» ، وهم يَعنون بالكونية ما نعنيه ، نحن المشارقة ، بالعالمية .

خلاصة الأمر : هل بلغ الأدب العربي مستوى العالمية ؟

كان ثمت اخذٌ وردٌّ ، وقولٌ على قول . لكني اتذكر استاذاً فاضلاً افتتح مداخلته بدعابة . قال إن ثلاثة رؤساء من ثلاث قارات ، اميركا واوربا وافريقيا ، وفدوا على كومبيوتر جليلٍ يستشيرونه في امور دنياهم . سأله الرئيس الأميركي : متى سأكون رئيس العالم ؟ اجابه الكومبيوتر : بعد عشرين عاماً .

وسأل الرئيس الأوربي السؤال ذاته ، فكان الجواب : بعد خمسين عاماً . تراجع الرئيس الأوربي باكياً .

وعندما جاء دور الرئيس الإفريقي ، وسأل السؤال عينه ، انفجر الكومبيوتر باكياً!

بعد هذه الدعابة ، بسط الأستاذ الفاضل رأيه ، مبيناً أن الثقافة العربية لن تدخل العالمية ، لأسباب عدةٍ ، من بينها أننا تابعون ، وأننا لسنا احراراً ، ولا اقوياء . ومهما بلغت ابداعاتنا من مستوى فإنها لن تدخل نادي العالمية ، بينما تستطيع الأمم القوية ان تنشر ثقافاتها في كل مكان ، حتى لو كانت إبداعاتها اقلّ في مستواها .

●

في الثلث الثاني من الشهر نفسه (نيسان) كان لقائي الثاني مع «ملتقى الشعراء الطلبة» بمركز النشاط الاجتماعي ، التابع للجامعة التونسية ، في العاصمة . إنها الدورة الخامسة للملتقى ، والمرة الثانية التي احضر فيها هذا الملتقى الفريد ، أتابع جلساته ، وأستمع الى الشعراء الطلبة ، واتبادل معهم الرأي والنظر في قضايا الشعر ، ودقائقه احياناً .

والحقُّ أن هذا الملتقى مؤشرٌ لتطور القصيدة في تونس ، وطبيعة اهتماماتها .

وشعراء تونس الآتون ، لابد من أن يتكوّنوا هنا ، في رحاب الجامعة ، وفضائها الطلق مقارنةً .

ثم أن متلقي القصيدة الجديدة ، هم ، بالأساس ، طلبة الجامعة ، ومن يدانونهم في المستوى الثقافي ، وتنفُّسِ الهواء الحرّ ، قبل أن تتولاّهم دنيا المصالح والوظائف .

والشعر في تونس ، بحاجة ماسّةٍ الى مؤشر .

لقد انحسرت موجة الستينات والسبعينات . والأصوات التي كانت عالية

بنبرتها وتجريبها خفتت او كادت .

إن خارطة جديدة لابد أن تتشكل .

أُنصتُ ، مليّاً ، الى الطلبة يلقون نصوصهم ذات التفاوت الواضح والطبيعي ، وأتساءل مع نفسي : أيُهم سيكون الشاعر ؟

يرى د . محمد لطفي اليوسفي أن الشعر المغاربي (واظنه يقصد التونسي بالتحديد) هو مجموعة انقطاعات ، بينما الشعر في المشرق مجموعة انقطاعات وافتتاحات .

ويحتج د . اليوسفي بأن ابو القاسم الشابي ، شاعر تونس الطليعي ، لم يؤثر في شعر تونس ، بينما كان تأثيره واضحاً في المشرق العربي . من هنا يكون مفيداً ، ان يحاول المرء ، وهو يستمع الى الشعراء الطلبة ، معرفة المنابع التي ينهل منهما هؤلاء الذين يخطون خطواتهم الأولى في الطريق الطويل .

ما الظاهرة الأكثر بروزاً في هذا الملتقى ؟

أعتقد أن الإحساس بالحرية هو الظاهرة الملموسة تماماً .

والحرية ضمانة الشعر .

ضمانة الفن ، بعامّة .

للبحر في تونس ، أعماقه مثل أي بحر ، لكنّ أعماق البحر التونسيّ غائرة في التاريخ والحاضر .

على امتداد شاطيء هذا البحر ، شيَّد الأغالبة رُبُطَهم ، قلاعاً اصيلة يدفعون بها عن بيضة الاسلام .

ومن هذه الرُّبُط انطلق بحّارةٌ يقودهم فقيهٌ ليفتحوا صقلية .

من هذه الحصون كان ينطلق من سُمُّوا قراصنةً ليفرضوا سطوتهم ومكوسهم على الطرق البحرية ، وليجلبوا الغنائم الى هذه البلاد ، ويزيدوها رخاءً على رخاء .

والبحرُ معاشٌ .

وصيادو السمك ، فرسان الموج والنوء ، يأتون الى اهل تونس كل يوم ، بالمأكل ، طازجاً ، مفوّفاً .

والبحر مَنْزهٌ للناس ، يحتمون به من القيظ ، ويلجأون إليه طلباً للفسحة في النفس والمكان .

لكنّ هذا البحر اخذ يضيق . لا بأهله ، وإنما بهؤلاء السائحين الذين بلغوا الملايين عداً ، والذين يؤمّون البلادالتونسية متمرغين في رملها تحت الشمس ، لاهين طاعمين ، متمتعين بأرخص سياحة متاحة .

فنادقهم الضخمة ، تمتدّ وتمتدّ على الساحل ، ومسابحهم المسوّرة تمنع سواهم من اهل البلاد .

الماء لهم . فاكهة البحر والبرّ .

والتونسي ، متواضع الدخل ، مثلي ، لم يعد قادراً على مواصلة متعته الأثيرة : مجاورة البحر .

لكنّ بمقدور القائمين على سياسة السياحة في تونس أن يخففوا من هذه الوطأة .

في قبرص ، مثلاً ، تظل شواطيء الفنادق الكبرى مفتوحة ، حتى يستطيع الناس ، جميعاً ، سائحين وغير سائحين ، أن ينعموا بالبحر ، التاريخ والحاضر ، المعاش والمَنْزه .

مَراقي الجبال الوعرة

هذه القصائد الإحدى والثلاثون في ديوان سيف الرحبي الجديد «جبال» ، تشكِّلُ ، في رأيي ، خطوة الإنعطافة الصعبة ، في مسيرة هذا الشاعر الذي ظلَّ يحاول الإمساك بناصية الأرض ، ارض وطنه ، عبر عقدين من كتابةٍ مختلفة ، كتابةٍ خاصّة ، كلّفته متاعب حياةٍ بأسرها .

إلا أن لهذه الانعطافة تمهيداتها ، أعني أن سيف الرحبي كان مهتماً بالتثبت من مواطنه ، قبل اتخاذه الخطوة الحاسمة . ولقد تمَّ التمهيد في «ذاكرة الشتات» و «منازل الخطوة الأولى» و «رجل من الربع الخالي» ، مزيجاً من شعر وذكريات واستعادة طفولة .

لقد طوَّف الشاعر ، طويلاً ، وبعيداً . عرف حواضر وبلداناً ، وتلمَّسَ أمكنةً ، من الهند الى المغرب ، وشمالاً حتى بحر الشمال ، وهاهوذا يعود ، في مثل خطفة الساحر ، او المِسحور ، الى مسقط التي لا أشكُّ في انها بدت قصيّةً أمام ناظريه ، وهو في تلك الشقّة الهولندية التي تتسوّرها الغابة والسواقي ، في لاهاي ، غير بعيد عن محكمة العدل الدولية حيث يجلس قضاةٌ مترفون الى ملفّات متضخمة تتفجر في أماكن بعيدة ، وقد تكون البحر الأحمر ، او بحر العرب ، او المحيط الهندي ، ذات المرافيء التي سمّاها بول نيزان ، جحيم البحّارة . و «في الشاطيء نفسه ، يقذف البحر أحشاءه المزهرة ، ليلة عاصفة ، أسماك ميتة ، حطام سفن غارقة ، جثث نوارس واخرى للغيم ، عظام قراصنة على اذرعهم القوية وشم الولادة ، عملة نادرة ، ارواح أباطرة غرقت ممالكهم في البحر ، أشباح نساءٍ غائبات ، كل ذلك وغيره ، وهو يرغي ويزبد في ظلامه العميق» ـ قصيدة «نساء غائبات» ص ٨١-٨٢ ، ديوان «الجبال» .

●

قلت إن «الجبال» انعطافة صعبة في مسيرة سيف الرحبي .

هي أولاً ، انعطافة ، والسبب بسيط جداً ، فهي المجموعة الشعرية الأولى للرحبي ، المكرَّسة ، كاملاً ، لمشاهد بلاده ، والتي كتبت كاملةً ، في بلاده ، وفي مسقط تحديداً .

ومن هنا ، الحضور الكثيف المخيف للطبيعة ، هذا الحضور الذي تحتلُّ الجبال واجهته العريضة ، ثم الصحراء ، فالبحر :

«رحمةً بنا أيتها الجبال ، بيقين مرابضك وشعابك ، لم تكوني سبباً لشقائنا ، لكنك من تملكين مفاتيح الرحمة» ـ ص٥٢ .

وهي صعبةٌ ، ثانياً ، ذلك لأن القصيدة الجديدة في عُمان ، نبتت بجذور معلّقةٍ في الهواء ، لا غائرةٍ في الأرض . كانت القصيدة الجديدة قطيعةً كاملة ، قصيدةً بلا تراثٍ ، سواءٌ في الشكل ، أو الموضوع ، او زاوية الرؤية . بل ان اللقطات الذكية التي تحتفي بها هذه القصيدة كانت من بقاع اخرى غير عُمان ، في الغالب ـ بالإمكان متابعة الأمر لدى عبد الله حبيب مثلاً وزاهر الغافري ، ومحمد الحارثي ايضاً حتى وقت قريب .

لكن النصَّ الشعري يظل يبحث عن تأصيلٍ ، عن مرويٍّ ، أو مُشاهَدٍ ، او ملموس ، عن تواتُرٍ ما لإسناد .

النصّ الشعريّ يظل يبحث عن ارضٍ مشروعةٍ ، مُشْرَعة .

وفي الحالة العُمانية تعترض البحثَ صعوبةٌ واضحةٌ . إذ لاميراث قريباً تستند اليه القصيدة (السياب مثلاً بالنسبة لقصيدة العراق) ، كما ان التناصَّ مع الآخر ينبغي ان يقلَّ الى حدود معقولة ، كي يظهر التمايز .

ما الحلُّ ، إذاً ؟

أزعُمُ أن الحلَّ الصعب الذي اهتدى اليه سيف الرحبي هو في اتخاذ طبيعة وطنه ، وإغواء تاريخه ، ميراثاً :

«لقد ذهبوا بعيداً صوب أنفسهم ، وذهبوا في الوحشة . ايامٌ تتلوها أيام ، الديار تضمحلّ في عين عاشقها ، والجبال عرين الذكرى ، تنفس

النسور بيوضها ، الأقرب الى ألوان الرمال والصخور ، من فرط ما ارتطمت بالأزلية ، ليس بيني وبينك ايتها الساحرة الولود ، إلا هذه الكثبان من الرمل ، وهذه الأزمنة المكدّسة امام بابي ، تقولين كلاماً لا أفهمه ، وتقولين هذياناً أفهمه ، بسرعة سقوط النيزك على رأسي ـ «هذيان الجبال والسحرة» ، ص ٤٧-٤٨ ، «الجبال» .

وانا اعتقد أن في هذا الحلّ ضمانةً دائمةً للتأصيل ، ولتنوع المشهد والموضوع ، وضمانةً في الوقت ذاته إزاء الحذلقة التي يمكن أن يسقط فيها النصُّ ، حين لايمسك بقبضةٍ ولو متناثرة من الأرض ، الأرض الواهبة ، والضرورية للعملية الفنية نفسها .

●

لكن اتخاذ طبيعة الوطن ، وإغواء تاريخه ، ميراثاً ، أو مدخلاً ، ليس بهذا اليسر البادي للوهلة الأولى . إنها ليست «فَرْحة الأوبات» كما يقول ابو تمّام ، وليست عودة الإبن الضالّ . ثمت «منازل كثيرة يرتادها الفتى ، منازل مبعثرة في قارات ومدن ، وعلى منعطفات حروب وجبال ، منازل تضيئها الشموع ، وأخرى تعطس فيها الحيتان ، تمتد من قصبة الجزائر حتى القطب الغامض ، وبلاد الغال» ـ ص ١٣ «جبال» .

الفتى ، إذاً ، يريد ان يكشف لا أن يكتشف ، يريد ان يُعَرِّف ، مادامت الغيبة المديدة قد منحته مسافة التأمل :

لم نعد نشبه هذا البحر
ولا هذه الأرض
يبدو ان قروناً مرّت بزواحفها
ونحن نيام

ص٢٢

على هذا الفتى ، أن يواصل ، سيرة الشعراء طويلي الألسنة . عليه ان يطلق البوق ، بشيراً او نذيراً ، لايهمّ . عليه ، فقط أن يعلن حقيقة ما رأى ،

ليغدو المشهد كابوساً :

«الفجر ، زارع الفتنة في هذه البقاع ، فجر القتلة والعشاق عبر اضوائه الأولى ، تزفر الجبال الهواءَ الثقيل ، كأنما تلد كوناً بكامله . كوناً يسرح فيه البشر والحيوانات والأكاذيب ، ويسرح فيه السماسرة الذين أتوا من كل بلاد العالم لامتصاص ضرع الأرض وما خلّفته عظام حيوانات بائدة . يمضي الموكب في هذا الصباح الذي انفصل عن فجره الأول واصبح غريباً وفظاً وحارس ثكنات» ـ ص ٦١

●

للشعر جدله .

وبين الواقع وجدل الشعر ، يقوم منزل الشاعر ، و «تكمن» منزلته . وبمنأىً عن كل المقولات المتصلة بعلائق الفن ، يضع العمل الفني ميسمه الساخن ، على الأوراق ، وربما على الجباه ايضاً .

صيدُ الفراشات

جاء ديوان محمد صالح «صيد الفراشات» الصادر في العام ١٩٩٦ ، عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ليؤشر ، بوضوح ، الى الساحة الشعرية المصرية ، ومايجري فيها من تحولٍ يستحق الإنتباه .

لقد كتبت مرةً ، أقول ، إن أيام معرض القاهرة للكتاب ، لها بهجةُ التنوع ، ولمسة الفوضى الهيّنة . الأمرُ حسنٌ ، فالثقافة (الإبداع بخاصة) نتيجُ البهجة واللمسة هاتين . القليل من الفوضى ، لا الكثير من النظام ، هو مستلزمٌ أساسٌ في حركة الإبداع وتحريكه .

وفي مصر العقدين الأخيرين ، توافرَ مثلُ هذا الجو ، وتوافرَ معه (وهذا يهمني كثيراً) جوٌ من المسعى الشعري الخصب .

لم تكن مصر ، منذ خمسينات هذا القرن في الأقل ، مركزاً شعرياً يغذو القصيدة العربية بأكثر مما يغتذي .

أمّا الآن ، فأرى أن مصر قد غدت ، بالفعل ، وبفضل شعرائها الشبان ، مركزاً شعرياً يُحسب له حساب .

●

لكنّ عليك أن تحسن صيد الفراشات . فالساحة الشعرية في مصر ، شأنها شأن اي ساحة مفتوحة ، هي ملأى ايضاً بما يمكن أن تفرَّ منه فراراً ، وتُملأ منه رعباً . إنها ساحة غير ممهدة ، وهذا طبيعي حين ننتظر مفاجآت الخصب ، بعيداً عن الإطمئنان الى ما كُرِّسَ ، وبالقدر نفسه ، إلى ما لم يكرَّس . إن صيد الفراشات ليس بالمهمة اليسيرة .

●

قلت لمحمد عفيفي مطر ، إنني شغوف بمتابعة مايكتبه شعراء مصر الشباب ، وشواعرها الفتيات . سألني : ومن أعجبك ؟ أجبته : محمد صالح ، في ديوانه « صيد الفراشات »...

قال مداعباً : لكنه تجاوز الخمسين عمراً!

وأسأل عن محمد صالح ، فيقال لي إنه جرَّب وجرَّب (في قصيدة التفعيلة) فلم يأبه له احد (والعهدة على القائل) ، أمّا الآن فهو يجرِّب قصيدة النثر .

لم اعتبر ماقيل منقصةً تُحسَبُ على الشاعر ، إذ لا طريق في الفن سوى التجريب . فإن بلغ محمد صالح في تجريبه حدَّ التخلي عن اسلوبٍ ، وتبنَّي آخر ، فأهلاً ومرحباً...

●

الكمين

يتصادف أنهم يستوقفونه
كلما عاد متأخراً الى بيته
يتفحصون الأوراق
ويسألونه عن اللوحات المعدنية
ثم يسمحون له بمواصلة السير .

يتصادف أنهم يستوقفونه اخيراً
يكون قد تأخر اكثر مما اعتاد
ويكونون قد انتظروا طويلاً
دون ان يعثروا على ضالتهم ،
يتفحصون الأوراق
ويتركونه مثل مايفعل كل مرة

يغادر السيارة
ليتأكد من وجود اللوحات ذاتها
في مكانها هناك
ثم يطلقون عليه الرصاص .

«ص ٥١ ـ صيد الفراشات»

هذا النص يمثل ، الى حد كبير ، طبيعة البحث الشعري لمحمد صالح في ديوانه «صيد الفراشات» .

وبالإمكان تحديد ملامح من هذا البحث تستحق الإشارة :

في المقام الأول ، ثمت حالة مبهمة ، كمينٌ ينصبه أناسٌ (مجهولون ؟) لشخص مجهول ، في ليل حالكٍ ، غامض .

وفي تقديري أن مهمة المبدع ، هي ، هنا ، اي في معالجة نقطة ما ، في حالة من شبه الإبهام ، معالجة تُخرجها من الإبهام لتدخلها في الغموض ، اي في الوضع المستسِّر القابل للتأويل من لدن القاريء ، الذي ينبغي ان يكون فطناً على اي حال .

سوف يظل الوضوح غائباً ، بالطبع ، ومن هنا يدخل «الغياب» عنصراً له حضوره في العمل الفني .

وفي المقام الثاني ، يأتي التوتر .

إن النص متوترٌ ، مشدود الأوتار لكن ليس الى حد الانقطاع . وعندما يأتي البيت الأخير : «ثم يطلقون عليه الرصاص» ، نكون نحن انتهينا من توترنا ، إلا انه الانتهاء الذي يماثل تلقّينا زخّة الرصاص...

الأمر الثالث الذي يستدعي الاحتفاء ، هو الإيجاز المرهف ، فلا زيادات ، لانعوتَ ، ولا عاطفيّات مفروضة فرضاً على النص ، من خارجه ، او من ذات المبدع .

وثمت ايضاً ، النجاح الباهر في الإيهام بالحياد . فالشاعر هنا يقدم

خبراً . إنه الراوي . الشاهدُ العدلُ . مُوَثق الحياة وأحداثها . الشاعر الذي تخلى عن الأسلحة كلها ، واكتفى بالشعر ، اي بالفن ذي الأصول الصارمة .

●

إن كانت الأمور هكذا ، فأين الموقف ؟ أعني اين النقد المفترض في العمل الفني أن يوجِّهه ؟

أعتقد أن هذا الحياد القاسي في التقاط الحدث والإخبار عنه ، هو الموقف ، الموقف الصارخ أيضاً ، لكن بطريقته الخاصة : ترى... اي غابةٍ هذه التي نحن فيها ؟

●

كان بودّي أن اقدم نماذج اخرى لمسعى محمد صالح الشعري ، مثل « شروع في قتل » و « السراب » و « مربعات الضوء » و « السلّم » و « الأحباش » ، لكني أتأسّى بأنني اشرت إشارة ، إشارة محضاً الى عمل شعري ذي شأن .

في المحتَرَف الشعريّ

أتذكّر مقولة فرجينيا وولف حول ضرورة أن يكون لكل فنان غرفته الخاصة به . انا أفضل الكتابة في غرفتي الخاصة . لكني قد أكتب في المقهى حين لا أعرف احداً ، ولا يعرفني احد . اكتب أحياناً في الطائرة آن يكون جليسي مجهولاً .

والقصيدة تنمو عندي ببطء كامل . إنها تبدأ بالتقاطة معينة ، بسيطة جداً ، ومن بعد اظل اجمعُ حول هذه الإلتقاطة عناصر اعتقد أنها ضرورية لإعطاء هذه الإلتقاطة لحماً ودماً .

وفي الوقت نفسه ، أتأمّلُ جوهرية الإلتقاطة : أهي متصلة بالمصير الإنساني ؟ بالأسئلة الأولى ؟ أثمّت شيء من العمق ؟

في ما بعدُ ، وبحالةٍ اقرب الى المغامرة أبدأُ أكتب .

أفضّلُ ورق الصحافة . وأكتب بحبرٍ أسود سائل ، ولا أستطيع أن اكتب شعراً بالقلم الناشف ، او على ورق صقيل .اكتبُ عادةً في النهار .

أجلسُ للكتابة ، بعد ان أكون قد حلقت لحيتي ، وارتديت ملابس تصلح للخروج من المنزل ، فأنا عندما استقبل القصيدة أستقبل العالم .

لا اكتب في الليل .

ودائماً ، في الأحوال العادية ، اكتب قرب نافذة تطلُّ على امتداد ، على بحر أو حديقة او مشهد طبيعي .

الآن ، في عمّان ، أمارس العوائد ذاتها .

أكتب جالساً . اكتب يومياً ، وأقرأ يومياً .

وإن لم تعجبني القصيدة مزّقتُها ، فأنا لا احتفظ بمسوداتٍ البتةَ . فإن أعجبتني دفعتها للنشر . وإن كنت الآن افضّلُ أن أجمع قصائدي في ديوانٍ جديد .

●

إنصات

الآنَ
انا مُتَّسعُ العينين
بعيدُ عن منتصف الليلِ
وأبعَدُ عن خطوات الفجرِ...
أُحدِّقُ في الصورةِ ، حيث الحائطُ ابيضُ
والأشجار وراء زجاج المطبخ سود...

●

في اللحظةِ
في هذي اللحظةِ
في البغتةِ
أسمعُ شمعاً يقطرُ في ماءٍ
ماءً يقطر في شمعٍ
أسمعُ أشجاراً تقطر أشجاراً
أسمعُ ماءً يقطر أسماءً
أسمعُ اسماءً تقطرُ ماءً
أسمعُ في الهدأة دمعاً يقطرُ
. . . . . .
. . . . . .
أسمعُ في الصمت دماً يقطرُ
أسمعُ بغدادَ تئنّ
. . . . . .
. . . . . .
أسمعُ نبضي

عمّان ٥/ ١٠/ ١٩٩٥

أتعلَّم ، تدريجاً ، ألا اقول شيئاً .

بمعنى ، أنني أتعلَّمُ اللامعنى .

ليس الأمر سهلاً . فقد اعتدنا على السؤال الذي كاد يلتصق بسماع النص الشعري ، او قراءته ، السؤال الذي يقول لك :

ماذا تقصد ؟

النص الشعري ، كما أزعمُ ، ليس بذي مقصد .

ستقول لي : لكنّ هذا عبثٌ .

ولن أخالفك ، ففي الفنِّ الكثيرُ من اللَّعب .

النص الشعري يطمح إلى إضاءة حالة ، حالة معتمة ، أو مبهمة . لكنّ هذه الإضاءة ليست باهرة ، بحيث تُخرج الحالة تماماً من عتمتها ، لتغمرها بالضوء .

النص الشعري يمسُّ الأشياء ، بأنامل مرهفة .

إنه يوميء ، ولا يوجِّهُ .

وفي النص « إنصات » ، محاولة فعلية للإنصات ، لكنه الإنصات الى المبهم ، الى الأصوات غير المسموعة . وقد حاولتُ ان اكون أميناً ، الى المطمح الشعريّ .

وأنت ، ايها العزيز ، سوف تسألني ، من جديد :

ماذا تقصد ؟

لا أقصدُ شيئاً .

ربما كانت الموسيقى ، وحدها ، مطمحي .

ترى ، أتشاركني سماعها ؟

محاولةُ الشعر الصافي

بلند الحيدري ، هو الإبن الضالّ لأسرةٍ كردية عريقة ، اندمجت ، وتشظّت ايضاً ، بواقع السياسة ، في بلدٍ يفور بتعقيدات هذا الواقع ، وهكذا كان من هذه الأسرة ، على سبيل المثال ، داود الحيدري (وزير الداخلية) ، وجمال الحيدري (القائد الشيوعي الذي قتله انقلابيو ١٩٦٣) .

أقول إن بلند الحيدري هو الابن الضالّ ، لأنه رفض ، منذ البداية المبكرة ، أن يمضي في السبيل المفترض بابنٍ صالحٍ يمكن أن يرتقي درجات السلّم ، واحدةً بعد اخرى حيناً ، ووثباً حيناً آخر ، حتى يبلغ المكانة «اللائقة» المرجوّة .

هجر بلند بيت الأسرة يافعاً ، ليشكل جماعة ادبية فنية ، أطلق عليها اسم «جماعة الوقت الضائع» ، وليفتتح مقهىً هو مقرٌّ للجماعة ، وملتقى ، ومبيتٌ كذلك للآبقين أمثاله . الأفكار الوجودية ، لا الماركسية ، كانت العنوان العريض لهذه الجماعة ، ولبلند بخاصة ، ومن هنا جاءت علاقته العجيبة بعبد الرحمن بدوي ، المروِّج للوجودية ، ومؤلف كتاب «الزمان الوجودي» الذي أشكُّ في أنّ أحداً فهمَه حتى الآن ، ولا أستثني بلند الحيدري ذاته ، إذ لم تتوافر له إمكانية دراسة منهجية او اكاديمية تعينه في حلّ مستغلقات «الزمان الوجودي» .

آل الحيدري ، وهم يراقبون عن بعدٍ ، هذا الإبنَ المتضوّر جوعاً ، باختياره ، دبّروا له ، في مسعىً من قريبه الوزير ، داود الحيدري ، عملاً في شركة سباق الخيل بالمنصور ، مما أتاح له ، الى جانب الخبز اليومي ، فرصة التعرف على عالم عجيب ، عالم الخيول ، والمراهنات ، و «الجوكيّة» ، والنخبة الغنية ايضاً .

تغلق الشرطة مقهى «الوقت الضائع» ، بعد أن لم يعد مقهى ، وبعد أن اخذ أناسٌ عجيبون يأتونه من بعيد : حسين مردان من بعقوبة ، وعلي الخرجي من البصرة ، على سبيل المثال .

ورُبَّ ضارّة نافعة ، كما يقال ، إذ اتجه بلند ، بعد إغلاق المقهى ، وجهةً اكثر جِدّيةً ، نحو الكتابة .

●

كان الياس ابو شبكة ، صيحة لدى شعراء العراق الشباب ، وبينهم بلند ، ويبدو لي أن تأثير ابو شبكة في الشعر العراقي كان أوضح وأعمق من تأثيره في الشعر اللبناني ، فديوانه «افاعي الفردوس» كان منطَلَقَ حريةٍ وتحدٍّ ، وكتاباً مبجَّلاً قَلَّ من لم يحمله باليمين . وأعتقد أن بلند كان الأشدَّ تأثراً بإلياس ابو شبكة .

لم يبدأ الحيدري ، بدايةً رومانسية ، شأن ابناء جيله :

« شظايا ورماد » لنازك الملائكة ، « الوتر الجاحد » لأكرم الوتري ، « ملائكة وشياطين » لعبد الوهاب البياتي ، « ازهار ذابلة » لبدر شاكر السياب . كان ديوانه الأول « خفقة الطين » مختلفاً . فمثل ما يومىء اليه العنوان ، كان بلند معنيّاً بالأعماق ، والهوّة السوداء ، أكثر من الغيوم والعواطف الهائمة في سماوات ملوّنة .

وكان الياس ابو شبكة ماثلاً أيضاً .

وليس من الصعب رؤية العلاقة بين قصيدة بلند الحيدري « سميراميس » ، وقصيدة ابو شبكة الشهيرة التي مطلعها :

مَغْناك ملتهبٌ وكأسك مترعةْ

فاسقي أباكِ الخمرَ واضطجعي معهْ

إلياس ابو شبكة ، إذاً ، لا ابراهيم ناجي او علي محمود طه أو محمود حسن اسماعيل ، كان المحرِّض الرائس ، عند بلند الحيدري .

لقد كرَّس بلند تمايزه ، مبكراً ، ولسوف يظل هذا التمايز قائماً ، طيلة حياةٍ شعرية مديدة ، استمرت لنصف قرن .

●

أزعمُ أن بلند الحيدري ، كان الشاعر الأكثر أهتماماً ، بين مجايليه ، بمحاولة الشعر الصافي .

أكيدٌ أن هذه المحاولة اصطدمت بعواصف المضطَرب السياسي ، وما أمْلته هذه العواصف من ردود أفعالٍ ، شخصية ، وفنية ، لكن بلند ظلَّ اميناً في محاولته الدائبة ، متوصلاً في سيرورة المحاولة إلى قيم جمالية تحمل ميسمه .

مدخل بلند الى قصيدته فرديٌّ خالص ، حتى في تلك القصائد المعنيّة بالشأن العام ، خذ مثلاً قصيدته المهداة الى مظفر النوّاب ، او قصيدته « جاؤوا مع الفجر » ، او قصيدته عن « هيروشيما » .

وأعتقد أنه بعمله هذا ، أرسى قيمةً متعصبةً للشعر باعتباره فنّاً . وبلند ، شاعرٌ مُحكَّكٌ ، كما يقول التعبير القديم . فهو يهتمُّ بمراجعة نَصِّهِ ، وتعديله ، وتحويره ، وغالباً ما تنصبُّ هذه المراجعةُ على حذف الزيادات ، حتى لتبدو القصيدة في صيغتها النهائية أنموذجاً للاختصار والإيجاز .

وبلند مولعٌ بالموسيقى ، عنصراً أساساً في النصِّ الشعري ، وإن كان جهده ، في هذا المجال ، محدوداً بموسيقى البيت ، لا بموسيقى المقطع ، إلا أن مجرَّد التأكيد على الموسيقى ، يعتبر أمراً ذا دلالة في محاولة الشعر الصافي .

●

في معرض القاهرة للكتاب هذا العام ، التقيت بلند في فندق بيراميزا ، بالجيزةِ .

كنت احمل حقيبة خفيفةً أنيقة ، سوداء ، ذات خطين عريضين من الفضة . لقد كانت حقيبته ، هو ، أهدانيها في لقاءٍ سابقٍ ، بعد أن رأى حقيبتي المهترئة .

وها أنذا احمل حقيبة بلند...

الآن... وقد هدأ الضجيج

مما كان يشغل بال بلند الحيدري ، أن المتواتر من الحديث عن الريادة في الشعر العربي الحديث ، يُغفل ذكره ، وإن لم يغفله أشار اليه في ما تمكن تسميته إشارةً متعجلة ، شبه عابرة .

لابدّ أن خللاً ما قد وقع بالفعل .

فالمواصفات الأساس في العمل الريادي متوافرة لدى بلند : الجيل ، والتغيير ، والمواصلة . والرجل ظل حريصاً على توسيع علائقه العامة ، سواءً عبر شخصه هو ، او عبر المنابر الثقافية والصحافية التي تولّى مسؤوليتها في فترات من حياته ليست قليلة . وإذا اعتبرنا السياسة رافعةً معينة للنص الشعري ، فبلند لم يكن بالبعيد عن أجوائها .

إذاً ، لم حدث ذلك الخلل ؟

أزعم أنّ ثمت سببين رئيسين :

أوّلُهما أن الرافعة السياسية جاءت الى بلند متأخرة (في الستينات) ، بينما نرى نازك الملائكة محسوبة منذ الخمسينات على التيار القومي ، وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي فيما بعد محسوبين على التيار الشيوعي .

كان بلند الحيدري في زاويته الوجودية الجمالية ، آن كان الشارع والشعر يضجّان بالتظاهرة .

حتى إذا جاءت الستينات ، وأعلن بلند انتماءه اليساري ، كان الوقت متأخراً على بناء صورة جديدة للوجوديّ الجماليّ ، بالرغم من تخلي بدر ، ومن بعده البياتي ، عن البيان الأحمر .

لقد منح بلند ، انتماءه اليساري ، الكثير . وتعرَّض بسبب من ذلك الى السجن والتعذيب والنفي ، وشهد شظف العيش ، والبحث المرهق عن

الرغيف ، إلاّ أن الوقت ـ كما أسلفت ـ كان مختلفاً . واليوم ، ونحن نراجع السيرورة الشعرية للرجل ، نجد أنفسنا مدفوعين بقراءة سريةٍ الى الإمساك بالفترة الوجودية الجمالية .

●

أمّا السبب الثاني ، الرئيس ، في ما أزعمُ ، فهو طبيعة المسعى الشعري لبلند .

فأبو عمر ظل يحاول الشعر الصافي ويحاوره ، وظل طوال حياته الفنية معنياً باستخدام ادوات وعناصر ، وتطوير هذا الاستخدام ، في ما اراده اسلوباً خاصاً متمايزاً ، أذكرُ من هذه الأدوات والعناصر : الموسيقى ، التكرار ، الإختصار ، الإيماء ، النظر الى الداخل ، ولقد نجح بلند في إقامة عمارته الفنية . هذه العمارة ، كانت تبدو للناظر الى واجهتها آيلةً للسقوط ، بسبب رهافة معادلاتها ، بينما هي للمتقرّي المدقّق غاية في الدقة وإحكام النسيج . إنها بالتالي ، عملٌ صعبٌ ذو مظهر غير مُغْرٍ . هكذا ، لم يكن لبلند مقلّدون او تابعون ، وبتعبير آخر : لم يقيِّض لمسعاه الشعري ، الإحتفاء .

لقد ظل وحيداً ، متوحداً ، يسكن عمارةً ملتبسة عند العديد ، بل عند الكثرة الغالبة .

والآن ، وقد هدأ الضجيج ، وشرع جيلٌ شعري كاملٌ يفقد منافساته ، وبريقه ، صار بالإمكان العودة الى عمارة بلند ، وتفحّصها ، بعناية ، وموضوعية .

●

انا اعتبر بلند الحيدري أحد أساتذتي .
لقد تعلمت منه ، التعصُّب للشعر .

تعلمت منه ضرورة إطلالة الشاعر على الفنون الأخرى : الرسم والموسيقى والفن المعماري ، على سبيل المثال .

وتعلمت منه أن النجاح في النص ، لايعني ، ضرورةً ، النجاحَ في علائق النص .

ترى ، ماذا يريد الشاعر ؟

ايريد اكثر من ملمسه الفردي على هذا الكون ؟

●

بإمكاني ، وبعيداً عن السياق ، أن أتساءل في سِرّي ، وأن أسأل نفسي ، انا ابن الجيل الشعري التالي مباشرةً .

هل ترك لي بلند ما أمضي به إلى أمام ؟

أي ، هل ترك لي بلند أسئلة في الشعر يتعيَّنُ عليَّ أن أتابعها ؟

لقد ترك بدر شاكر السياب أسئلة عدّة ، تتصل ببنية القصيدة ، والتعامل مع التراث والأسطورة ، والاستجابة للراهن السياسي ، وطبيعة اللغة ، وعلاقة الريف بالمدينة ، الى جانب أسئلة اخرى . فهل لبلند اسئلته ؟ أعني ، أسئلته التي لم يُجَبْ عنها بعدُ هذه الإجابة او تلك ؟

لكل شاعر أسئلته ، بالتأكيد .

وهو يجيب عن بعضها ، ويترك للآتين امتحان الاجابة عن بعضها الآخر .

أرى أن بلند الحيدري ترك لنا أسئلةً عميقة ، محرجة أحياناً .

مثلاً : يختلف بلند عن شعراء جيله ، في أنه شاعر مدينة ، وأنه غير معنيّ بمقابلة الريفِ المدينةَ ، او بالإنجراف في رومانسيةٍ ترى الريف اكثر عدلاً وجمالاً وأصالةً من المدينة .

اطروحة بلند هذه ، بالغة الصعوبة ، في وقتنا هذا بخاصة ، آنَ المدينة العربية تتريَّف ، وآن نرى شعراءنا ، حتى اولئك الذين يحيون في حواضر العالم

الكبرى : لندن وباريس ونيويورك ، يتناهبهم حنينٌ جارفٌ الى الريف ، الى شجرات القرية ، والنبع والجدول ، وحيوان الحقل .

إنه لسؤالٌ متقدمٌ ، ألقاه بلند بيننا ، ونحن نتجنبه ، مرتبكين مثل جمعٍ يحيط بقنبلةٍ يدوية لم تنفجر بعدُ...

●

وأسئلة بلند كثيرة .

الأزهار والأسوار

هل بإمكان امرئٍ ، مثلي ، يحاول الشّعرَ ، اكثرَ مما يحاوره ، أن يعتبر نفسه ، كمن يشتغل في جُنينةٍ مسوَّرة ، منصرفاً إليها عن سواها ، جاهداً ، ومجتهداً ، كي يُطلعَ منها أزهاراً تنْجُم ، وثماراً تتدلى ، ورحيقاً يسيل ؟

وبتعبير آخر : أيحق للمبدع أن يتخصَّصَ في فنِّه ، او نوعه الأدبي ، الى حدٍّ يستغني فيه عن إطلالةٍ على المشهد الفني بمجموعه ؟

لقد صادفتُ ، بالفعل ، رسّاماً لايقرأ ، وخزّافاً لايسمع الموسيقى ، وشاعراً لم يدخل في حياته معرض نحت .

وليس لي من مأخذٍ على رسوم هذا الرسّام ، وخزف ذاك الخّزاف ، وقصائد ذلك الشاعر .

ليس لي من مأخذ ، لكني كنت اراقب الحرج الذي يبدو على الرسّام حين يدور الحديث عن روايةٍ اخيرةٍ او كتاب في علم الجمال ، وألحظُ تململَ الخزّاف آن نستمع الى موسارت مثلاً ، وأفهم ضيقَ الشاعر بالحديث عن منى السعودي .

إذاً ، ثمت خللٌ ، إن لم يكن ابداعياً ، فهو ثقافيٌ بالتأكيد .

والخلل الثقافي تأتي خطورته ، وأخطاره ايضاً ، من المجرى السرّي الذي يحفره في صلب العمل الإبداعي ، فيحيل هذا العمل الإبداعي الى تصنيفٍ ما ، هو في غير صالح العمل ، في النهاية ، وفي المقايسة كذلك ، وبخاصةٍ حين تكون المقايسة ضمن ما نطلق عليه الفن المقارن ، او الأدب المقارن .

المبدعُ شخصٌ متوازنٌ في تكوينه الثقافي ، مختلٌ او مختلف او مخالِف في طبيعة علاقته المجتمعية ، فالفنُّ الذي هو نقدٌ في جوهره يستدعي هذا

النوع من الاختلال والإختلاف والخلاف ، إلاّ أن هذا الإستدعاء مؤسسٌ على توازنٍ قويّ في التكوين الثقافي .

●

لماذا توقَّفَ الشعر العربي بعد المتنبي ؟

لماذا توقَّفَ ، وتعيَّنَ علينا أن نبلغ منتصف القرن العشرين ، كي نشهد مرحلة تطوُّره التالية ؟

أزعُمُ أنّ للأمر علاقةً بما تقدَّمَ من حديث ، وبخاصة حين تتّصل المسألة بفنون قريبةٍ من الشعر ، او مُلازمةٍ له ، كالمسرح ، والموسيقى ، والتصوير ، إضافة الى خصائص عملية التطور التاريخي لثقافة ما ، ونوع العلاقة بين منتج النص ومستهلكه في مسار الثقافة العربية قبل عصر النهضة ، كما تدخل محدودية المثاقفة ، او حدودها ، عنصراً هاماً في هذا السياق .

●

قد يصلح « كتاب الشعر » لأرسطو ، شاهداً هنا ، فهذا الكتاب الذي ترجمه متّى بن يونس ، والذي نشره لآخر مرة عبد الرحمن بدوي في العام ١٩٥٣ ، لم يصل الى الشعراء ، شعرائنا ، إذ اهتم به الفلاسفة أمثال الفارابي وابن سينا وابن رشد ، لكنهم لم ينجحوا في التوصل الى نظرية عامة للشعر العربي تستفيد من نظرية ارسطو في الشعر اليوناني .

يقول د . علي اومليل في كتابه « السلطة الثقافية والسلطة السياسية » ، في معرض حديثه عن هؤلاء الفلاسفة وما رأوه في « كتاب الشعر » : « أما شعراء العرب ونقّادهم فيمكنهم ان ينتفعوا بالقوانين الشعرية العامة ، غير ملزمين مع ذلك بارتباطها التطبيقي بالشعر اليوناني » .

لمَ حدث ذلك ؟

إن في الشعر اليوناني ، مسرحاً ، وجوقةً منشدة ، ومدينةً ،

وميثولوجيا ، وممثلين...
إن فيه مشهداً فنياً متكاملاً .
ولقد رفضنا ، بإصرارٍ ، هذا المشهد الفنيّ المتكامل!

●

التداخلُ بين الفنون والأنواع الأدبية ، في عصرنا هذا ، بلغ مبلغه ، حتى لم يعد ممكناً القولُ بالإستقلالية المطلقة لفنٍّ ما ، او نوع أدبيّ معيّن ، والمثالُ الأوضحُ هنا ، ماجاءت به السينما ، وماطرأ على المسرح من تطوّر .

والشعرُ ، هذا الفن الملتصق بداهةً باللغة ، لحقه ما لحق فنوناً اخرى من قابلية على استقبال واستيعاب قيم وعناصر جمالية وفنية وتقنيّة آتية من انواع ادبية وفنون مختلفة .

قد لايبدو الأمر ساطع الوضوح ، صريحاً ، أمام عيني قاريء غير محترفٍ ، او غير مُدقِّقٍ ، لكن القاريء الفطن ، والناقد ، والممارس ، يدركون ، وعلى مستويات متباينة ، هذا التداخل . ربما وجدت أمامك قصيدة من اربع حركات (الاصطلاحُ موسيقيّ) ، أعني قصيدة من اربعة مقاطع ، وكلُ مقطع يهيء جواً به خاصاً ، ومختلفاً . القصيدة العربية المألوفة ليس فيها مثل هذا التقسيم . إنها السمفونية ، دخلت بنظام الحركات الأربع في صياغة شكل النص الشعري .

وقد تجد قصيدةً ذات لازمة معينة ، أساسية ، وتلحظ أن هذه اللازمة يطرأ عليها تطوُّرٌ ما ، في تصاعُد واضح ، سواءٌ في الشحنة او تفاصيل الرؤية...

إنها البوليرو ، هذا الشكل الموسيقي ذو اللازمة الأساسية التي يشكل تطوُّرُها بِنيةَ العمل .

وثمت أمثلة اخرى ، في بستان الشعر .

أمّا الرواية ، فللحديث عنها شأنٌ آخر ، وأمدٌ يطول .

عن اليونسكو والكتاب والحريّة

اربع عشرة صحيفة يومية ، عربية ، وقّع ممثلوها في السابع والعشرين من تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٩٥ ، وبمدينة غرناطة العريقة ، على اتفاق مع اليونسكو ، يهدف الى «تعميم ونشر الثقافة العربية المشتركة بسعر رمزي هو سعر الجريدة نفسها ، وفي هذه الحالة لن يكون القارىء العربي مضطراً لشراء الكتاب نفسه إذا لم يكن قادراً على ذلك ، وسيكون الكتاب متوافراً لديه مجاناً مما يدعم سبل التواصل والتقارب العربي ثقافيا .ومن هنا جاءت تسمية هذا المشروع باسم (كتاب في جريدة)» .

ومن المتوقع أن يبدأ العمل في المشروع ، اعتباراً من يونيو (حزيران) ١٩٩٦ ، ولمدة عامين كاملين ، بحيث يصدر خمسة وعشرون كتاباً في جريدة ، خلال هذين العامين .

●

كنت أتحدث مع الشاعر شوقي عبد الأمير ، المدير الإقليمي للمشروع ، والذي سيتخذ بيروت ، مقراً له . كانت حماسته بالغةً ، دفعت به الى رحلة واسعة في الأقاليم العربية ، وكانت وراء تبني اربع عشرة صحيفة عربية ، للمشروع . وأعتقد الآن أن جانباً أساسياً من تطبيق الفكرة قد تحقَّقَ بهذا التبني .

لكن ، يظل جانبان ، أساسيان ايضاً ، ينتظران جهداً إضافياً . أوّلُهما الحصول على دعم الصناديق الثقافية ، والمؤسسات ، لهذا المشروع ، دعماً مالياً . فالصحيفة توفر التسهيلات الفنية ، والتوزيع ، لكنها قد تطالب بالورق لكتاب تطبع منه مئات الآلاف من النسخ ، وهنا يأتي دور الصناديق الثقافية والمؤسسات ، إذ عليها توفير الورق اللازم ، وبخاصة لصحف لايمكن

اعتبارها غنيّةً .

أمّا الثاني ، فيتعلق باختيار الكتب ، حيث تبرز مسألة معايير الاختيار . وفي تقديري أن الكتب ينبغي ان تحظى بالإجماع ، أو أن الإجماع عليها هو تحصيل حاصل ، اي أن احد شروط الإختيار ، ألاّ تكون الكتب المختارة ، خلافيّةً ، ألا تكون موضع خلاف .

وحين تكون مفاضلة بين «الخبز الحافي» لمحمد شكري ، و «زقاق المدق» لنجيب محفوظ ، أعتقد أن الرأي سوف ينصرف الى «زقاق المدق» . وهناك ، الفترة الزمنية .

اي سقفٍ نضعه للفترة الزمنية التي نختار منها كتاباً .

هل نطبع مختارات من «البخلاء» للجاحظ ، ام مختارات من قصص عبد الملك نوري ، على سبيل المثال ؟

أعتقد أن السقف الذي يمكن ان نضعه ، هو ما بعد الحرب العالمية الثانية ، فمنذ هذه الفترة ، منذ بدايتها شهدت الثقافة العربية تطوُّراً نوعياً في الأسلوب ، والفكرة ، والنوع الأدبي ، كما ان كتب هذه الفترة الممتدة حتى يومنا هذا ، ذات علاقة مباشرة بالقضايا الفكرية والإجتماعية التي تمسُّ القارىء الحاليّ .

●

لماذا اختارت منظمة لليونسكو اميركا اللاتينية ، والعالم العربي ، لتطبيق مشروع «كتاب في جريدة» ؟

لماذا لم تختر الهند ، مثلا ؟

في رأيي أن اليونسكو أسبابها الوجيهة في هذا الاختيار . فأميركا اللاتينية ، إذا بدأنا بها ، ناطقةٌ بلغةٍ أُمٍّ ، هي الإسبانية ، بينما لا توجد في الهند لغة «هندية» ، فهناك اربع عشرة لغة رئيسه ، وحوالي المائتين من اللغات الثانوية واللهجات ، من هنا سيتكلف المشروع نفقاتٍ باهظةً لو نُفِّذَ في

الهند . إضافةً إلى ان الهند لا تعاني «فقراً» في إصدار الكتب ، فهي تأتي ثالثةً بعد الولايات المتحدة ، والمملكة المتحدة ، في إصدارات الكتب باللغة الانجليزية ، بينما تعاني بلدان اميركا اللاتينية ، مثل البلدان العربية ، مشكلاتٍ حقيقية ، في نشر الكتاب وانتشاره .

وثمت تماثلٌ معيّنٌ بيننا ، وبين اميركا اللاتينية ، في الحواجز المقامة بوجه تداول الكتاب ، وهي حواجز ذات طبيعة جمركية واقتصادية وسياسية في آن .

إن المكتبة المنزلية الصغيرة ، ليست تقليداً متّبعاً عندنا ، على نطاقٍ واسع ، والأفراد ليسوا معنيّين ، عادة ، بالحصول على كتاب ، ولأسبابٍ معروفة ، ثقافية / اجتماعية / اقتصادية .

مشروع اليونسكو ، سيوفر لقارىء الصحيفة الاعتيادي ، وربما غير المعنيّ بالكتاب ، أساساً لمكتبة منزلية صغيرة ، سيوفر له خمسة وعشرين كتاباً تكوّن الرفّ الأول للمكتبة .

وهو لن يبذل جهداً ، ولا مالاً ، في الحصول على الكتاب .

اليونسكو ، اختارت له الكتاب ، ووضعته بين يديه ، مجاناً...

اتراه سيرفضه ؟

●

العالم يتغير من حولنا ، بوتائر لم يسبق لها مثيل . ونحن امّةُ كتابٍ ، لكننا ننأى بأنفسنا عنّا ، ننأى بواقعنا عن هويّتنا ، باعتبارنا امّةً شرعَ الكتاب ملامحها .

ها نحن ، اولاء ، في أماكننا .

وهاهو ذا العالم ، قد جاء ، يدقّ علينا أبوابنا المغلقة . يقول لنا : خذوا كتابي . خذوا كتابكم . اقرأوه . إنه مع الصحيفة اليومية . مع الإعلان . إنه في أقرب «كشك» . ولن اكلّفَ احدكم حتى بوضع يده في جيبه كي يخرج درهماً!

●

في اليوم الأخير من العام ، نشرب قهوة الصباح ، حلوةً مُرّة .
العام الماضي لم ينته ، والآتي لم يهلّ بعد .
أم أن الحياة كلها هكذا . في كل لحظة يومٌ اخيرٌ ، ويومٌ اوّل ؟

●

إن كانت الحرية ، هي الوسيلة والغاية ، فإن إلحاحها يكون أشدَّ حين يريد المرء ان يطمئن الى خطوته .
ولربما اثارت حركة الزمان خواطر كتمتها العادة .

●

ومادمنا نعرف الشيء بسواه ، والضد بالضد ، فما احرانا ان نتثبت من كلمة الحرية ذاتها .
وفي لغتنا ، كما ارى ، لاتمتلك كلمة « الحرية » حريتها .
الكلمة مقيدة بنسقها ، مادامت « العبودية » الطرفَ الآخر من الخيط .
نحن ، في لغتنا ، وهي ليست مصطلحاً ميكانيكياً بالتأكيد ، لانعرف الحرية إلا بالعبودية . هكذا جرت العادة : الحر والعبد . وفي هذه الحالة لا يعرد الحرّ حراً ، لأن شرطه وجود العبد . وفي نفوسنا التاريخية يعيش هذان الشخصان يقتتلان ، ويصطلحان .
إن ملكوت الحرية يعني قطيعة تامة مع الضرورة .
وبهذا المعنى ، لا اجد كلمة « الحرية » في لغتنا مؤهلة لبلوغ ذلك الملكوت .
أم ترانا ، نحن ، غير المؤهلين ؟

رواية ورؤى

فردوس الرواية الإفريقيّة

أزعمُ أنني قدّمتُ شيئاً للرواية الإفريقية ، بتقديم هذه الرواية الى القاريء العربي . إذ ترجمتُ عدداً منها ، وكان تحت عناوين : تويجات الدم ، لنغوجي واثيونغو (من كينيا) ـ الحوالة ، عثمان سمبين (من السنغال) ـ المفسَّرون لوولي شوينكا (من نايجيريا) ـ الشمس الثالثة عشرة ، لدانياتشو ووركو (من الحبشة) ـ خرائط ، لنور الدين فارح (من الصومال) ، وأنا في سبيلي الى تقديم رواية جديدة هي «فردوس» لعبد الرزاق غُرنه ، من زنجبار .

وكان وراء هذا المسعى رغبةٌ في جلاء صورةٍ ما لأدبٍ ظل مجهولاً لدينا ، مقارنةً بأدب اميركا اللاتينية ، واليابان .

ثمتَ تماثلاتٌ عدة بيننا ، وبين جيراننا الأفارقة (أعني من إفريقيا السوداء) ، لعلّ اهمها أننا نعيش مرحلة ما بعد الإستقلال ، بما فيها من إشكالات وخيباتٍ ، وتمريغ مُثُلٍ في الوحل ، والتفافٍ على هذا الإستقلال حتى يمسي أسوأ من ماضٍ كولونياليّ قريب .

هناك ايضاً مسألة اللغة وعلاقتها بالهوية ، وإن كانت هذه المشكلة محدودة عندنا بنتاج كتّابٍ من الشمال الإفريقي يتخذون اللغة الفرنسية أداةً ،

وفضاء ثقافة .

إن في إفريقيا تنوعاً لغوياً ، وعرقياً ، وسياسياً ، يجعل أطروحةً مثل «الأدب الإفريقي» موضع جدلٍ ، ومُساءلةٍ للمصطلح ذاته . مثلاً : هل الأدب الإفريقي المكتوب بلغاتٍ غير إفريقية ، الانجليزية والفرنسية والبرتغالية على سبيل المثال ، أدبٌ إفريقيٌ ، أم اورو ـ إفريقي ؟ هل العربية ، كما تتساءل كتاباتٌ في إفريقيا السوداء ، لغة إفريقية ، أم انها أيضاً من لغات الاحتلال ؟

مهما يكن الأمر ، فإن أي إطلالةٍ على ما تنتجه القارة السوداء ، ستكون نافعةً ، لغرض المقايسة ، او المقابسة ، في الأقل . والغريب ، المقلق ، عندنا ، هو جهلنا شبه المطبق بآداب جيراننا : إفريقيا . فارس . تركيا . الهند ، بينما يحضر لدينا أدب الأباعد في استمرارية واضحة .

وربما كان سبب هذا الحضور ، قدرة هؤلاء الأباعد المتميزة على تسويق نتاجهم الإبداعي ، وضعف هذه القدرة لدى الأقربين .

●

تتابعُ رواية «فردوس» لعبد الرزاق غُرنه ، سيرة الفتى يوسف ، الذي يغادر بيت أمه وأبيه ، فجأة ، وبلا مقدمات ، ليدخل مرغماً في خضمِّ حياةٍ ، جديدةٍ عليه ، تماماً .

ابوه ، صاحب النُزُل الصغير ، مدينٌ بمبالغ للعمّ عزيز ، التاجر ذي القوافل التي تنطلق من ساحل المحيط الى الداخل ، الى عمق الداخل ، تتقدمها الطبولُ والدفوف والأبواق .

وبما أن الأب عاجزٌ عن الدفع ، يأخذ العمُ عزيز ، يوسفَ ، ليشقى عنده بالعمل ، حتى يسدِّد ، بعمله ، دَين أبيهِ ، وقد يُمضي حياته كلها في خدمة التاجر ، بدون أن يستطيع سداد الدَّين .

تبدو العقدة بسيطة ، وهي كذلك حقاً .

لكنّ الكاتب يقدم ، عبر رحلة يوسف المعقدة ، بانوراما للحياة في هذه الأرض الإفريقية ، مطلع القرن ، حين كان الألمان والانجليز يتنازعون إفريقيا السوداء .

ثمت شبهٌ بين هذه الرواية ، ورواية جوزيف كونراد « قلب الظلام » التي سُمِّيت في السينما « القيامة الآن » ، ونُقل مسرحها من إفريقيا إلى الفييتنام .

●

« كان [يوسف] نائماً ، من جديد ، حين هجم رجال « شاتو » عليهم ، من كل الجهات . ذبحوا الحراس فوراً واستولوا على أسلحتهم ، ثم أيقظوا بالهراوات الرجالَ النائمين . لم تكن هناك مقاومة . إذ كانت المباغتة كاملة . جُمع المسافرون كالماشية وسط الساحة . أضيئت المشاعل عالياً فوق حشد الأسرى الذين أُمروا بالجلوس ورفع أيديهم على رؤوسهم . أمّا أحمال البضاعة التي جاؤوا بها على اكتافهم ، فقد تناهبها في الظلام ، وسط الضحكات ، الرجال والنساء . وحتى انبلاج الفجر ، ظل سجّانوهم يحيطون بهم ، مبتهجين ، يسخرون بهم ، ويضربونهم .

كان المسافرون يشجعون بعضهم بالهتاف ، وارتفع صوت محمد عبد الله بين العويل والأنين ، داعياً الرجال الى الثبات . عدد من الرجال كان ينتحب . لقد قُتلَ أربعة منهم ، وجُرح آخرون . في الضوء رأى يوسف أن الحملدار قد أصيبَ ، والدم اللزج يغمر صفحة وجهه وثيابه .

قال أحدهم : حظّ الشيطان . انظروا ماذا جلب لنا . انظروا عاقبتنا .

لقد خسرنا كل شيء .

وصاح آخر : سوف يقتلوننا .

في الصباح ، ومع انتشار الضوء ، جاء اهل البلدة ليتفرجوا على الأسرى ، وهم يضحكون ، ويرجمونهم بالأحجار » .

●

لم أقصد أن اتابع أحداث الرواية . واقتطافي هذا المشهد منها ، هو لغرض تبرير الشبه بينها ، وبين « قلب الظلام » لجوزيف كوانرد .

●

بعد عودة يوسف ، من رحلة الداخل الخائبة ، يخبره خليل ، زميله في العمل لدى السيد عزيز ، بسبب الدَّين ايضاً ، عن ماضي السيد عزيز :

أنتَ لم تعد طفلاً ، وعليك ان تعرف كل هذه الأسرار . قبل اثني عشر عاماً تزوج السيد ، السيدة . كان تاجراً صغيراً يتنقل بين هذا المكان وزنجبار ، يجلب الملابس والأدوات والتبغ والسمك المملح ، ويأخذ من هنا الماشية والأخشاب . أمّا هي فقد ترمّلت اخيراً ، وكان لزوجها عدة سفن ، تبحر على امتداد الساحل ، حاملة بضائع من كل نوع ، القمح والرز من بيمبا ، والرقيق من الجنوب ، والبهار والسمسم من زنجبار . سمعت الأرملة بالسيد ، الأصغر منها سناً بعدة أعوام ، وتزوجته . من هنا جاءت ثروته . إنه رجل جشع . لقد أخذني ، أنا ، واختي ، لأن ابي مدينٌ له . صرنا رهينتيه حتى يدفع أبي الدين . لكن ابي مات ، وعادت امي وإخوتي الى الجزيرة العربية . لقد رحلوا ببساطةٍ هكذا ، وتركونا هنا .

●

كان يوسف يدرس في المدرسة القرآنية .
وكان يتردد على مصلّح آلات هنديّ .
يعلّمه الهنديّ دروساً اولية في معرفة الآلة .

●

صار يوسف يتطلع الى عالم مختلف . صار يريد الفرار من ربقة السيد ، وينتظر يوماً يرحل فيه عن المكان وأهله .

الألمـان يـدخلون البلدة في طابور ، ويجـمـعـون الشـبّـان ليـدخلوهم في خدمتهم .

كانوا في حالة حرب .

يوسف مختبئ عن الأنظار .

الطابور يبتعد قليلاً فقليلاً ، في الطريق المترب . والجنود يسحبون معهم عدداً من الشبّان .

فجأةً . يخرج يوسف من مخبئه ، ويلتحق بالطابور .

●

أكان التحاقه ردّة فعل عشوائية ؟

إن كان الأمر هكذا ، فأين هي مسؤولية الكاتب ؟

بانتظار البرابرة

قصيدة «بانتظار البرابرة»

ما الذي ننتظر ، في الساحة ، مزدحمين ؟
البرابرةُ سيصلون اليوم .
ولمَ مجلس الشيوخ معطل ؟
الشيوخ لا يشترعون القوانين
فلم هم جالسون هناك إذاً ؟
لأن البرابرة يصلون اليوم
اي قوانين سيشترعها الشيوخ الآن ؟
عندما يأتي البرابرة ، سيسنّون هم القوانين .

●

لمَ يستيقظ امبراطورنا ، مبكراً ، هكذا ؟
ولمَ يجلس الآن ، معتلياً عرشَه ، معتمراً تاجَهُ
عند البوابة الكبرى للمدينة ؟
لأنَ البرابرة يصلون اليوم .
والإمبراطور ينتظر استقبال قائدهم .
والحقُّ أنه تهيأ ليوجه إليه خطبةً
خلع عليه ، فيها ، كل الأسماء والألقاب .

●

لمَ خرج قنصلانا معاً ، والقضاة
بأقبائهم الحمر ، وأقبائهم المزركشة ؟
لمَ هذه الأساور ، وكل هذا الحجر الكريم ؟

كل الخواتم ذات الزمرد المتألق ؟
لمَ يحملون اليوم صولجاناتهم الثمينة
ذات المقابض الفضة ، والنهايات الذهب ؟
لأن البرابرة سيصلون اليوم
وأشياء كهذه تدهش البرابرة .

●

لمَ لم يأت الخطباء المفوَّهون ، هنا كالعادة
ملقين خُطَبَهم ، قائلين ما ينبغي أن يقولوا ؟
لأن البرابرة سيكونون اليوم ، هنا
وهم يسأمون البلاغة والفصاحة .
لمَ هذا الضيق المفاجيء ، والاضطراب ؟
لمَ غدت عابسةً وجوه القوم ؟
لمَ تخلو الشوارع والساحات ، سريعاً ؟
والكلُ يعود إلى داره ، غارقاً في التفكُرِ ؟
لأن الليل قد هبط ، ولم يأت البرابرة .
ولأن أناساً قدموا من الحدود
وقالوا ان ليس ثمت برابرة .

●

والآن... ماذا نفعل بدون برابرة ؟
لقد كان هؤلاء نوعاً من حَلٍّ .

للشاعر اليوناني كافافي

ترجمة : سعدي يوسف

●

لا اريد أن اتحدث عن قصيدة كافا في ، فقد جرتْ منذ زمن ، مجرى المثل السائر ، وكُتب عنها الكثير ، وتأثّرها الكثير . لكني أثبّتها بترجمتي ، للفائدة أولاً ، ففي الإعادة إفادة ، ولأنني اريد الحديث عن رواية بهذا العنوان «بانتظار البرابرة» كتبها ج .م . كوتزي (من مواليد مدينة الكيب بجنوب إفريقيا) ، ذلك لعلاقةٍ وجدتُها بين النصّين ، بالرغم من اختلاف النوع : J.M.Cortzee: Wating for the Barbarians .

●

في مستوطنة محصّنة ، على الحدود ، لدولة ما (لايذكر المؤلف اسمها) ، تدور احداث الرواية .

هذه المستوطنة ، بسبب من مُنتآها ، وقلة ساكنيها ، يديرها قاضٍ ، يشرف على شؤونها ، وعلى الجنود القليلين الذين يشكّلون حاميةً بالإسم .

ليس بعيداً عن المستوطنة ، نهرٌ أقام على ضفته صيادو السمك من أهل البلد ، أكواخهم . لكنّ في الجبال البعيدة ، التي تفصل بينها وبين المستوطنة ، سهولاً شاسعة جرداء ، نادرة الماء ، يقيم «البرابرة» ، وهم قومٌ بُداةٌ مترحّلون ، يغيرون على بعضهم ليسرقوا الماشية ، من حظائرها ، او على قافلةٍ ليسرقوا حصاناً . إنهم ، على العموم ، لايزعجون المستوطنة وأهلها .

أمّا القاضي ، وهو موظف مدنيّ في النهاية ، فقد كان حريصاً على إدامة هذا السلام ، مكتفياً بإغارات محدودة على «البرابرة» ، ردّاً على غارات هؤلاء المحدودة ، بدورها . إنه رجل يُؤثر الطمأنينة ، ويستمتع بحياته قدر الإمكان ، محققاً رضا الجنود الكسالى ، وأمن سكان المستوطنة ، وإبعاد البرابرة . غير أن العاصمة تمد ذراعها الطويلة ، لتصل الى هذا المنأى ، في هيأة العقيد جول ، من المكتب الثالث ، للحرس الأهليّ .

العقيد جول ، يُخرج القاضي من هوايته الأثيرة : جمع اللُّقى القديمة ذات

الرموز ، والاستمتاع بحياة رخيّة ، ويُدخله في معمعان المكتب الثالث الذي تلقّى أخباراً حول اعتزام البرابرة إعلانَ حرب على المناطق الحدودية .

يقول له القاضي إن البرابرة بعيدون ، والناس يعيشون بسلام ، وليس هناك من عدوٍّ نحاربه ، إلا إذا كنّا ، نحن ، العدوَّ .

غير أن العقيد جول ، من طينة اخرى ، إنه مشبعٌ بالأوهام التي جاء بها من العاصمة ، حول البرابرة ، وحول رسالة حماية الحدود ، والقضاء على التمردات في مهدها ، وممارسة استنطاق المقبوض عليهم بأساليب لم يألفها القاضي ، ولاتستدعيها طبيعة الأمور ، وكان اولُ الطريق القبضَ على شيخٍ وحفيده كانا في طريقهما الى البلدة ، ليراجعا طبيبها ، علّه يشفي ذراعَ الحفيد الصبيّ من قروح لا تلتئم . في التعذيب ، يلقى الشيخ حتفه ، بعد أن مُثّلَ به أشنع تمثيل ، بغيةَ استنطاقه ، ويوقّع الصبيُّ على وثيقة تقول بأن قومه يستعدون للهجوم في الربيع ، تفادياً للتعذيب الذي تعرَّض له . ثم يستخدم العقيد جول ، هذا الصبيّ ، دليلاً في إغاراته على المناطق المحيطة بالمستوطنة ، ومنها ضفة النهر حيث الصيادون البؤساء وأكواخهم . يؤتى بهم الى القلعة . ويُستنطَقون بصورة شنيعة . يقول له القاضي : لكنهم صيادو سمك بؤساء ، إلا أن العقيد ماضٍ في بحثه عن «البرابرة» .

في إحدى غاراته يأتي بـ «البرابرة» أسرى ، في موكبٍ رهيب ، يدخل به المستوطنة . كان «البرابرة» يسيرون صفّاً ، وقد وضع كل واحدٍ منهم يده على خدِّه كمن يشكو وجعاً في أضراسه . يستغرب القاضي من المشهد ، وهو يراقب الموكب . يدقق النظر وإذا به يفاجأ بالطريقة الرهيبة التي اقتيد بها «البرابرة» . لقد أدخل العقيد جول سلكاً يخترق الكفَ والخدَّ ، ليمرّ الى كفّ التالي وخدِّه... وهكذا ، الى نهاية صفّ الأسرى الذين كانوا لا يبدون أي حركة من هول ماهم فيه . فالحركةُ تعني العذاب . وتبدأ حملة استنطاقات ، لاجدوى منها . والقاضي يتدخل لردع هذا العقيد جول عن غيِّه . لا فائدة . لقد غدا مسكوناً بـ«البرابرة» الى حدّ انه اعتقلَ القاضي ، بتهمة التعامل مع العدوّ ، ثم

دبَّرَ تمثيلية شنقه من شجرة وسط المستوطنة ، وهو يرتدي ثوب امرأة . وبعد التمثيلية يزجّ به في السجن .

العقيد جول ، ماض في توهمه قيامَ «البرابرة» بتمرد في الربيع . يستقدم قواتٍ جديدة ، وينطلق في السهول الجرداء مع جيشه ، ليلقى «البرابرة» ويقضي على تمردهم . في العراء الموحش ، كان الفرسان الأعداء يلوحون في الأفق ، فيتبعهم ، لكنهم يظلون محتفظين بالمسافة ذاتها ، بينهم وبين جنده ، وهو يغذّ السير ، وجنودُه وخيوله تتساقط إعياءً وعطشاً . والفرسانُ الأعداء لايزالون في الأفق ، بعيدين ، قريبين ، كالوهم .

أخيراً يعود العقيد من حملته ، خائباً ، مهلهل الثياب ، مع الثلّة القليلة المتبقية من جنوده .

ثم يأتي الأمر من المكتب الثالث للحرس الأهلي ، بالعاصمة ، وهو يقضي بعودة الوحدات الى مقراتها في العاصمة البعيدة ، بعد أن صُرف النظر عن حرب المناطق الحدودية .

الجنود يخرجون من المستوطنة ، بعد أن نهبوا بيوت أهلها ، وعاثوا فيها فساداً .

القاضي ، يتسلل ، فيخرج من سجنه ، ليلقي النظرة الأخيرة على العقيد جول وهو يبتعد عن المستوطنة .

●

ربما تساءل العقيد جول في سِرِّه :

«والآن... ماذا نفعل بدون برابرة ؟

لقد كان هؤلاء نوعاً من حلٍّ» .

أشواق طائر الليل

تأتي اهمية رواية «اشواق طائر الليل» ، من ناحيتين ، أُولاهما أنها لمهدي عيسى الصقر بعد «الشاهدة والزنجي» ، وثانيتهما لأنها تتناول اطرافاً من سيرة بدر شاكر السياب . وتزداد اهمية الناحية الثانية من كون مهدي عيسى الصقر صديقاً للشاعر الراحل ، عارفاً بتفاصيل قد لايعرفها سواه عن حياة بدر . وبدر شاكر السيّاب (المتوفى في العام ١٩٦٤) عن حياة قصيرة خارقة (٣٨ عاماً فقط) والذي انتقل بالشعر العربي الى تاريخ جديدٍ حافلٍ (يشبه ما افتتحه رامبو ذو الأعوام الثمانية والثلاثين في الشعر الفرنسي) ـ لم يكن في واجهة المجتمع المتألقة ، كي تغدو سيرته مفتوحة أمام الناس ، مثل كتاب .

ومن معاني «اشواق طائر الليل» إضاءتها جوانب مستسرّة من حياة الشاعر ، إضاءتها «الجانب المعتم من القمر» بتعبير هنري ميللر .

الغريب في الأمر أن الروائي لم يذكر اسم الشاعر .

لقد سمّاه : يوسف بن هلال . إذاً ، سنتتبَّع سيرة يوسف المخبوءة .

●

اللعبة الفنية للرواية بسيطة .

يوسف بن هلال على سرير المرض في مستشفى بـ (الكويت) تأكيداً ، سرير الموت . وهو في شبه غيبوبة ، حاشدة بالاستعادات ، وحين يفيق يدوّن . او يكتفي بالحديث مع الممرضة .

ليس من شخصيات في الرواية ، ليس ثمت حتى شخصيات ثانوية .

يوسف بن هلال هو المركز ، وكل ماحوله ، ومن حوله ، له وظيفةٌ واحدة ، هي الاحتيالُ لجلاء السيرة المخبوءة . ربما كانت الممرضة «امل»

هي الأكثر حضوراً معه ، لسببين ، الأولُ طبيعة عملها التي تقتضي الملازمة شبه المستمرة ، والثاني اسمها ، هذا الخيط الواهي الذي ظل يوسف بن هلال يتشبث به ، حتى لحظته الأخيرة ، حتى :

« دخلت عليه قبيل الغروب . فوجئتْ به جالساً على حافة سريره ، قدماه اللتان دسَّهما في حذائه ـ لاتدري كيف ـ تتدليان خارج الفراش ، وفي يده عصاه التي بقيت مهملة عند رأس السرير منذ اليوم الذي اصبح فيه عاجزاً عن المشي . كان لايزال يرتدي بيجامته ، ولكن من ألبسه حذاءه ؟ من ناوله عصاه ؟ هل فعل كل ذلك هو بنفسه ؟

ـ سوف ننام في بيتنا الليلة . البصرة ليست بعيدة كثيراً . هي ساعات ونصل اليها .

ـ لكن السماء غائمة الآن . وربما امطرت .

ـ أنا احب المطر » .

●

وحتى : « هرعتا معاً . لم يكن جالساً على السرير حين دخلتا عليه . وجدتاه ساقطاً على الأرض ، منكفئاً على وجهه ، وقذى القروح يلطخ قماش القميص . عندما قلبتاه على ظهره من أجل ان تعيداه الى سريره ، باغتتهما نظراته الساكنة . تبادلتا نظرات واجمة ، ثم تعاونتا على حمل الجسد المتهافت الى الفراش . لمست رئيسة الممرضات معصمه ، وتمعنت في حدقتي عينيه وهزّت رأسها . إلا انها لم تسحب الغطاء على وجهه » .

●

تكاد علاقتي مع بدر ، تبلغ من الزمن ، نصفَ قرنٍ عَداً .

أنا ، وبدر ، من قريتين متجاورتين ، متصلتين ، توشكان أن تكونا قرية واحدة . القريتان : بُقيع ، وجيكور .

في الأفراح والأحزان ، في الأعراس والمآتم ، تتوحّد القريتان . وأنا رأيت بدراً ، للمرة الأولى ، في عرس بجيكور ، « عرس القرية » ، كما ورد في إحدى قصائده . لم اتحدث معه ، إذ كنت أقلّ شأناً وسناً ، من ان اتحدث معه . قصيدته « عرس القرية » ظلت مرتبطةً ، في ذهني ، بتلك الرؤية الأولى ، ومازلتُ ، في قراءتها ، أستعيدُ الصورة إيّاها .

●

والسنون تمضي ، ونحن نمضي معها ، ولا نمضي .

وبمعنىً ما ، ظلت علاقتي مع بدرٍ ، ثابتةً ، راسخة ، بالرغم من العواصف التي هزّت البلاد والناس ، وبالرغم من السُّتراتِ التي ارتُديتْ بالمقلوب ، والمسمَّياتِ الكثيرة التي لحقتْ بالأسماء .

●

في مستشفى المواني، بالبصرة ، وقبل ان ينتقل بدر الى سريره الأخير في المستشفى الكويتي ، حيث بدأ مهدي عيسى الصقر روايته ، كنت ازوره .

أنا مطلقُ السراح قريباً من السجن .

وهو سجين سريره .

حين زرته ، للمرة الأولى ، وأشاروا إلى حجرته ، عبر ممر المستشفى ، شممت رائحة العفن ، رائحة القروح المتقيحة .

وفي الحجرة ، كان بدر يتلاشى ، لم يتبقَّ منه إلا عيناه ، واسعتين ، لامعتين .

●

في مدينة سيدي بلعباس ، بالغرب الجزائري ، بلغني خبر رحيله :

« جيكور توقد في المساء الرطب فانوساً ولا تلقى ضياءه

مات اليتيم ، وخلّفَ امرأةً وأيتاماً وراءه
يارحمة الله التي وسعتْ شفاءه
يا أُمَ مَن لا أُمَ تغمض جفنهِ : كوني رداءه
ولتمنحي الجسدَ المعذّبَ راحةً ، والحلقَ قطرةْ
ولتمسحي بالسِّدر جبهته ، وبالأعشاب صدره... » .

●

أعود إلى رواية مهدي عيسى الصقر ، الى سيرة يوسف بن هلال الخبيئة ، لأقول ، بلا تردد ، إن المعلومات الواردة فيها عن حياة بدر ، تكاد تبلغ قيمة الوثيقة .

وأخصُّ بالذكر هنا ، قصة هروبه في سفينة شراعية ، وحكاياته العاطفية ، ومشهد التظاهرة التي ارتفع فيها على اكتاف الناس ، وكذلك الصور الخاطفة عن حياته ، في المقهى ، في المطعم ، في النادي ، وألوان شط العرب والبصرة .

●

ليس من شكٍّ في أن معادلاتٍ عدّةً ترمي بوطأتها على النص المكتوب ، أيَّ نصٍّ .

هذه المعادلات قد تمنح النصَّ أبعاداً اكثرَ ، او أقلَّ .

وفي حالة « أشواق طائر الليل » ، اعتقد ان المعادلات المتاحة ، المتعلقة بطلاقة اللسان والقلم ، قد أثرتْ سلباً في النصِّ ، وحجبت معلوماتٍ كثيرةً عن سيرة بدر شاكر السياب ، معلوماتٍ كان توافُرها سيؤدي إلى معرفةٍ ادقّ بالشاعر ، وتضاعيف حياته .

●

لكن مهدي عيسى الصقر ، لم يكن ، البتة ، مطالباً برواية سيرة ، او تاريخ .

"الملحقة" في ارضٍ عائمة

رواية رايمون جان ، «الملحقة» L'Attachée الصادرة عن دار نشر Actes Sud الفرنسية المعروفة ، هي الكتاب الثلاثون للمؤلف ، حتى كانون الثاني (يناير) ١٩٩٣ .

رايمون جان ، عمل فترة طويلة ، استاذاً في جامعة اكس إن بروفانس ، وتنقَّلَ بهذه الصفة بين جامعات عدة ، في انحاء العالم ، وبخاصة في الصين ، والولايات المتحدة الأميركية ، وروسيا . مؤلفاته ذات اهتمامات وانواع ، بين الرواية ، والدراسات ، والسيرة ، اذكر منها كتبه عن نرفال وإيلوار وسيزان والماركيز دو ساد . إنه بإختصار ، رجلٌ منتبه ، نابهٌ .

أما اهتمامي برواية «الملحقة» فنابعٌ من أن احداثها تدور في المنطقة العربية ، عشية حرب الخليج الثانية ، ومن محاولة الرواية تقديم صورة ما ، والوصول الى آراء وتقويمات معينة انطلاقاً من تجربة الآنسة مارتين مارتان ، التي كانت ملحقة ثقافية في بلد مجاور للعراق ربما كان مصر او سوريا او الاردن ، إذ ليس في التفاصيل ما يُعين في تحديد مدينة مارتين مارتان الأولى في الشرق الأوسط ، قبل الرحلة المؤسية الى بغداد .

●

الآنسة مارتين مارتان التي تخرجت منذ عامين في جامعة اكس ، كلية الآداب ، والبالغة من العمر ستاً وعشرين سنة ، تصل بلداً في الشرق الأوسط ، حيث ستعمل ملحقة ثقافية بالسفارة الفرنسية هناك . كان هذا قبل حرب الخليج الثانية . وقد استطاعت الحصول على هذا المنصب ، بفضل العلائق الممتازة لعمٍّ لها بوزارة الخارجية . لكنها ليست متأكدة ، في قبولها المنصبَ ،

من ان اختيارها كان صائباً تماماً . وماذا في الأمر ؟ لمَ لا تغامر مغامرةً صغيرة في حياتها ؟ تودّع مارتين استاذها ، وتحمل معها كتبها ذات الصلة بأبحاثها في الأدب الفاضح ، لتهبط بها الطائرة في البلد المعين ، حيث تجد السكرتير الأول للسفارة الفرنسية ينتظرها .

يقول لها السكرتير الأول ، وهو يقود السيارة التي ستوصلها الى مسكنها :

- إن وصولكِ الينا لأمرٌ ثمين . فمنذ عامين ليس لدينا ملحقٌ ثقافي . لا ادري السبب . انه البرنامج التنظيمي للوزارة . ثمت حاجة حقيقية . ولديك الكثير مما ستعملين . انبهك الى صعوبة المهمة . فهذا البلد ليس بلداً عربياً حسب ، انه بلدٌ ناطقٌ بالانجليزية ايضاً . هكذا الوضع . هل تتكلمين الانجليزية ؟
- لا .
- ابداً ؟
- لا .
- اريد أن اقول ايضاً إنك امرأة ، ولهذا ينبغي ان تكوني حذرة هنا . انتِ تقدّرين وزن الإسلام .
- ان يكون الشخص امرأةً ، هاهي ذي الصعوبة ، في المقام الأول .
- أعلمونا بالتلكس أنك في هذا المنصب لأول مرة . أعتقدُ أنك تلقيتِ تأهيلاً .
- دورة بسيطة .

●

تحاول مارتين ان تفعل شيئاً مختلفاً . أن تندفع في العمل ، حرّةً ، أمينةً إلى أفكارها التي لاتزال متوقدة بسبب قربها من الجو الدراسيّ وأيام الجامعة وجلسات المكتبة مع استاذها ، هناك في اكس إن بروفانس .

وفي الوقت نفسه ، تعيش حياتها الشخصية ، كما تهوى ، في اكثر من مغامرة . لكن تقاليد العمل الدبلوماسي والعلائق المعقدة مع منتسبي السفارة تجعلها في وضع لا تحسَد عليه . فالكتب التي حملتها معها ، لمتابعة بحثها ، تتعرض للتفتيش ، وحياتها الشخصية تخضع لمراقبة مستمرة ، وتوضع أمامها عراقيل شتى ، ويزدحم ملفُها لدى السفير بالتقارير التي تدوّن « فضائحها » . وتأتي الضربة القاصمة في الحفل الذي أقامته السفارة لمناسبة العيد الوطني الفرنسي في الرابع عشر من يوليو (تموز) ، حيث ترقص مارتين وتثمل في حديقة السفارة ، حتى تسقط على الأرض .

في أواخر الشهر ، يستدعيها السفير ، موبخاً إياها على سلوكها الشائن أمام المدعوين ، وينصحها بالابتعاد عن البلد ، والذهاب إلى فرنسا في عطلة ، وبعد عودتها ستتسلم مهمة جديدة ، تبعدها عن هذه العاصمة ، الى بغداد المتجهمة عشية الحرب .

●

لم تكد الطائرة تهبط في مطار العاصمة العراقية ، حتى يحيط بها الجنود المسلَّحون ، ليأخذوا المسافرين ، من غير العراقيين ، في حافلات تنقلهم ، وبينهم مارتين ، الى فندق يتمّ فيه تجميع الغربيين ، رجالاً ونساءً وأطفالاً ، ويجري من ثمَّ توزيعهم على اماكن متفرقة .

كانت الحافلة مسدلة الستائر .

أخيراً تجد مارتين نفسها ، في محجز بالبصرة ، قرب منشأة عسكرية . ومن البصرة تنقل الى الديوانية ، داخل منشأة عسكرية اخرى ، او في محيطها .

وتأتي الغارات .

في هذه الأثناء ، كانت الاتصالات ذات المستوى العالي ، تتكثف لإطلاق سراحها ، باعتبارها من السلك الدبلوماسي .

بعد إطلاق سراحها ، تعود الى فرنسا . تترك العمل الدبلوماسي ، وتعمل مدرِّسةً ، وتمضي في متابعة أبحاثها مع استاذها القديم .

●

هذا السرد الخاطف للرواية ، يجرِّدها ، بالتأكيد من تفاصيل هامّة او غير هامّة ، الا انه ضروري ، الى حدٍ ما ، بُغيةَ إعطاء فكرةٍ عن مجريات العمل .

أمّا الحكم على الرواية ، فنياً ، فله حديث آخر .

أنا اعتقد أن «الملحقة» عملٌ خضع ، منذ البداية ، لخطّةٍ متعسفة نوعاً ما . إذ اراد المؤلف ، منذ البداية ، ان يضع بطلته الرئيسة ، مارتين مارتان ، وبصورة مباشرة ، إزاء نقيضها :

مارتين الحالمة ، الحرة ، الشغوفة بالبحث الأدبي ، المتطلعة الى المغامرة... وإزاءها السفارة ، بتقاليدها ، وتقليديتها ، بمخبريها ، ونسائها المنافقات ، وطريقتها في الأداء ، التي تُخضع كل تحركٍ وعلاقةٍ لمقتضيات السياسة العليا . إن السفير ، والسكرتير الأول ، وديان دولانديلو ، و سيرج غريمبرج ، والخادمة الفلبينية ، و ماجد حارس منزل مارتين ، والشيخ عبد الحميد... هؤلاء كلهم ، وبلا استثناء ، هم خصوم مارتين ، هم الجدار الذي يواجهها ، الجدار الذي تناطحه ، فيكاد رأسها يتحطم عليه .

لا احد يعين مارتين في محنتها .

فرنسا ، فقط ، هي التي تمدّ يديها ، مرةً عبر رسائل استاذها بيير كاس من جامعة اكس البعيدة ، ومرةً عبر شارل مينجي استاذ مدرسة الدراسات العليا الذي يأتي ليلقي محاضرة في المركز الثقافي الفرنسي ، ويبهج مارتين بدعوته إياها للعشاء معه في غرفته بفندق الهلتون حيث أقام .

وفرنسا ، فقط ، هي التي تمدّ يديها ، الى مارتين لتستنقذها من محجزها بالديوانية ، وهي رهينة حربٍ .

شخصيات الرواية ، ماعدا مارتين ، ثانويةٌ تماماً . نمطيةٌ حدّ الفجاجة .

ربما كان هذا الأمر نافعاً لإبراز شخصية مارتين ، باعتبارها متميزة ، مختلفة ، لكنّ هذا الأمر غير نافع ، إذا اردنا ان نجعل مارتين اكثر عمقاً ، اي إذا اردنا لمارتين ان تتحرك في مضطَربٍ اقل سطحية ونمطيةً .

●

لكنّ للرواية فضلها ، على اي حال .

هذا الفضل يتبدى في النقد الواضح الذي يوجهه رايمون جان الى المؤسسة الرسمية الفرنسية ، وهو امرٌ غير متواتر هذه الأيام ، وبخاصة في الروايات التي تدور أحداثها في بلداننا .

ميشيما والكرامة

«في صباح ٢٥ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٠ ، انطلق ميشيما مع رفاقه الى مقر القيادة الشرقية للجيش الياباني ، حيث لقي حتفه ، منتحراً ، عبر طقوس السيبوكو ، تاركاً قبل مغادرته داره ، قصاصة ورق على مكتبه ، كتب عليها : حياة البشر قصيرة ، لكني اود أن احيا الى الأبد »

●

وفي العام ١٩٧٢ نشر هنري ميللر كتيّباً أسماه «تأملات في موت ميشيما» .

●

آرثر كوستلر يورد في كتابه «اللوتس والروبوت» الصادر في العام ١٩٦١ ، والذي يدور حول اللوتس (الهند) ، والروبوت (اليابان) ، مايأتي : «غداة وصولي الى طوكيو ، عندما كنت في يوكوهاما ، أبصرتُ جمعاً من الناس ، صامتاً ، قلقاً ، أمام إحدى الدوائر العامة . اوقفت سيارة الأجرة منتظراً رؤية موكب جنازة يخرج من المبنى . عرفت أن المبنى هو جامعة طوكيو ، وقيل لي أن هذا الجمع الكئيب مكوّن من آباء وأمهات وإخوة وأخوات المتقدمين للقبول الذين يؤدون الآن اختبارات القبول خلف الأبواب المغلقة . وعرفت في الوقت نفسه أن ثمت ٣٨٠٠٠ مرشّح ، يتنافسون على ٦٠٠٠ مقعد ، أي ان ستة من كل سبعة مرشحين ، سوف يرفضون . ومن بين الـ ٣٢٠٠٠ فاشل ، يفكر ١٣٠٠٠ بالانتحار ، وحسب إحصاءات طبيب نفساني كبير في طوكيو ، البروفسور تاكي ياما ، سوف يمضي ١٨ طالباً فقط حتى النهاية القصوى» اي الانتحار الفعلي .

●

اردت القول إن الإنتحار ليس امراً غريباً جداً على التقاليد اليابانية ، وبخاصة في الحروب ، قديمها وحديثها ، كما ان للإنتحار أسبابه العميقة في البنية النفسية للفرد الياباني ، وهي بنيةٌ ليست بسيطةً على الإطلاق .

وربما كان من اهم هذه الأسباب ، التربية التقليدية ، المؤسسة بصورة واضحة على مراعاة قواعد السلوك الاجتماعي ، وهي قواعد تمتد بعيداً في الزمن والنفس ، الى ما قبل الإنفتاح الياباني على العالم الخارجي ، أي الى القرن الخامس عشر الميلادي ، وتتضمن في ما تتضمن ، الطاعة المطلقة ، بدءاً من الامبراطور ، وانتهاءً بعوائد الملبس والمأكل والمسكن .

إن اي « فشل » إزاء المقابل (المجتمع) يعني نهايةً لمنزلة الفرد في هذا النظام الاجتماعي الدقيق ، ومن هنا تأتي أصول الاضطراب العصبي ، فالانتحار .

●

في رواية يوكيو ميشيما « ثلج الربيع » ، نقرأ هذه السطور :

« كان غارقاً في احلام يقظته ، وتحولت افكاره متحركةً كالبحر تدريجياً من إيقاع الأمواج الى إيقاع المرور الممتد والوئيد للزمن ، ومن ثم الى حتمية الإيغال في العمر ـ فكفَّ عن التنفس فجأة . لم يكن قد سبق له أن تطلّع من قبل قط الى الحكمة وغيرها من الفوائد التي يتبجح بها ، والتي تمنحها الشيخوخة . ترى هل يستطيع الموت في ميعة الصبا ؟ ـ وإذا كان ذلك ممكناـ أن يلقاه متحرراً من كل ألم ؟ موت رشيق مثل كيمونو فخم النقش ، ملقى في إهمال على امتداد منضدة مصقولة ينزلق ناتئاً هابطاً نحو ظلمة الأرضية في الأسفل . موت موسوم بالتأنق والرفعة » .

إذاً ، هي الرغبة في أن يموت ، انيقاً ، رفيعاً ، قوياً ، وبدون ألم .

لقد حقق ميشيما الشروط الثلاثة الأولى ، أمّا الشرط الرابع فلم يكن ممكناً . تلك الشروط الأربعة وضعها لشخصيته الروائية في « ثلج الربيع » ، لكنه اكتفى بالشروط الثلاثة : الأناقة ، والرفعة ، والقوة .

يقول هنري ميللر في كتيّبه «تأملات في موت ميشيما» :

«يقال إنه استعد لموته المثير ، شهوراً من قبل . والواقع ، انه عاش مع فكرة الموت ، الموت بيديه هو ، لسنواتٍ عدّة . بل يقال إنه اراد أن يموت في زهرة حياته ، وهو لايزال جميلاً ، قويّ الجسد ، وفي قمة عطائه . لم يكن يريد أن يموت ميتة كلب ، كما يفعل الكثير من ابناء بلده . ولمَ لايختار وقت موته وطريقته ؟ ألم يلجأ الإغريق والرومانيون القدماء الى الإنتحار حين يكونون قد نالوا كفايتهم من مباهج الحياة وأحزانها ؟» .

هنري ميللر الذي يقول عن نفسه إنه يشبه يوكيو ميشيما صورةً ، عاش حتى ارذل العمر ، ومات «ميتة كلب» حسب تعبيره هو...

ماذا وراء انتحار ميشيما ؟

لماذا أغمد بيديه ، السيف ، في صدره ؟

الحديث طويل ، والأسباب تعددت . منها رغبة ميشيما في أن تعود الى الإمبراطور سلطته وهيبته القديمتان ، ومنها رغبة ميشيما في إحياء التقاليد اليابانية العريقة وقد اخذت تتداعى بفعل الظروف الاجتماعية وليدة الهزيمة ، ومنها تطلُّع الرجل إلى بناء جيش ياباني قويّ شبيه بجيوش اليابان الظافرة في أيامٍ خلت .

يقول هنري ميللر :

«قد اكون مخطئاً ، لكني اعتقد أن ميشيما اراد إعادة طريقة او طرائق حياة أسلافه . اراد أن يعيد الكرامة ، واحترام الذات ، والأخوّة الحقيقية ، والاعتماد على النفس ، حبَّ الطبيعة لا الكفاءة ، حب الوطن لا الشوفينية ، والامبراطور باعتباره رمز الزعامة إزاء قطيع عديم الوجه والعقل ، مطيعٍ للآراء الأيديولوجية المتغيرة التي يؤسس قيَمها منظّرون سياسيون» .

●

لقد مضت اليابان بعيداً ، في نقل تكنولوجيا العصر ، وعاداته ، وأزيائه ، لكنّ الفرد الياباني ظل متمسكاً ، الى حد بعيد ، بتقاليده (وإن اتخذ هذا

التمسك طابعاً شكلياً في الغالب) .

فالملابس الأوربية ، مثلاً ، التي يرتديها الياباني في المصارف ، ومكاتب الشركات والإدارات ، سرعان مايتمّ التخلي عنها بمجرد ولوج الياباني بيته . والفلسفات الأوربية تظل حذلقة في الجامعات ، بينما تظل الحياة في عمقها وتجلياتها (الرياضة . الفن . الطب النفساني . المعابد . الحديقة) تستلهم أفكار الـ « زن » العريقة .

اريد أن اقول إن قطيعة حادة بين الياباني وتقاليده لم تبرز الى حدٍّ يكلّف ميشيما حياته ، وبهذه الطريقة الصارخة .

ثمت أسبابٌ كامنة ، ربما عادت في معظمها الى شخصية ميشيما نفسه .

●

يقارن آرثر كوستلر ، أحياناً ، بين الهند واليابان ، ويتناول في إحدى مقارناته مسألة الانتحار .

يرى كوستلر أن الانتحار نادرٌ في الهند (والحالات الوحيدة التي حرَّمها العُرف هي انتحار المرأة بالاحتراق مع زوجها المتوفى ، وكذلك ممارسة اليوغا حتى «الساماديهي» النهائية ، أما في اليابان فإن الانتحار يعتبر مناسبة اجتماعية ، والهاراكيري ينظر إليها باعتبارها عملاً فنّياً لذوي الذوق الرفيع .

ويعتقد كوستلر أن الهنود معذَّبون بالقلق الديني ، بينما اليابانيون معذَّبون بالخوف من فقدان الكرامة .

●

أنا ، في النهاية ، أميلُ الى الرأي القائل بأن انتحار ميشيما يعود الى الخوف من فقدان الكرامة : كرامة اليابان .

لكن السؤال الماثل فوراً هو :

لماذا يربط ميشيما كرامة اليابان بجيشها ؟

خضراء الدّمَن

« فتنة الزؤان » هي الرواية العاشرة لإبراهيم الكوني ، والرواية الأولى من ثنائية « خضراء الدمن » التي لم تصدر روايتها الثانية بعدُ .

ابراهيم الكوني متفردٌ فراداتٍ عدة في ساحة الرواية العربية .

فهو أول كاتب من الطوارق ، يطرق باب الإبداع العربي بهذا التواتر والغزارة (خمس روايات بين ١٩٩٠ و ١٩٩٥) ، وهو اول كاتب عربيّ لم يتعلّم اللغة العربية إلا في الثانية عشرة من عمره ، إذ كان ينطق بالطارقية ، ويكتبها بأبجدية « تيفيناغ »... وهو الكاتب العربي الأول الذي اتّخذ من الطوارق والصحراء الكبرى مادته الوحيدة تقريباً . وهو أيضاً اول كاتب عربيّ جعل بطله في إحدى الروايات جَملاً! وبمقدوري أن أمضي في هذه الفرادات اكثر .

●

انا مغرمٌ بمتابعة ما يكتبه الكوني . أقرأ الرواية ، وأتأمّل ، وأبتعد .

إن عالمه لعجيب . متقشف . محدود المادة : الرمل . الحجر . مخلوقات الصحراء . النبت . الساحر . الدرويش . زعيم القبيلة . الشمس . الجنّ . الليل . النقوش . الواحة . لكن هذا العالم المتقشف المحدود يتبدى في نصّ الكوني ، كوناً هائلاً من الآفاق والأعماق ، مزيجاً مذهلاً من واقعٍ حادٍّ ، وأسطورة هائمة تهبط على هذا الواقع مثل غلالة حرير فضفاضة... وفي الأبعاد القصية ، في الروح والمسافة ، في عمق الهلوسة ومفازات الرمل : واحة « واو » . الجنة ، والمَعاد ، هذه التي لم يبلغها البتّة ، أحدٌ ، ولم ييأس من بلوغها أحدٌ .

أقرأ رواية « السحرة » ذات الجزءين الضخمين ، او مجموعة قصص

«خريف الدرويش» ، فأتيه في عالم ضاجٍّ بالرموز والإيحاءات ، حيث لكل تفصيل مغزى ، حتى ذرّة الرمل تغدو حركتها هاجساً ، نأمةً ، او معنى مرهفاً .

●

اعترضتهما أكمةٌ موحشة من النوع الذي يتخذه الجنّ وطناً ، ولايقترب منه صحراويّ دون أن يتخلى عن كل شيء ويغرق في تلاوة التعاويذ . فوق الأكمة انتصبت أثلة هرمة ، بجذعها السمين احاطت طبقات من اللحاء ، الأعراف فقدت اوراقها فتساقطت الى الأسفل ، وتجمعت عند الجذع القديم بعد ان امتصت كل ذرّة ملح جادت بها الأرض المجاورة . اختطفت حتى الأملاح التي طاف بها الريح ، او اقبل بها القِبْليّ من الأوطان البعيدة . استولت حتى على الكمّ الزهيد من الملح الذي يتنفس به الهواء . فالأثل هو صياد الملح ، ومصّاص كل ملوحة في الصحراء . والجنّ الذين اجمع السحرة انهم افتقدوا الملح في بلادهم الخفيّة ، لم يجدوا منجماً يمدّهم بحاجتهم الخالدة منه ، فالتجأوا إليه «الأثل» واتخذوه معقلاً...» .

من «السحرة» جـ ١

●

التقيت ابراهيم الكوني ، مرة واحدة ، زرته بلا موعدٍ ، في احد فنادق العاصمة الأردنية ، عمّان ، حيث كان هناك يتابع طبع روايته «السحرة» ، قادماً من قريته الصغيرة الضائعة في الألب السويسري ، مقامِهِ منذ سنين .

كان بالغ الطول ، والنحول ، يسحب إحدى قدميه سحباً على الأرض ، ذا شاربين كثّين ، وعينين ذكيتين ، وصوت خافت ، وأدب جمٍّ . جلسنا الى مائدة المطعم نتعشّى ، لكنه لم يتناول إلا حساءً خفيفاً .

وتذكرت قولةً لسيمون فيل : «الجوع ؛ نحن نتخيل أطعمة مختلفة ،

لكن الجوع نفسه حقيقي ؛ علينا أن نمسك بالجوع » .

وقولةً لها ، اخرى : «الجزء الأبدي من الروح يتغذى على الجوع » .

●

اتخذت « فتنة الزؤان » ، تسميتها هذه ، لسببين ، أحدهما أن البطل « إيمري » استخار بطريقة الزؤان ، والثاني المقابلة بين « خضراء الدمن التي تتلبس الأرض ليلاً حتى إذا جاء الصبح ، وداهمها الضوء تبددت واختفت » ، وبين « المرأة الحسناء في المنبت السوء »... أي خضراء الدَّمَن ، وهي ايضاً بطلة الرواية ، التي تظهر وتختفي ، وتتخذ اكثر من هيأة مثل جنِّيات الصحراء .

●

يقول الكوني في « فتنة الزؤان » : «اهل الصحراء يتعايشون مع اهل الخفاء ويتجاورون ، يتعشق رجال الجن نساء الإنس ، ويتعشق رجال الإنس حسان الجن ، فيتصاهرون ، ويتناسلون حتى امتلأت الصحراء بجنس امتلك أجرام الإنس ونال خصال الجن ، يسعى في الفلوات ، يتبدى متى شاء ، ويتخفى متى شاء ، ويقول السحرة إن تلك الأقوام (التي مازالت تظهر في الخلوات بأبدان الإنس ثم لا تلبث أن تتبدد كسراب القيلولة) ماهي إلا بقايا من هذا الجنس الذي تركَّب من تعايش اهل الصحراء مع أهل الخفاء في ازمنة كانت فيها الحجارة ماتزال رطبة ، والطير يمتلك لسان المنطق» .

●

تختلف « فتنة الزؤان » عما سبقها من روايات الكوني ، في أن للمرأة الدور الأساس الذي يدور الأشخاص في فلكه ، أعني الرجال ، من زعيم القبيلة الى إيمري الى الراعي ، لكن هذه المرأة (بل الإمرأتين) من طينة خاصة تقترب

من جبلّة «حِسان الجنّ» من ناحية ، وتقترب من نساء الإنس ، من ناحية اخرى ، إذ هي تحاول أن تفتن الرجل «بالحب لتشدّه الى جوارها ، فإن لم تفلح أنجبت له دميةً ، يسمّونها وليداً ، لتكون له وتداً ، فإن لم تفلح احتكمت الى الخيار الأخير : تدسّ له السمّ في الطعام ، او تتركه حتى ينام وتنحره بالمدية النحاسية» .

هكذا فعلت الخلاسية ، حسناء الأغراب ، ببطل القبيلة آمتّطّال ، الذي وجده الرجال مسموماً بعد ليلة زفافه ، والى جانبه الخلاسية ، مسمومة ايضاً .

وهكذا فعلت ابنة الأغراب الثانية بـ «إيمري» ، لكنه نجا بأعجوبة ، ليفرّ ، لكن الى موته .

●

السؤال المنطقي ، الوارد الآن ، هو :

لماذا اختار ابراهيم الكوني أنموذجيه هذين للمرأة ؟

ألم يجد في طول الصحراء وعرضها سوى ابنتي الأغراب هاتين ؟

ترى ، أين ذهبت «حِسان مضارب القبيلة» ؟ اين ذهبت الشاعرات والمغنّيات ؟ وقرينات العقلاء اين ذهبن ؟

ولو قلنا كما كانوا يقولون : « إن الصحراء لم تعرف في تاريخها حرباً لم تشعلها حسناء ، كما لم تعرف سلماً لم تكن له الحسناء سببا» ، أفما كان لابراهيم الكوني أن يرعى موازنةً كهذه التي اوردها هو بنفسه ؟

سبب منطقية السؤال ، هو ما اوردتُهُ من ان «فتنة الزؤان» هي الرواية الأولى من روايات الكوني التي تحتل فيها المرأة هذه المنزلة الأساس .

أي بمعنى أنني اترجمُ تناوُلَ الكونيّ المرأةَ هنا ، باعتباره رأياً له في المرأة ، او موقفاً منه إزاءها .

يقول الكوني : «المرأة تفرّ من الغول الذي يخرج الرجل في طلبه ، لأنها تفرّ من شبح العزلة ، في حين لايسافر الرجل إلا طلباً للعزلة . فهو فارٌ من

المرأة ، من الأُنس ، من الحياة ، باحثٌ عن العزلة ، والمرأة مخلوقٌ فارٌّ من الوحشة ، من العزلة ، باحثٌ عن الأُنس ، عن المجتمع ، عن الحياة ، عن الرجل . ولذلك فإن المرأة مخلوقٌ يفوق الرجل حكمةً ، لأنّ غايتها الحياة وغاية الرجل الفرار من الحياة » .

●

أنا اترك آراء الكونيّ ، كما هي ، لا أناقشها ، ولا اعترض عليها ، إلا أنني أمنح نفسي حقّ الإعتراض على السياق ومناقشته .

إن كان رأيٌ كالذي سبق ، شائعاً ، في الصحراء ، فمن غير المفترض أن يكون هذا الرأي مطبَّقاً ، كما هو ، في سياق العمل الفنيّ ، الذي هو أبعدُ بطبيعته وقوانينه من ان يكون مطابقاً الواقعَ .

وهذا الرأي نفسه ، إن كان شائعاً ومقبولاً لدى اهل الصحراء ، فهل هو مقبولٌ بالقدر نفسه من ابراهيم الكونيّ ، الشخص ، قبل المبدع ؟ على اي حال ، كلنا يتفق على أن المادة الخام ، حين تمرّ عبر مصفاة العمل الفني ، لا تظل مادة خاماً .

الروائيّ يدخل البيت

آنَ فكّرت بنقل رواية ديفيد معلوف «حياة متخيَّلة» الى اللغة العربية ، لم يخطر ببالي أنني سأجد الروائي الأسترالي ، ذا الأصل اللبناني ، جالساً معي ، مساءً ، في حديقة منزلي بعمّان ، مع نفرٍ من المهتمين بكتابته .

هل الأمور بسيطة الى هذا الحد ؟ أم أن الفن ، بذاته ، يمنح الحياة هذه البساطة المحببة العميقة ، التي تجعل الحياة ذات مذاقٍ مختلف ؟

كان الأمر أبسط مما ظننت .

بعد أن اتممت نقل الرواية الى اللغة العربية ، كتبت إليه أبلغه الخبر ، وأستئذنه في نشرها . جاءني الجواب في اليوم التالي : موافقة بالفاكس!

وبعد أن تمَّ الطبع ، كتبنا إليه ، ندعوه الى زيارتنا في عمّان ، لمناسبة صدور روايته ، وقد قبل الرجل ممتنّاً...

لم يكن علينا سوى أن نتدبر تذكرة سفره من لندن الى عمّان ، إذ كان وقّر علينا تكاليف سفره من سيدني الى لندن ، على حسابه .

وهاهو ذا في حديقة المنزل ، يتحدث بألفة وخفوت وحيوية . كأننا اصدقاء حياة كاملة!

ما الذي دفع رجلاً مثل ديفيد معلوف الى هذه المغامرة ؟

أزعمُ أن طبيعته هي التي دفعته .

لكن كيف لي أن اقول هذا ، وأنا لم اعرفه ـ شخصياً ـ إلا الآن وهو في حديقة المنزل ، حديقة الصبّار ، الحديقة الجوراسية كما أحبُّ أن اسميها ؟

هنا ، يتعيَّنُ عليَّ القول إنني قرأت طبيعته ، من نصوصه ، من رواياته ، وقصائده المختارة .

إنه رجلٌ يهتمُّ بما هو قصيٌّ ، يهتم بالأطراف اكثر من المركز ، ويحاول

الإمساك بالبعيد .

ولأُمثِّلْ على هذا :

في «حياة متخيّلة» ، يعمد ديفيد معلوف الى تناول المرحلة المعتمة من حياة اوفيد ، شاعر روما ، المنفي الى خارج حدودها ، ولغتها او لغتيها ، اللاتينية واليونانية . كان سهلاً عليه ، ان يتابع اوفيد الشاعر ، في عاصمة الإمبراطورية ، حيث كلُ تفصيلٍ واضحٌ ، وكلُ إشكالٍ له إمكانُ حلٍّ .

أمّا أن يتناول اوفيد ، في منفاه ، بين «البرابرة» ، حيث الصلة بين الشاعر ومحيطه ، هي بالإيماء والحاسّة ، لا بالنطق والمنطق ، فإن هذا هو الاختيار الصعب بعينه .

وأنا اعتقد ، أن عمل الفنان ، هو بالضبط في هذه المنطقة ، أي المنطقة الرمادية التي تستدعي الوقفة المتأملة المتأنية ، الباحثة في العمق .

●

وفي روايته «لنتذكر بابل» Remembering Babylon ، يتناول فتى ألقته سفينة انجليزية وهو في الثالثة عشرة من عمره ، على شاطئ استراليّ مهجور يؤمُّهُ السكانُ الأصليون الذين ينقذون هذا الفتى ، خادم السفينة ، فيحيا بينهم ، حياتهم ، حتى إذا بلغ الثلاثين عاد الى مستوطنة للبيض ، مستوطنة تخوم . إنه يعود الى أصله ، لكن الناس ـ ماعدا اسرةً واحدةً ـ ينكرونه ويضايقونه ، بل يضايقون حتى الأسرة التي آوته . فيما بعد ، يعود الرجل الى القبيلة الأولى ، الى السكان الأصليين ، ويختفي ذكره ، ولربما قُتِلَ في إحدى الحملات التأديبية التي كان يشنّها البيض المستوطنون على السكان الأصليين .

المفارقة هنا ، هي في أن الإنجليز يرفضون انجليزياً .

كان سهلاً على ديفيد معلوف أن يتناول حال الفتى بين السكان

الأصليين ، وان يحتفي بعودةٍ سعيدة له ، في أحضان قومه البيض .
لكن هذه ليست مهمة الفنان . السهولة ليست مبتغى المبدع .

●

وفي رواية « خبز الآتي » القصيرة ، يتابع الكاتب مجنّداً استرالياً ألقيَ به ، مع فرقته ، في وحل الحرب الاوربية .

في البداية ، يرسم ديفيد معلوف جوَّ الحماسة والأناشيد الذي اندلع مع اندلاع الحرب ، جوَّ الموسيقى العسكرية والمتطوعين الشبّان ، ثم ينتقل من جو الوهم الهستيريّ هذا ، الى جو الخنادق ، الخانق القاتل ، ويتمّ هذا كله ، عبر سيرة المجنّد ذاته .

الحلفاء انتصروا في الحرب .
لكن الشباب كانوا ، هم ، الخاسرين .
استراليا ، كانت الخاسرة بخسرانها شبابها .
الم يكن الأسهل على معلوف ان يندفع في وطنيته حدَّ الاحتفال بالنصر ؟
لكن هذه ليست مهمة الفنان .
الفنّان معنيٌّ بالمصائر التي تشكّلُ النقد ، لا بالمصائر التي تجمِّلُ الواجهة .

●

من كتابه « ١٢ شارع إدموندستون » الذي يكتب فيه عن بيوته وأهله ، والصادر في العام ١٩٨٥ عن دار نشر بنجوين الشهيرة بلندن ، أقتطفُ سطوراً يتحدث فيها عن تحدُّره اللبناني ، مشخِّصاً في جَدِّه :

« جاء جدي الى بريسبان (بأستراليا) من لبنان في العام ١٨٨٠ ، مع أن لبنان في تلك الأيام طبعاً ، ايام كانت استراليا غير متحدة ، عدداً من ولايات متعادية ، كان غير موجود إلا في أذهان وطنيين قليلين . كان لبنان جزءاً من سوريا

الكبرى ، التي كانت بدورها اقليماً من أقاليم امبراطورية الأتراك المريضة . لقد هرب جدي من وطنه في أعقاب فترة من المجازر . ومثل كل اللبنانيين المسيحيين ، ادار ظهره الى وطنه ، آسفاً ، وبدأ حياة ثانية في العالم الجديد .

كان اختياره استراليا ، اعتباطياً . ولم يعرف احدٌ سبب هذا الاختيار . كان من الممكن ان يذهب الى بوسطن ، او الى سان باولو بالبرازيل . لكن الإختيار ، حين يقرَّر ، يغدو مُلزماً . الآن صار ابي . مع بقيَّتنا استراليين » .

اضيف الى هذا ان جدَّ ديفيد معلوف اخفق في أن يكتسب الجنسية الأسترالية ، فظلَّ شخصاً اجنبياً : سورياً اولاً ، ثم لبنانياً . وحين وقف لبنان ، التابع لفرنسا ، مع حكومة فيشي ، لا مع فرنسا الحرّة ، صار جَدّه عدوّاً أيضاً .

●

إحدى الصحف ، وهي تنشر خبر زيارة ديفيد معلوف ، اوردت تعبير « الكاتب العربي الأسترالي » .

لكن الرجل يقول : جدّي جاء الى استراليا في العام ١٨٨٠ ، وأنا لا أعرف اللغة العربية . أنا اشعر بأنني ايرلنديّ اكثر ، ذلك لأن تربيتي الأولى كانت مع الإيرلنديين وكنيستهم .

●

أثمت إشكالية انتماء لدى ديفيد معلوف ؟

لا .

ونعم .

أقول : لا ، إن كان الأمر يتصل بانتماء قوميّ او دينيّ ، فالرجل استراليٌّ مرموق ، ومن أسرة ذات مكانة دينية معروفة .

وأقول : نعم ، إن كان الأمر يتصل بالتطابق المتصالح مع جماعة او بلد . فالفنان يظل ، بهذه الدرجة ، او تلك ، غير منتمٍ .

الموتُ في نهايات العالم

هذا النصُ مجتزأٌ من رواية ديفيد معلوف «حياةٌ متخيّلة» التي ترجمتُها ، وأهيّء لنشرها قريباً جداً . ولد ديفيد معلوف في بريسبان (استراليا) في العام ١٩٣٤ . تلقى تعليمه في جامعة كوينزلاند . ومن العام ١٩٥٩ حتى العام ١٩٦٨ عاش ودرّس في انجلترا ، وتنقّل في انحاء اوربا . عاد الى استراليا ليدرّس اللغة الانجليزية في جامعة سيدّني . وهو الآن كاتب متفرغٌ يعيش في سيدني ، ويمضي قسماً من كل سنة في توسكانيا الجنوبية (ايطاليا) . «مجلة الكتاب الاسترالي» قالت عن روايته : هذا الكتاب الأكثر تحضُراً ، والمدوّن ببساطة وبهاء ، هو من كلاسيكيات عصرنا ، وسيظل على الدوام عملاً كلاسيكياً .

الرواية تتناول حياة الشاعر الروماني ، اوفيد (٤٣ ق .م ـ ١٧م) في منفاه .

●

بعد نصف ساعة ، والشمس عالية فوق الأجمة ، كرةٌ حمراء وحيدة ، كان الهواء لايزال كالغيم ، يشفّ في المرتفعات ، ويكثف كثير الموج حين نكون في المنخفضات .

نحن نتحرك بطيئين . الخيل تشق طريقها خلال المستنقع ذي الحشائش المتطاولة ، وتتنفس مجهدة ونحن نرتقي التل . كل الأرض التي تعلو بطائح النهر غير ممهدة ، وعلينا ان نلازم تلك الأرض ، لأن المناقع لاتزال مغمورة بأمطار الصيف .

أخيراً شرع الضباب ينقشع . لقد صرنا في ارض قليلة الشجر ، ينبت فيها عشبٌ مبيضٌ ذو رؤوس كالرماح ، تضيء ذهبيةً وبُنَيةً في الشمس الطالعة . الأرانب تفرّ منا الى الدغل ، والرجال يضحكون ويتصايحون وهم يرون الذيول

البيض الصغيرة تبتعد . نحن الآن نصعد نحو هضبة شجْراء وراء بروز من صخور متكسرة قد يحسبها القادم من عالم آخر ، تحصيناتٍ قديمةٍ . نصعد صعوداً حاداً بين الجدران الغرانيتية المنتصبة ، وأسمعُ في اول الرتل ، اول حصان يخبُّ في ما يجب أن يكون منفسحاً . وحين أعتلي آخر نهْدةٍ معشوشبة ، والحصان يكاد يزلق تحتي أرى : انها دائرة طبيعية ضخمة . توقّفَ اول الفرسان على مبعدة ثلاثين ياردة منها ، وأسرع الآخرون ليكونوا الى جانبه .

ثم ينطلقون معاً ، في رتل ، داخل ستار من اشجار الصنوبر التي كادت الريح الهابّة تعريها ، وانا متخلفٌ عنهم قليلاً ، فلقد عرفتُ أننا في صعودنا الى هذا المكان قمنا بتحويلةٍ ، وهذا يعني أن ثمّت طقساً معيناً سيقام ، ليس لي دورٌ فيه . دخلنا في ستار الصنوبر ، على بساط من الأشواك الناعمة التي اثارت حوافرُ الخيل عطرها .

عندما بدأت غابة الصنوبر تفقد كثافتها ، بان ماوراءها . للوهلة الأولى لم استطع ان اتبيّن ماهو . ثم ادركت من الحكايات التي سمعتُها انه الدائرة العظمى لركام الجنائز ، ربما كانت مائة كومة ، كلها من الحجر المكسور ، وكثيرٌ منها لايزال يعتليه الهيكل العظمي للحصان ، وراكبه ، مخوزَقاً على وتد ، وهي الطريقة اللائقة لدفن فارس . انا اتبع الراكبين حول الدائرة العظمى . طيورٌ كبيرة تخفق اجنحتُها مبتعدةً ، وتحلّق في دائرةٍ فوقنا . الريح تهزّ الأوتاد ، فتقرقع في مغارزها ، فاستعدتُ جيشَ الأشباح الذي رأيتُه في حلمي .

نحن ندور راكبين ، حول الدائرة . مرةً ، مرتين ، ثلاثاً ، ثم نتوقف .

الشيخ يُخرج من كتفه محفظة ملأى بالحَبّ ، وبغتةً يقود الفريق كله في سباق وحشيّ بين الموتى ، جيئة وذهاباً ، بين الأوتاد المقعقعة وهياكلها العظيمة ، ملقياً حفنات من الحَبّ في افواه الموتى ، وصارخاً كي يبعد الأرواح الشريرة والطيور . وألحظُ للمرة الأولى أن حولي في نور الشمس سيقاناً هزيلة من الشعير ، والشوفان البري ، وحتى القمح .

نحن في وسط حقل كبير .

تصمت صيحات الرجال ، ويركب الشيخ الى جانبي ، مبتسماً ، ويقدم لي قبضة بذور . آخذها مرتبكاً ، وأُخفق للوهلة الأولى في معرفة مقصده . بابتسامة تكشف كل اسنانه الرديئة ، يرمي رأسه الى الوراء ، ويطلق صرخة تخثِّرُ الدمَ . ثم يومىء برأسه ويبدو كأنه يتوقع شيئاً . وبوعيٍ ذاتي مني ، اعيدُ الصوت . يبتسم ثانيةً ، ويصفق كتفي ، وهو لايزال يبتسم . ادور في الدائرة المتألقة ، مقدماً تقليدي الخافت لصيحة موت الفارس ، وناثراً حفنتي من الحبوب .

والغريب حقاً ، أنني أشعر بلحظة انتعاش ، وأنا اروح وأغدو بين الأشكال المنتصبة ، مما ذكّرني بشيء ـ شيء يعجز ذهني عن الإمساك به ، كأن هذا كله قد حدث من قبل ، انا أصيح ثانيةً ، أعلى ، وادور في الحقل دورة ضيقة ، كما رأيت الآخرين يفعلون ، تاركاً الهواء البارد يملأ رئتيّ ، ثم أطلقُ صيحةً مديدة ، وأشعر انني تحررت من شيء . كأن خوفاً ما خرج مع أنفاسي وجعل روحي حرة . وأقول لنفسي انا روماني ، أخبُّ عائداً الى حيث يجلس الآخرون ، مبتسماً ابتسامة عريضة . انا شاعر روماني . لكن ذلك النفَس ، والصوت الذي يحمله لايزال يخرج من جسمي الى العالم ، وأشعر بأني اكثر حرية ، لهذا السبب يحيِّيني الشيخ بأن يمسك يدي . يقول كلمات لا أفهمها ، وبينما نحن نركب ، عائدين ، ينتحي احد الشبان بحصانه جانباً ، كي اتمكن من أن اتقدم الصفَّ بعد الشيخ مباشرةً ، بينما بقية الفريق تتبعنا .

وانا على ظهر جوادي ، في نور الشمس ، أجدُني افكر ، ربما للمرة الأولى في ثلاثين عاماً ، بشقيقي الذي مات حين كنت شاباً ، والذي احتللت مكانه باعتباري وارث ابي .

قبل ثلاثين عاماً ، وانا على ظهر جوادي ، مثل الآن ، بعد جنازته ، وأبي الى جانبي ، تقدمتُ فجأةً ، وجعلت بيني وبين ابي جواداً . إنه غاضبٌ مني ، وانا منزعج ، متضائل ، لأنني اعرفُ ما يفكر فيه : فمنا ، نحن الإثنين ، كان

اخي هو الذي ينبغي ان يظل حياً . فأنا شخصٌ لعوبٌ ، لايصلح لشيء في العالم . اخي هو الذي كان سيحافظ على آخر قطعة من اراضينا ، ويتسنم منصباً عامّاً رفيعاً ، ويفعل كل ماهو متوقّع من ابنٍ طيبٍ ان يفعله بخصوص تقوى آلهة عائلته . اعرفُ ان هذا حقيقة ، وأحسُّ بحياتي ، وثقل جسدي كله على السرج ، عبئاً . كنت سأفعل أي شيء ، كي أرقد في القبر الحجري ، وكي يكون هو على ظهر جواده ، في نور الشمس ، وأبي الى جانبه . لكن الكبرياء جعلتني عنيداً .

والذنب . كنت لتوّي اخبرتُ ابي بأنني سأغادر ، ولن اعود . ولقد بدأت بالفعل مغادرتي ، مبتعداً عنه على الممر الضيق من الغيضة ، وجاعلاً بيني وبينه مسافة حصان كاملة . انا الآن في طريقي الى روما . انا في طريقي ، وإن كنت لم اعرف هذا بعدُ ، الى المنفى ، منطلقاً الى هذا اليوم ، بعد ثلاثين عاماً ، حين سأكون شيخاً ، اركبُ مع البرابرة في نهاية العالم ، خارج القانون الروماني الذي آمن به ابي ايماناً حاراً ، وخارج الدولة الرومانية التي كرّسنا لها ، حيث لا احد يعرف اللغة الرومانية على مسافة تسعة ايام من الركوب . من كان يحزر ذلك الصباح ، بأننا سنركب ، مبتعدين عن بعضنا ، الى هذا الحدّ ـ وأن لعنته عليّ ، التي قد لايكون نطقَ بها ، بل ربما لم يسمح لها بأن تخترق سطح ذهنه ، قد طوّحتْ بي إلى هذا البعد ، وظلت طيلة هذه السنين مثل تيار باردٍ على ظهري ، حتى في نور الشمس .

الآن ، بغتة ، صار نور الشمس على ظهري دافئاً . ففي مكان ما ، في كل تلك الصيحات البربرية على الهضبة ، جعلتهما يعودان الى حياتي ، الأخ الميت قبل ثلاثين عاماً ، والأب الدفين عاماً واحداً فقط قبل طردي . لقد كنت اصيح من اجلهما . والطقوس التي لم اكد أؤديها خلال جنازة ابي ـ ابنٌ روماني ، يضحّي ، ويرشّ بضع قطرات باردة من اجل ابٍ روماني ـ هذه الطقوس عادت حيةً ، فجأة ، في تلك الصيحة ، فانتهيتُ من الموتى .

حرٌّ ، اخيراً ، لأهيىء موتاً خاصاً بي .

ابنُ خلدون في القلعة

الكتب الكثار التي قرأتُها عن ابن خلدون ، لم أجد فيها ماوجدتُه في هذا الكتاب القادم من المغرب الأقصى ، الذي ألّفه د . علي اومليل* .

يضم الكتاب ستة فصول حول : التاريخ والبحث عن خطابه ، المشروع التاريخي ، النسخة الشرقية لتاريخ ابن خلدون ، الحقل التاريخي لابن خلدون ، التصوف والتاريخ ، تصميم المقدمة .

وفي هذه الفصول كلها ، يتبدّى جهدٌ واضحٌ ، مُضنٍ في اكثر الأحيان ، في البحث والتقصي ومقابلة الآراء والأخبار ، وصولاً الى منهج في التأليف نادرٍ ، إذ حرص علي اومليل على الربط بين سيرة ابن خلدون وآرائه ، سواء تلك الواردة في «المقدمة» ، او المبثوثة عبر صفحات المتن في «العبر وديوان المبتدأ والخبر في اخبار العرب والعجم والبربر» .

●

الربط بين سيرة المؤلف الذاتية ، وتطور آرائه ومواقفه ، ليس بالأمر المتواتر ، ولقد استهواني ما فعله علي اومليل ، حين قدَّمَ ابن خلدون ، ليس فقط باعتباره بؤرة مفاهيم ، وإنما باعتباره انساناً من لحم ودمٍ أيضاً .

يقول المؤلف :

«لطالما أُخذ على ابن خلدون ميله الى التآمر والمساومات اللاأخلاقية ، لكن ما تجب ملاحظته بالذات ، هو انه في اقطار المغرب المتدهورة آنذاك ، حيث يتبدل الملوك والوزراء بسرعة متناهية ، يصبح اللجوء الى التآمر مغرياً لدرجة كبيرة بسبب ضعف الدولة نفسها ، سيّما حين لايكون الطموح السياسي مستنداً الى عصبية . صحيحٌ أن التآمر وسيلة خطيرة ، لكنها هي

الأنجع لتذليل العقبات ، وتحقيق صعود سريع ، إلا ان هذا الطموح عليه ان يواجه ، ليس فقط بلاداً غارقة في الإضطراب والقلاقل ، بل وأيضاً واقعاً سياسياً له قوانينه الصارمة ، من ثم فإن المغامرة لم تمتدّ طويلاً ، وانتهت بقرار [ابن خلدون] الإقلاع عن ممارسة السياسة » .

وهكذا طلب اللجوء عند أولاد عريف بقلعة ابن سلامه . وهذه القلعة ، كما يقول اومليل ، تقع في « تاوغزوت » ، بالقرب من مسكرة ، وكانت في حوزة بني سلامه .

في هذه القلعة بدأ ابن خلدون يكتب « المقدمة » ، أي يكتب « تأويله للتاريخ المرتبط بمغامرة شخصية وبتاريخ عائلي » بتعبير اومليل .

لقد صار ابن خلدون مؤرخاً ، في مثل الفُجاءة . فهو لم يُظهر في البدء أي اهتمام خاص بالتاريخ ، و « الذين تحدثواعن ابن خلدون قبل مرحلة القلعة لم يتحدثوا عنه بصفته مؤرخاً ، والصورة التي رسمها لسان الدين بن الخطيب في « الإطاحة في أخبار غرناطة » عن ابن خلدون الشاب « هي في الأصح صورة فيلسوف » .

لقد دخل ابن خلدون « القلعة » ليظل حتى آخر سنوات حياته متفرغاً او يكاد ، لكتاب واحدٍ هو « العبر » يتناوله بالإضافة والتنقيح بدون انقطاع ، الى أن صارت للكتاب نسختان : نسخة مغربية ، واخرى مشرقية بعد إقاماته وزياراته في مصر وبلاد الشام .

كيف يبدو ابن خلدون للناظر ؟

ما هيأته ؟

يقول ابن عرب شاه في كتابه « عجائب المقدور في اخبار تيمور » ، وكان هذا وقع وهو في السادسة عشرة من عمره اسيراً في يد تيمور لنك الذي حمله الى سمرقند « حيث قضى سنين عديدة ، يقول ابن عرب شاه وهو يصف لقاء ابن خلدون بتيمور لنك في مسعى من صاحب المقدمة لإنقاذ دمشق ، إنه كان يرتدي لباساً مغربياً ، برنساً أسود رقيقاً ، ويضع عمامة

خفيفة ، فصيح اللسان .

كما ان ابن خلدون كان يلاحظ بطريقة متعالية تمليها عليه طبيعته المتحضرة ، « وليمة الرؤساء المغول » ، وهم يلتهمون في حضرة تيمور لنك ، مقادير ضخمة من اللحوم ، كذلك فإن تيمور لنك عندما استقبل ابن خلدون لم يخفِ إعجابه بطرائق تصرف ابن خلدون التي اكتسبها من معاشرته الطويلة للبلاطات المتحضرة الكبيرة .

●

كان ابن خلدون ، وهو في قلعة ابن سلامة العالية ، يرصد ما تمنحه الأعالي ، يرصد الجبال ، سلسلة الأطلسي الكبير ، ومجموع سلسلة الأطلس الممتدة من الأطلس الى طرابلس ، ويجد في رجالها تجسيداً لمعنى العصبية التي جعل منها محرّك التاريخ ، سواء كانت هذه العصبية حقيقة ، او وهماً ، ذلك ان الوهم يكتسي كل قوة الحقيقة ، مادام يشرط العلائق البشرية في البادية ، وخاصة علائق السلطة والحرب .

يجد ابن خلدون صورة العظمة ، وجبل درن الكبير ، في صورة بلاد مصمودة وسكانها .

« فهذه البلاد عامرة بقرى عديدة محصنة وخصبة ، وتتوفر على اسواق غنية تجذب نحوها التجار من الأصقاع البعيدة . اما الرجال فإن ابن خلدون يسجل تعلقهم بالاستقلال ، متحدثاً عن مقاومتهم كل محاولات الغزو ، ويذكر مقاومتهم الطويلة للغزاة العرب الأوائل ، وكذلك للمرينيين . ويخصّ ابن خلدون ، من خلال تاريخه المختصر لكل واحدة من القبائل التي اسست الدولة الموحدية ، جانب كفاحها للحفاظ على استقلالها ، ومن هذه الناحية ، يعتبر « هسكورة » قبيلة في المقام الأول ، لأنها تحتل المكان الأكثر علواً في جبل درن » .

إنها الإطلالة من القلعة العالية .

●

الآن افكّرُ : ترى ماذا كان سيحلّ بابن خلدون ، او يتأتّى منه ، لو ظل في مؤامراته السياسية الصغيرة في مغرب منهكٍ بالطاعون والإحتراب ؟ من سيكون لو ظل بين السلاطين الصغار او الكبار من المرينيين والحفصيين والزناتيين وبني عبد الواد ؟

كان مستحيلاً ، مثلاً ، ان ينتقل من حرفة القلم الى حرفة السيف ، ولو انه انتقل ، فعلاً ، الى حرفة السيف ، فلسوف يُقتَل سريعاً بالسيف...

آنذاك ، أكان سيولد بيننا مؤرخٌ ؟

* الخطاب التاريخي ـ دراسة لمنهجية ابن خلدون ، علي اومليل ، الدار البيضاء ١٩٨٤ .

حدود ابن خلدون

إن كانت قراءة المقدمة ، والكتاب ، في ضوء السيرة ، من مزايا « الخطاب التاريخي ـ دراسة لمنهجية ابن خلدون » ، فثمت مزايا اخرى تؤكد فضل علي اومليل في دراسته هذه ، ومن بينها أن المؤلف سعى ، جاهداً ، الى التخفيف من حماسة المتحمسين لابن خلدون ، هؤلاء الذين يقولون ، مثلاً ، إن نظرية ابن خلدون في التاريخ هي نظرية عامة ، وإن الرجل ذو فكر جدليّ ، وإنه مؤسس علم الاجتماع « السوسيولوجيا »... الى آخر قائمة الفتوحات المنسوبة الى ابن خلدون .

بل ان علي اومليل يمضي أبعد في مسار « التخفيف » ، إذ تساءل تساؤله الفريد : هل نظرية ابن خلدون عن الدولة ، نظريةٌ أصيلةٌ ؟

●

يرى علي اومليل ، أن نظرية ابن خلدون في التاريخ هي نظرية خاصة ، لا عامّة ، وأن مفهوم الدولة المعتمد على هذه النظرية هو مفهومٌ محدّدٌ بالدولة التي يؤسسها الرُّحَّل ، وأهل الجبل ، وأن الحقل التاريخي للنظرية ومفاهيمها خاصٌّ بالمغرب في فترة انحطاطه :

« وأمّا لهذا العهد ، وهو آخر المائة الثامنة ، فقد انقلبت احوالُ المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة (...) الى مانزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيَّف الأمم ، وذهب بأهل الجيل ، وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها (...) وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر... » .

« من مقدمة ابن خلدون »

يشرح ابن خلدون اسباب تخصيصه «العِبر» لتاريخ المغرب ، مبيناً أن اقطار المغرب كانت تشهد تبدلات عامة نتيجة عاملين هما الطاعون الجارف ومجيء البدو والعرب ، آن كانت دول المغرب «على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها» . كما أن تاريخ بلدان المغرب لم يحظ باهتمام من جانب مؤرخي المشرق ، حتى تاريخ المسعودي قصَّر في استيفاء احوال المغرب رغم براعته في وصف الأقاليم والشعوب والعوائد والنِحَل ، كما يورد ابن خلدون في المقدمة .

يقول علي اومليل :

«في فقرة من كتاب ـ التعريف ـ يسجل ابن خلدون في عباراتٍ أخّاذةٍ ، المآل الذي انتهت اليه وظيفته السياسية الطويلة الأمد ، والمقترنة بتقلبات عديدة ، وهو الفشل» .

هكذا غادر ابن خلدون المشهد السياسي المرتبك ، الى قلعة ابن سلامة ، متفرغاً للدراسة ، ومنجزاً مشروعه التاريخي .

الفشل كان خاتمة الحياة السياسية الحافلة لابن خلدون .

ترى ، هل طبع هذا الفشل ، دولة ابن خلدون المفهومية ، بطابعه ؟

أنا اميل الى الجواب ايجاباً .

فالدولة الخلدونية يأتي بها البُداةُ (من الصحراء او الجبل) المنقلبون بعصبيتهم القوية ، على عصبية واهنة في المدينة ، ليؤسس هؤلاء البداة دولتهم التي سوف تهن عصبيتها هي الاخرى ، فتفقد دولتها ، وهكذا تتعاقب الدول الفاشلة ، واحدة تلو الاخرى ، بدون أن تؤسس لعلمٍ او حضارةٍ ، او تسند عمراناً بتعبير ابن خلدون .

يقول علي اومليل :

«إن هؤلاء البدو هم العناصر الفاعلة حقاً في التاريخ ، مادامت الحركة التاريخية تتم ، حسب ابن خلدون ، انطلاقاً من البادية . داخل هذه الحدود وحدها ، نستطيع أن ندرك معنى التاريخ الخلدوني الحديث . لأجل ذلك فإن جميع الأحاديث المتصلة بـ «فلسفة التاريخ» عند ابن خلدون ، باعتبارها

شاملة لمجموع التراث الكوني هي احاديث في غير موضعها ، وكثيراً ما حاول البعض التقريب بين « فلسفة التاريخ » في المقدمة وبين الفلسفات التي ظهرت بعدها في الفكر الغربي ، ليخلصوا من ذلك الى أن ابن خلدون كان رائداً في هذا المجال ، كما كان رائداً في علم الاجتماع . إلا أن قيام فلسفة التاريخ بمعناها الدقيق ، اي الطريقة القصدية في إدراك التاريخ باعتباره معطىً موضوعياً وعنصراً فاعلاً ، وفي التفكير في مبادئه المحركة وغائيته ، هي مسألة مرتبطة تاريخياً ، بتطور الفكر الغربي ، وخاصة منذ القرن الثامن عشر » .

أهناك عنصرٌ عبثي في الدولة الخلدونية ؟

دورة الفشل التي لافكاك منها ، أليست عبثاً ؟

ومن هنا ، قد يتساءل المرء : هل أنكرَ ابنُ خلدون التاريخ ، عبر التأريخ ؟

●

أُحبُّ ، ربما بسببٍ من طبيعة الشعر الذي اكتبُ ، أن أُجسِّدَ المفاهيم ، او اشخِّصها . وهنا ، في حالة الدولة الخلدونية ، سوف ارى أمامي ثلاثة أشخاص : بدوياً ، وملكاً وفيلسوفاً ، ذوي ملابس تناسب كلاً منهم ، أمّا الوجهُ فواحدٌ...

البدوي يمثل مرحلة المعاش .

والملكُ هو البدوي وقد أقام سلطته .

والفيلسوف هو عقل العمران (انتاج العلوم والصنائع)

●

نعود الى احد اسئلتنا الأولى :

هل نظرية ابن خلدون عن الدولة ، نظرية أصيلة ؟

يقول علي اومليل : « إذا اعدنا كل الكلام عن العمران في المقدمة الى

هذا الإطار الثلاثي ، نكتشف أن هذا التقسيم يقابل في الواقع ، التقسيم الفلسفي القديم للنفس ـ فالجزء الأول (المعاش) يقابل النفس الشهوانية ، والجزء الثاني (السلطة) يقابل النفس الغضبية ، والثالث يقابل النفس العاقلة . إذا كان الأمر كذلك ، فإننا نستطيع ان نؤكد أن العمران الخلدوني يقوم على مفهوم فلسفي أساسي : مفهوم النفس (...) وأن ابن خلدون لم يطور نظريته عن العمران إلا انطلاقاً من مفاهيم الفكر القديم » .

●

وهناك جانب آخر يخفف من اطروحة أصالة النظرية لدى ابن خلدون أعني نظريته حول نشأة الدولة وتطورها .

ذلك لأن المؤرخين المغاربة الذين سبقوا ابن خلدون ، قدّموا تفسيراً لنشأة الدولة الموحدية وتطورها انطلاقاً من مفاهيم سوف نجدها عند ابن خلدون في ما بعد .

لقد حقَّبَ هؤلاء المؤرخون تاريخ دولة الموحدين الى ثلاث مراحل :

الأولى هي مرحلة القوة والتجانس ، وفيها تكون صرامة الأخلاق ومشاركة رؤساء القبائل المؤسسة في تسيير الشؤون . والمرحلة الثانية يتخلص فيها الملك من هؤلاء الرؤساء ، ويقوى الحجّاب ، ويمثل الخليفة الناصر (٥٩٥-٦١٠هـ) هذه المرحلة . وفي المرحلة الثالثة انغمست الدولة الموحدية في ترف الحضارة ، ويمثل هذه المرحلة ، المستنصر ، ابن الناصر

●

الحديث عن ابن خلدون ، يظل أثيراً .

المحتويات

مقدمة 5

أماكن 7

الطريق إلى كردستان 9

أيام أسترالية 29

أثينا بعيدة 49

أثينا تقترب 53

دهشة المكان 57

باريس التي أحب 61

التي هو في بيتها 66

عن الانتباه والواسطة 69

القاهرة كتاب 73

يونانيّ فلا يُقرأ 77

جنة المعلقات 81

أجبال المطيحة 84

مغادرات : الخروج من عدن 88

مغادرات : الخروج من البصرة 93

مغادرات : الخروج من بيروت 97

مغادرات : الخروج من باريس 101

ماء الزعفران 105

الصيف وبحاره 108

الشعر وأهله 111

ما أشقّ الطريق إلى الشعر 113

الشـاعـر في المنفى 118
فتنة اللحظة الطائشة 123
شـعـراء الشـعـاب 128
بول إيلوار في الضاحية 132
قيثارة أيلول الشمالية 137
أميـرة التـتـر 142
غـرفـة الفندق 147
المشي في أحلام ظبية 151
قطوف من تونس 156
مراقي الجبال الوعرة 160
صيـد الفراشـات 164
في المحتَرف الشعري 168
محاولة الشعر الصافي 171
الآن وقد هدأ الضجيج 174
الأزهار والأسـوار 178
عن اليونسكو والكتاب والحرية 181

روايـــــة ورؤى 185
فردوس الرواية الإفريقية 187
بانتظار البرابرة 192
أشـــواق طائر الليل 197
«الملحقة» في أرضٍ عائمة 201
ميشيما والكرامة 206
خضـراء الدمن 210
الروائي يدخل البيت 215
الموت في نهايات العالم 219
ابن خلدون في القلعة 223
حـدود ابن خلدون 227

خطوات الكنغر

حين رأيت الكنغر ، للمرة الأولى ، في حديقة يابانية ، بإحدى ضواحي «سيدني» البعيدة ، استهوتني خطواته الواثبة ، وهو يتلفت في غير ذعر ، لايبالي بالمتفرجين ، صغاراً أو كباراً . الكنغر لايستقر طويلاً في مستقَرّ ، حتى لكأنه يستمتع بانتقالاته الرشيقة ، معتبراً الفضاء الوسيع بيته بلا منازع .

هذه النصوص التي يضمُّها الكتاب ، أخذت من الكنغر خطوته ، فهي تتنقل ، مسرعةً الى حدّ التعجُّل أحياناً ، في الأماكن والكتب والإهتمامات ، محاولة اللحاق ، ولو لاهثةً ، بزخمٍ أو مايبدو زخماً .

غير أن في هذا التواثب ، نوعاً ولو هيّناً من نظام ، فالكتاب يدور حول ثلاثة محاور هي الأماكن والشعر والرواية ، كما أن الآراء المبثوثة تحمل مسؤولية النظر الجادّ في ما أرود وأتابع ، وأرى .

النصوص ، في غالبها ، كتبتْ في أواسط التسعينات من قرننا هذا الذي يكاد يغيب .

وبهذا المعنى ، لايمكن اعتبارها اصداء بعيدة . إن فيها شيئاً من رنين لو كان بالإمكان تعليق جرس في رقبة الكنغر!

سعدي يوسف

سعدي يوسف

خطوات الكنغر

AL-MADA BAGHDAD
2019
PRICE:6$